

رجال عدالة قرطبة

إدجار والاس

رجال عدالة قرطبة

تأليف

إدجار والاس

ترجمة

أحمد سمير درويش

مراجعة

الزهراء سامي



رجال عدالة قرطبة

إدجار والاس

The Just Men of Cordova

Edgar Wallace

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٦٢ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٧
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

(١) ثلاثة رجال من قرطبة

كان الرجل الجالس إلى الطاولة ذات السطح الرخامي في مَقهى «جريت كابتن» — إن صحَّت ترجمتي للافتة — رجلًا ميسورًا خالي البال. كان رجلًا طويل القامة ذا لحية مُشذَّبة وعينين رماديتَين مُتجهمتَين تجوبان الشوارع في شرود، فكأنه لا يعرف مُبتغاه. راح يرتشف فنجانًا من القهوة الممزوجة باللبن، وينقر على الطاولة بيديه البيضاوين النحيلتين عازفًا نغمة صغيرة.

كان متَّشحًا بالسواد، الذي يُعدُّ لونًا تقليديًّا رائجًا في إسبانيا، وكانت عباءته السوداء مبطنة بالمخمل. كانت رابطة عنقه من الساتان الأسود، وكان بنطالُه المُحكَم عليه تمامًا مربوطًا أسفل حذائه المدبَّب، على طريقة بعض السادة الإسبان.

كانت هذه الملامح التي يتَّسم بها ملبسُه غريبة أشد الغرابة في قرطبة، بالرغم من أنه كان تقليديًّا بالدرجة الكافية. ربما كان إسبانيًّا؛ إذ كانت العيون الرمادية إرثًا من جيش الاحتلال، وقد وُلِد الكثير من الأشخاص من زيجاتٍ تَجمع بين أيرلنديِّي ولينجتون الذين يَغلب عليهم المرَحُ والبهجة، وبين سيدات إسترِيمادورا المرهَفات الحس.

كانت طريقة حديثه سليمة تمامًا بلا أي أخطاء، وكان يتحدَّث بلثغة أندلسية؛ مُجتزئًا كلماته مثلما يفعل أهل الجنوب. وقد تجلَّى الدليل على أصله الجنوبي في ردِّ فعله تجاه الشحَّاذ المُتأوِّه الذي جاءه يجرُّ قدمَيه في ألم ومرارة، مادًّا يده طلبًا للإحسان.

«باسم العذراء، والقدِّيسين، والرب الذي هو فوق الجميع، أتوسل إليك يا سيدي أن تمنحني عشرة سنتيمات.»

اتجه الرجل ذو اللحية بعينيه الشاردتين نحو راحة يده الممدودة.

ثم قال باللكنة العربية المدغمة المميِّزة لمنطقة المغرب الإسباني: «سوف يعطيك الرب.»

قال الشحاذ بنبرة رتيبة: «إنني لن أكفَّ أبدًا عن الدعاء لفخامتك بالسعادة، حتى وإن عشتُ مائة عام.»

نظر ذو العباءة المبطنة بالمخمل إلى الشحاذ.

كان الشحاذ رجلًا متوسط الطول، حاد الملامح، طليق اللحية على غرار أمثاله، ومعصبًا بضمادات ثقيلة تُغطِّي رأسه وإحدى عينَيه.

كان أعرج أيضًا تتجسَّد قدماه في كتل بلا شكل محدَّد من الضمادات الملفوفة، وكانت يداه الشاحبتان تَقبضان بقوة على عصا.

قال متأوهًا: «أيها السيد والأمير، بيني وبين آلام الجوع اللعينة عشرة سنتيمات، ولن تهنأ فخامتك بنومك وأنت تَراني في خيالك أتقلَّب على جمر الجوع.»

قال الآخر في صبر: «فلتذهب في سلام.»

أطلق الشحاذ زفرةَ أنين قائلًا: «فليباركك يسوع في حجر أمه» ثم أشار بعلامة الصليب «بحق القدِّيسين ودماء الشهداء المباركة، أستحلفك ألَّا تتركني أموت على جانب الطريق، بينما يمكن لعشرة سنتيمات، لا تُساوي لديك شيئًا شأنها شأن قلامة أظافرك، أن تشبع معدتي.»

ارتشف الرجل الجالس إلى الطاولة قهوته دون أن يُحرك ساكنًا.

ثم قال: «اذهب في رعاية الرب.»

غير أنَّ الرجل لم يزل يتباطأ ويتلكأ.

راح ينظر يَمنة ويسرة إلى الشارع المُشمِس بلا حول ولا قوة، ثم حدَّق في المقهى البارد المظلم من الداخل؛ حيث جلس نادلٌ إلى إحدى الطاولات يقرأ الجريدة دونما اكتراث لأي شيء.

بعد ذلك مال إلى الأمام، ومدَّ يده ببطء ليأخذ كسرة كعك من الطاولة المجاورة.

سأل بإنجليزية ممتازة: «أتعرف د. إيسلي؟»

بدا السيد المختال بنفسه الجالس إلى الطاولة مستغرقًا في التفكير.

سأل باللغة نفسها: «لا أعرفه، لكن لماذا؟»

قال الشحاذ: «يجدر بك أن تعرفه؛ إنه شخص مثير للاهتمام.»

وانصرف يجرُّ قدميه بصعوبة عبر الشارع دون أن يزيد كلمة. وراح السيد يُراقبه ببعض الفضول وهو يشق طريقه ببطء إلى المقهى المُجاور، ثم صفَّق بحدة جعلت النادل الغافل، الذي كان في تلك اللحظة منكبًّا على الجريدة على نحو ملحوظ، يستفيق فجأة،

وحصل منه على قيمة الفاتورة، وعلى بقشيش يَتناسب مع قيمتها. وبالرغم من أن السماء كانت صافية بلا غيوم، فقد ألقت الشمس بظلال زرقاء على الشارع، وكانت تلك الظلال نفسها تحمل برودة قارصة؛ إذ كانت تلك هي الأيام الباردة التي تسبق أولى بشائر حر الربيع.

وقف الرجل فاردًا قامته التي كان طولها يزيد على ستِّ أقدام، وحرَّك عباءته قليلًا وبخفَّة ألقى أحد طرفيها على كتفه، ثم بدأ يمشي رويدًا في الاتجاه الذي ذهب منه الشحاذ.

قاده الطريق إلى شوارع ضيقة للغاية؛ حتى إن الجدران على كلا الجانبَين قد تخلَّلتها شقوق عميقة تسمح بمرور صناديق عربات النقل. أدرك الشحاذ الذي كان في مقهى كال بارايزو واجتازه، سالكًا الشوارع المؤدية إلى شارع سان فرناندو، الذي سار فيه بتمهُّل شديد، ثم عرج إلى شارع كاريرا دي بوينتي؛ فصار في ظلال المسجد-الكاتدرائية المكرس لله والرب على حدٍّ سواء، بحيادية تشرح الصدور. وقف متردِّدًا أمام البوابات المؤدية إلى الأفنية الداخلية، وقد بدا في شيء من الريبة، ثم استدار مجددًا وانحدر عبر التل نحو جسر كالاهورا. امتد الجسر في استقامة شديدة، بأقواسه الست عشرة التي شيَّدها الموريون القدماء. وصَل الرجل ذو العباءة إلى منتصف الجسر، ومال من فوقه يراقب باهتمام فاتر تلك المياه الصفراء المتلاطمة في النهر الكبير.

رأى الشحاذ بزاوية عينه وهو يتقدَّم ببطء نحو البوابة ويسير في اتجاهه. وقد انتظر لوقت طويل؛ إذ كان الرجل يتقدم ببطء. وفي النهاية اقترب منه في حذر، وقبَّعته في يده وراحة يده ممدودة. كان سلوكه كسلوك الشحاذين، لكن صوته كان صوت رجل إنجليزي مثقَّف.

قال في نبرة جادة: «مانفريد، لا بد أن ترى هذا الرجل المدعو إيسلي. لديَّ سبب خاص لطلبي ذاك.»

«من هذا الرجل؟»

ابتسم الشحاذ.

وقال: «إنني أعتمد على الذاكرة إلى حدٍّ كبير؛ إذ إنَّ المكتبة الموجودة في مسكني المُتواضع محدودة إلى حدٍّ ما، لكن لديَّ فكرة محدودة أنه طبيب في إحدى ضواحي لندن، أو بالأحرى جراح ماهر.»

«ماذا يفعل هنا؟»

ابتسم جونزاليس الجليل مجددًا.

«يوجد في قرطبة رجل يدعى د. كاجالوس. ونظرًا إلى أجواء الفخامة في ساحة باسيو دي لا جران كابيتان، والتي أعلم أن مسكنك الفاخر يقع فيها، لا يصلك أي صدًى لعالم قرطبة السُّفلي.» أشار إلى أسطح المباني الواقعة في الطرف الأقصى من الجسر وما تعج به من فوضى وأردف قائلًا: «هنا، في كامبو دي لافيرداد؛ حيث يعيش الناس في سعادة على أجر لا يتعدَّى بيزيتَيْن في الأسبوع، نَعرف د. كاجالوس. إنه رجل معروف وذو شعبية؛ كم هو رجل رائع، يصنع معجزات لا تَحلم بها في فلسفتك؛ فهو يُعيد البصر إلى الكفيف، ويسبل تعاويذ على المُذنبين، ويصنع أشربة الحب المعصوم للأبرياء! وهو يتمتَّع بالقدرة على إزالة دمل، أو إيقاف ويلات مرض النوم.»

أومأ مانفريد، وقال وفي عينَيه بريق: «حتى في ساحة باسيو دي لا جران كابيتان لا يَفقِد احترامه. لقد رأيته وأخذت مشورته.»

اندهش الشحاذ بعض الشيء وقال وفي صوته نبرة إعجاب: «أنت رجل مُدهِش. متى فعلت ذلك؟»

ضحك مانفريد ضحكة خافتة.

«في إحدى الليالي، قبل بضعة أسابيع معدودة، حين وقف أحد الشحاذين أمام باب الطبيب المبجَّل ينتظر بفارغ الصبر حتى يَنتهي زائر غامض، كان مُتخفيًا بالكامل، من أمره.»

قال الآخر مُومئًا: «أذكر ذلك. كان غريبًا من رُندا، وكان لديَّ فضولٌ لمعرفة أمره؛ هل رأيتَني وأنا أتبعه؟»

قال مانفريد بجدية: «رأيتُك. رأيتك من زاوية عيني.»

سأل جونزاليس مُندهشًا: «لقد كان أنت، أليس كذلك؟»

قال الآخر: «بلى، لقد خرجت من قرطبة لأذهب إلى قرطبة.»

لاذ جونزاليس بالصمت لبرهة.

ثم قال: «سأتقبَّل الإهانة. والآن، بما أنك تعرف الدكتور، أترى أي سبب يدفع طبيبًا إنجليزيًّا عاديًّا إلى زيارة قرطبة؟ لقد قطع هذه المسافة كلها من إنجلترا على متن قطار الجزيرة الخضراء السريع، دون أن يتوقَّف في محطة واحدة. وسوف يُغادر قرطبة غدًا مع أول ضوء للنهار على القطار السريع نفسه، وسوف يأتي لاستشارة د. كاجالوس.»

«بويكارت هنا؛ فهو شديد الاهتمام بأمر هذا المدعو إيسلي، حتى إنه سيأتي إلى قرطبة خلسة بصحبة بيدكير، سعيًا للحصول على معلومات بشأن هذا المرشد الرحَّالة، وسيستسلِم في خنوع لأخطائه.»

مسَّد مانفريد على لحيته الصغيرة، وفي عينيه الحكيمتَين ذلك التعبير التأمُّلي الجاد نفسه الذي ارتسم فيهما عندما شاهد جونزاليس آتيًا يُجرجِر قدميه من مقهى دي لا جران كابيتان، ثم قال: «كانت الحياة لتُصبحَ مُملَّة بدون بويكارت.»

«ستكون مملَّة حقًّا! آه يا سيدي، لأقضينَّ عمري في الثناء عليك، ولسوف يَرتفِع في الهواء مثلما يرتفع دخان البخور المقدَّس إلى عرش السماء.»

وفجأةً تخلَّى عن أنينه؛ إذ كان ثمَّة شرطي من حرس المدينة يَقترب نحوهما، لاشتباهه في الشحاذ الذي وقَفَ بيدٍ مَمدودة في ترقُّب الإحسان.

هز مانفريد رأسه بينما كان الشرطي يجوب الأرجاء على مهَل.

وقال: «اذهب في سلام.»

قال الشرطي ويدُه الغليظة تنقضُّ على كتف الشحاذ: «كلب، لص ابن لص، اذهب حتى لا تؤذي أنف هذا السيد المرموق برائحتك.»

ووقف يراقب الرجل وهو يعرج مُبتعدًا، واضعًا يديه حول خاصرتَيه، ثم التفت إلى مانفريد.

تحدث بحدة فقال: «لو كنت رأيت هذا الحثالة من قبل يا صاحب الفخامة، لأرحتك من رفقته.»

قال مانفريد بأسلوب تقليدي: «لا عليك.»

تابع الشرطي محررًا إحدى يدَيه من خاصرته ليُبرم أحد طرفي شاربه الهزيل: «إنني أؤدِّي عملًا شاقًّا في حماية الأثرياء والسادة الكرام الأجواد من هؤلاء الخنازير. ويعلم الله كم أن راتبي هزيل، والحياة صعبة في ظل وجود ثلاثة أفواه جائعة يجب إطعامها، فضلًا عن والدة زوجتي، والتي تأتي دومًا في أيام الأعياد ولا بدَّ من اصطحابها لمشاهدة مصارعة الثيران. وفوق ذلك كله يا سيدي، فهي من أولئك النساء الأندلسيات المُتغطرِسات اللاتي لا بد أن يتخذن مقعدًا في الظل مقابل بيزيتَيْن. أما أنا، فلم أذُقْ طعم النبيذ الإسباني منذ عيد القديسة تريزا ...»

دس مانفريد بيزيتا في يد الشحاذ ذي الزي العسكري. وسار الرجل بجواره حتى نهاية الجسر، ومضى يَسرد على مسامعه مشكلاته المنزلية سردًا تفصيليًّا ومشوقًا، بحُريةٍ وحميميةٍ لا وجود لهما في أي مكان آخر في العالم. ووقفا يتسامَران بالقرب من المدخل الرئيس للكاتدرائية.

تساءل الشرطي: «فخامتك لست مِن قُرطبة، أليس كذلك؟»

قال مانفريد دون تردُّد: «أنا من مالقة.»

أسر له الشرطي قائلًا: «كان لي أختٌ مُتزوِّجة من صياد من مالقة. وقد مات زوجها غرقًا، وهي الآن تعيش مع رجلٍ لا أذكر اسمه. إنها امرأة مُتدينة ورعة، لكنَّها أنانية للغاية. هل ذهبت فخامتك إلى جبل طارق من قبل؟»

أومأ مانفريد بالإيجاب؛ إذ كان مهتمًّا بمتابعة مجموعة من السائحين كانوا يُشاهِدون أمجاد بويرتا ديل بيردون.

انفصل أحد السائحين عن رفقته واتجه نحوهما. كان رجلًا متوسِّط الطول ذا بِنية جسدية قوية. كان ثمة تحفُّظٌ غريبٌ في سيمائه وهدوء كئيب في قسمات وجهه.

تساءل بلغة إسبانية ركيكة: «هلا أرشدتماني إلى ساحة باسيو دي لا جران كابيتان؟»

قال مانفريد في دماثة: «ذاك طريقي، إن تفضَّل السيد بمرافقتي …»

قال الآخر: «سأكون ممتنًّا لك.»

أخذا يتحادَثان قليلًا في موضوعات تنوعت بين الطقس والطابع المبهج للمسجد-الكاتدرائية.

قال السائح فجأة: «لا بد أن تأتي وتقابل إيسلي.» وكان يتحدَّث حينها بإسبانية ممتازة.

قال مانفريد: «حدثني عنه. فقد أثرتُما فضولي أنت وجونزاليس بحديثكما عنه يا عزيزي بويكارت.»

قال الآخر بجدية: «إنها مسألة مهمَّة. إيسلي هو طبيب في إحدى ضواحي لندن. لقد وضعته تحت المراقبة لبضعة أشهر. لديه عيادة صغيرة — بل صغيرة للغاية في الواقع — ويشرف على علاج بضع حالات. ليس لديه نشاط ذو أهمية في ضاحيته، وقصته غريبة؛ لقد كان طالبًا في كلية لندن الجامعية، وفور حصوله على شهادته الجامعية غادَرَ إلى أستراليا مع شابٍّ يُدعى هينلي. كان هينلي فاشلًا ميئوسًا منه وكان يُعاني بشدة في اختباراته، غير أنَّ الاثنين قد تصادَقا بسرعة، وهو ما قد يُفسِّر رحيلهما معًا ليُجرِّبا حظهما في بلدٍ جديد. لم يكن لأيٍّ منهما أي أقرباء في العالم، عدا عم ثري لهنلي كان يعيش في مكانٍ ما في كندا، وهو لم يرَه من قبل. فور وصولهما إلى ملبورن، انطلق الاثنان عبر البلاد وهما يَعتزمان التوجُّه إلى مناجم الذهب الجديدة التي كانت في أوجِ ازدهارها آنذاك. لا أدري موقع هذه المناجم؛ غير أنَّ إيسلي لم يصل إلا بعد ثلاثة أشهر على أيِّ حال، وقد وصل بمفردِه؛ إذ تُوفي رفيقُه في الطريق!»

وتابع بويكارت حديثه قائلًا: «يبدو أنه لم يَبدأ في مُمارسة مهنته لثلاث سنوات أو أربع. يُمكننا تتبع تنقُّلاته من معسكر تنقيبي إلى آخر؛ حيث نقَّب قليلًا وقامر كثيرًا، وكان معروفًا في العموم باسم د. إس؛ لعله اختصار لإيسلي. ولم يُحاول أن يؤسس سمعته كطبيب حتى وصوله إلى أستراليا الغربية. كان لديه شيءٌ أشبه بالعيادة، صحيح أنها لم تكن راقية بالدرجة الكافية، لكنها كانت مربحة بلا شك. اختفى من مدينة كولجاردي في عام ١٩٠٠، ولم يُعاوِد الظهور في إنجلترا حتى عام ١٩٠٨.»

كانا قد وصَلا إلى الساحة في ذلك الوقت. وكانت الشوارع أكثر ازدحامًا مما كانت عليه حين كان مانفريد يَتتبَّع الشحاذ.

قال: «لديَّ شقة هنا. تفضَّل بالدخول لنَحتسيَ بعض الشاي.»

كان يسكن شقة تقع فوق محلٍّ مَصُوغات في كال موريرا. وكانت شقَّة فخمة جيدة التأثيث. وبينما كان مانفريد يُدخل المفتاح في الباب، تابع موضحًا: «وهي مُميزة على نحوٍ خاص فيما يتعلَّق بالإضاءة.» ووضَع غلاية شاي فضِّية على الموقد الكهربائي.

تساءل بويكارت: «الطاولة معدَّة لاثنين؟»

قال مانفريد بابتسامة خفيفة: «غالبًا ما يَأتيني زوَّار. أحيانًا تصبح مهنة التسوُّل عبئًا لا يُحتمل لصديقنا ليون، ويدخل إلى قرطبة عبر السكة الحديدية، بصفتِه عضوًا مرموقًا من أعضاء المجتمع وكله رغبة في الاستمتاع برفاهيات الحياة، وبالقصص. فلتُكمِل قصتك يا بويكارت؛ فأنا متشوق لسماعها.»

جلس «السائح» في مقعدٍ وثير ذي ذراعين. وتساءل: «إلى أين وصلت؟ آه، نعم، اختفى د. إيسلي من كولجاردي، وبعد اختفاءٍ دام ثمانية أعوام، عاد للظهور في لندن.»

«هل أحاط بظهوره أي ظروف استثنائية؟»

«كلا، كان الأمر عاديًّا تمامًا. يبدو أنَّ النسخة الأحدث من نابليون قد تبنَّته.»

سأله مانفريد رافعًا حاجبَيه: «أتقصد كولونيل بلاك؟»

أومأ بويكارت برأسه بالإيجاب.

ثم قال: «بالضبط، هو ذلك الرجل الذي بزغ نجمه بسرعة هائلة. على أيِّ حال، يبدو أن إيسلي ينعم برغد العيش، بفضل الحالات التي استطاع سرقتَها من المُمارسين الآخرين في ضاحيته، والتي تقع في مكانٍ ما في حي فوريست هيل، والحالات التي تأتيه بتزكية من نابليون. لقد جذب انتباهي لأول مرة ...»

في تلك اللحظة سُمع طرق على الباب، ورفع مانفريد إصبعه مُحذِّرًا. اجتاز الغرفة وفتح الباب. كان حارس البِناية واقفًا أمامه، وفي يده قبَّعة؛ وكان هناك من خلفه، على مسافة قصيرة بالأسفل، شخص غريب، وكان واضحًا أنه إنجليزي.

قال الحارس: «يوجد سيد يرغب في لقاء فخامتك.»

قال مانفريد مخاطبًا الغريب بالإسبانية: «مرحبًا بك في منزلي.»

قال الغريب الواقف على السلم: «يُؤسفني أنني لا أتحدث الإسبانية جيدًا.»

سأله مانفريد بالإنجليزية: «هلا صعدت؟»

فصعد الآخر السلَّم بتُؤَدة.

كان رجلًا في العقد السادس من العمر. كان شعره رماديًّا طويلًا، وحاجباه كثيفَين وأشعثَين، وفكه السُّفلي بارزًا، مما أضفى على وجهه مظهرًا مُنفِّرًا بعض الشيء. كان يرتدي معطفًا طويلًا ويحمل في يده المكسوة بقفاز قبعة كبيرة ناعمة.

أخذ يحدق عبر الغرفة محولًا بصره من أحدهما إلى الآخر.

قال: «اسمي إيسلي.»

وأطال في نطق صوت الـ «س» فتردَّد صوته كأنما كان يصدر هسيسًا. كرر الاسم وكأنه يستمد بعض الرضا من التكرار، ثم أردف قائلًا: «د. إيسلي.»

أشار له مانفريد بالجلوس، لكنه هز رأسه رافضًا.

قال بنبرة حادة: «سوف أقف؛ فحين يكون لديَّ مُهمَّة أظلُّ واقفًا.» نظر بارتياب إلى بويكارت. ثم قال بنبرة تأكيدية: «لديَّ مهمة خاصة.»

قال مانفريد: «لديَّ ثقة كاملة في صديقي.»

أومأ إيسلي بالموافقة كرهًا. قال: «أعلم أنك عالم ورجل على دراية كبيرة بإسبانيا.»

هز مانفريد كتفَيه؛ فقد كان بصفته الحالية يشتهر بكونه أديبًا شبه علمي، وكان قد نشر كتابًا عن «الجريمة العصرية» تحت اسم «دي لا مونت».

قال الرجل: «وفي ظلِّ معرفتي هذه، جئت إلى قرطبة؛ لا سيما وأنَّ لديَّ مهمة أخرى أيضًا، لكنها ليسَت ملحة.»

راح يبحث حوله عن كرسي، فقدم له مانفريد واحدًا هوى فيه، مُديرًا ظهره إلى النافذة.

تحدث الطبيب بتروٍّ شديد وقد مال إلى الأمام، ووضع يديه على ركبتَيه: «سيد لا مونت، إن لديك قدرًا من المعرفة بالجريمة.»

قال مانفريد: «لقد ألَّفتُ كتابًا عن الموضوع، غير أنَّ ذلك لا يعني ما تقول بالضرورة.»

قال الآخر بصراحة مباشرة: «كان لديَّ هذا التخوف. وكنتُ أخشى أيضًا ألا تكون مُتقِنًا للإنجليزية. والآن أريد أن أسألك سؤالًا واضحًا، وأريد منك إجابة واضحة.»

قال مانفريد: «سأكون مُستعدًّا تمامًا لذلك قدر استطاعتي.»

لوى الطبيب قسمات وجهِه في توتُّر، ثم قال: «هل سمعت من قبل عن رجال العدالة الأربعة؟»

خيم صمتٌ وجيز.

قال مانفريد بهدوء: «نعم، سمعت عنهم.»

«هل هم في إسبانيا؟» طُرِحَ السؤال بنبرة حادة.

قال مانفريد: «ليس لديَّ معلومة دقيقة عن ذلك. لماذا تسأل؟»

قال الطبيب متردِّدًا: «لأن ... آه، حسنًا أنا مُهتمٌّ بالأمر. يقال إنهم يكشفون الجرائم التي لا يُعاقب عليها القانون؛ إنهم، إنهم يُمارسون القتل، صحيح؟» صارت نبرة صوته أكثر حدة، وضاق جفناه إلى أن صار يجول ببصره من أحدهما إلى الآخر عبر شقَّين ضيِّقَين.

قال مانفريد: «إن مثل هذا التنظيم معروف وجودُه، ومن المعروف أنهم يُصادفون جريمة لا تَخضع للعقاب، ويُنزلون العقاب بمرتكبها.»

«أيصلون بالعقاب ولو إلى ... إلى القتل؟»

قال مانفريد بجدية: «يَصلُون ولو إلى القتل.»

انتفض الطبيب واقفًا في غضب شديد وطوح يديه محتجًّا: «ويُفلتون دون عقاب! يفلتون دون عقاب! وجميع رجال القانون بالأمم كافَّة لا يُمكنهم الإيقاع بهم! لقد نصَّبُوا أنفسهم قضاة؛ من هم ليحاكموا الناس ويُدينوهم؟ من أعطاهم الحق للجلوس على منصة القضاء؟ يوجد قانون، وإذا احتال عليه أحدهم ...»

وفجأة كبح جماح نفس، وهزَّ كتفَيه، وهوى في مقعده بقوة مرة أخرى.

ثم قال بأسلوب فظ: «إنَّ المعلومات التي استطعت الحصول عليها عن هذا الموضوع حتى الآن تفيد بأنَّ هؤلاء الرجال قد توقَّفُوا عن ممارسة نشاطهم؛ فهم خارجون على القانون، وتوجد أوامر قضائية بضبطهم في كل بلد.»

أومأ مانفريد.

وقال في لطف: «هذا صحيح تمامًا. أما ما إذا كانوا لا يَزالون يُمارسون نشاطهم أم لا، فهذه مسألة لن يكشف عنها إلا الوقت.»

تطلع الطبيب ببصره سريعًا وقال: «أهم ثلاثة، وعادةً ما يجدون شخصًا رابعًا مؤثرًا؟»

أومأ مانفريد مجدَّدًا وقال: «هذا ما فهمتُه.»

تلوَّى د. إيسلي في كرسيه بعدم ارتياح. كان من الجليِّ أنَّ المعلومات أو التأكيد الذي توقَّع الحصول عليه من هذا الخبير المتخصِّص في الجرائم لم يكن مُرضيًا تمامًا له.

تساءَل قائلًا: «وهم في إسبانيا؟»

«هذا ما يُقال.»

قال الطبيب في استياء: «إنهم ليسوا في فرنسا، وليسوا في إيطاليا، وليسوا في روسيا، ولا في ألمانيا؛ فلا بدَّ إذن أنهم في إسبانيا.»

راح يُجيل فكره في الأمر لبعض الوقت في صمت.

قال بويكارت الذي كان مستمعًا صامتًا حتى الآن: «معذرة، لكن يبدو أنك مُهتم بهؤلاء الرجال أبلغ الاهتمام. هل سيُزعجك إذا طلبت منك، إرضاءً لفضولي، أن تُخبِرَني بالسبب وراء لهفتك لمعرفة مكانهم؟»

قال الآخر سريعًا: «الفضول أيضًا؛ فأنا دارس مُتواضع لعلم الجريمة نوعًا ما، مثل صديقنا لا مونت.»

قال مانفريد بنبرة هادئة: «بل طالب متحمِّس.»

قال إيسلي غير مُبالٍ بالتأكيد المُعبِّر في نبرات صوت الآخر: «كنتُ أتمنَّى لو أنك استطعت تقديم المساعدة؛ فأنا لم أعلم عنهم شيئًا بخلاف حقيقة أنهم قد يكونون في إسبانيا، وهي في النهاية محض افتراض.»

قال مانفريد وهو يُرافق ضيفه إلى الباب: «ربما حتى لا يكونون في إسبانيا؛ ربما لا يكون لهم وجود أصلًا؛ ربما تكون مَخاوفك لا أساس لها تمامًا.»

قطب الطبيب وشحبت شفتاه، وقال وأنفاسه تتلاحَق: «مخاوف؟ هل قلت مخاوف؟»

ضحك مانفريد بلا اكتراث قائلًا: «آسف! ربما لا تكون إنجليزيتي جيدة.»

تساءل الطبيب في نبرة عُدوانية: «لماذا أخشاهم؟ لماذا؟ إنك تَنتقي كلماتك برُعونة شديدة يا سيدي. ليس لديَّ ما يَجعلني أخشى رجال العدالة، ولا أي شيء آخر.»

وقَف يَلهث عند المدخل كرجل حُجبَ عنه الهواء على حين غرة. تمالك نفسه بصعوبة، وتردَّد للحظة، ثم غادَرَ الغرفة بانحناءة بسيطة متصلِّبة.

نزل على السلَّم، ومنه إلى الشارع، ثم عرج إلى ساحة باسيو. كان هناك شحاذ على الناصية يَرفع يدًا واهنة. قال متأوِّهًا: «لأجل الرب …»

سدد إيسلي ضربة ليد الشحاذ بعَصاه وهو يسب، لكنَّها لم تصب؛ إذ كان الشحَّاذ سريعًا على نحو فريد، ففي ظلِّ كل المشاقِّ التي كان متأهِّبًا لمواجهتها، لم يكن لدى جونزاليس أي رغبة لتحمل كدمة أو خياطة جراحية في يدِه؛ فقد كانت هاتان اليدان المُرهفَتان هما كل ما يَمتلكه جونزاليس.

سلك الطبيب طريقًا موحشًا متوجِّهًا إلى فندقه. وعند وصوله إلى غرفته، أغلق الباب وألقى بنفسه على كرسي ليُفكِّر. أخذ يلعن حماقته؛ فقد كان جنونًا منه أن يفقد أعصابه، حتى وإن كان ذلك أمام شخص في تفاهةِ هاوٍ إسباني في مجال العلوم. وهكذا انتهى النصف الأول من مهمَّته بالفشل. أخذ من جيب معطفِه الذي كان معلقًا خلف الباب كتيبًا سياحيًّا إسبانيًّا، وأخذ يقلب أوراقه حتى وصل إلى خريطة لقرطبة. وكان مُلحَقًا بها خريطة أصغر، بدا واضحًا أن مَن وضعها يعرف تضاريس المكان أكثر مما يفهم عن قواعد رسم الخرائط.

كانت أول مرة سمع فيها عن د. كاجالوس من أناركي إسباني كان قد قابَلَه في بعض جولاته الليلية الاستطلاعية في لندن. وتحت تأثير نبيذٍ من نوع جيد، أضفى هذا الرجل الجريء على ساحر قُرطبة صفات هي أقرب إلى القُوى الإعجازية، وقال أيضًا أشياء أثارت اهتمام الطبيب إلى درجة بالغة. أعقب ذلك رسالة، وكانت النتيجة هي هذه الزيارة.

نظر إيسلي إلى ساعة يده. كانت عقاربها تُشير إلى السابعة تقريبًا. سوف يَتناول عشاءه، ويذهب إلى غُرفته ويستبدل ثيابه. أصلح هندامه على عجل في ظلام الغرفة الآخِذِ في التزايد — والغريب أنه لم يُشعل نور الغرفة — ثم ذهَب لتناول العشاء. اتخذ لنفسه طاولة، ودفَنَ وجهه في مجلة إنجليزية أحضرها معه. وفي أثناء القراءة، كان يُدوِّن بعض الملاحظات من آنٍ لآخر في مُفكِّرة صغيرة تقبع على الطاولة بجوار طبقِه.

لم تكن لهذه الملاحظات أي صلة بالمَقال الذي كان يقرؤه، ولم تكن لها سوى صلة محدودة بالطب؛ فقد كانت تتناول في العموم جوانبَ ماليةً معيَّنة لُمعضلةٍ خطرَت بباله.

فرغ من عشائه، وراح يَتناول قهوته على الطاولة، ثم نهض، ووضع المفكرة الصغيرة في جيبه والمجلة تحت ذراعه، وعاد أدراجه إلى غرفته. أضاء النور، وأسدل الستائر، وسحب مزينة خفيفة تحت المصباح. أخرج المفكرة مرةً أخرى من جيبه، وبالاستعانة بعدد من الأوراق المكتظَّة بالكتابة كان قد أخذها من حقيبته، استطاع تجميع جدول صغير. وظل مُنهمكًا في ذلك تمامًا لقرابة ساعتَين. وكأن ساعة مُنبِّهة خفية وغير مسموعة قد نبَّهتْه إلى انهماكه ذاك؛ فأغلق المُفكِّرة، ووضع مذكراته في الحقيبة، وارتدى مِعطفه. غادر الفندق

مُعتمرًا قبَّعة ناعمة من اللِّبْد قد انسدَلَت على عينَيه، وبدون تردُّد سلك الطريق المؤدِّي إلى جسر كالاهورا. كانت الشوارع التي اجتازَها وصولًا إلى وجهته مهجورة، لكنه لم يتردَّد للحظة في اختيار طريقِه؛ إذ كان يعرف جيدًا ما تتَّسم به هذه الضواحي الإسبانية الصغيرة المُفتقِرة إلى أيِّ جاذبية من التزام بالقوانين.

خاض في متاهة من الشوارع الضيقة — وكانت دراسته للخريطة قد قدَّمت له نفعًا كبيرًا — ولم يتردَّد إلا حين وصَلَ إلى زقاق كان أكثر اتساعًا ورحابة من الشارع الذي تفرَّع منه. ازداد المكان كآبة بوجود مصباح زيتي واحد في الطرف الأقصى من الشارع. وتراصَّت على كلا الجانبين بيوت عالية بلا نوافذ، قد حُفر في كلٍّ منها باب. وبعد لحظة من التردُّد، طرق الطبيب مرتين على الباب الواقع إلى يساره.

فُتح الباب في الحال دون أيِّ ضجيج، مما جعَله يتردَّد.

جاء صوت من الداخل يتحدَّث بالإسبانية قائلًا: «ادخل. لا داعيَ للخوف يا سيد.»

دلف وسط الفراغ الحالك، وأُغلقَ الباب من خلفِه. قال الصوت: «من هذا الاتجاه.» استطاع وسط الظلام الحالك أن يتبيَّن هيئة غير واضحة لرجل ضئيل البِنية.

دلف الطبيب وأخذ يَمسح قطرات العرق من على جبينِه خِلسة. أشعل العجوز مصباحًا، وراح إيسلي يتفحَّصه بعناية. كان ضئيلًا للغاية، لا يَزيد طوله عن أربع أقدام إلا قليلًا. كانت له لحية بيضاء شعثاء، ورأس أصلع كبيضة. كان وجهه متسخًا وكذلك يداه، وكان مظهرُه بالكامل يوحي بوجود جفاء بينه وبين الماء.

استقرَّت عيناه السوداوان اللامِعتان في غور رأسه، وكانت التجاعيد المحيطة بهما تُوحي بأنه رجل قد تحرَّى الجانب المرح في الحياة. كان هذا هو د. كاجالوس، أحد مشاهير إسبانيا، غير أنه لم يحظَ بمكانةٍ اجتماعيةٍ بارزة.

قال كاجولوس: «اجلس. سوف نتحدَّث في هدوء؛ إذ إنَّ لديَّ في الغرفة المُجاوِرة سيدة من الطبقة الراقية في انتظار مُقابلتي بشأن علاقة حبٍّ مفقودة.»

اتخذ إيسلي موضعه في الكرسي الذي قدَّمه له، بينما جلس الطبيب على مقعَد مُرتفِع بجوار الطاولة. كانت هيئة غريبة تلك التي اتَّخذها بساقَيه الضئيلتَين المُتدليتَين، ووجهه العجوز، ورأسه الأصلع اللامع.

استهلَّ الطبيب الحديث قائلًا: «كنتُ قد كتبتُ إليك بشأن بعض الظواهر الغامضة.» لكن العجوز قاطَعَه بإشارة سريعة من يدِه.

وتحدث قائلًا: «لقد أتيت لمقابلتي يا سيدي بشأن العقار الذي قمتُ بتحضيره؛ مُستحضر ...»

هبَّ إيسلي واقفًا.

قال متلعثمًا: «أنا، أنا لم أُخبِرْك بذلك.» قال الآخر بنبرة جدِّية: «أخبرني الشيطان الأخضر. إنني أتحدَّث كثيرًا مع الشياطين الحزينة، وهم يتحدَّثون بصدقٍ شديد.»

«أظن أن ...»

قال العجوز: «انظر!» وقفَزَ من مجلسه العالي بخفَّة ورشاقة، ثم توجه إلى الجانب المُظلِم من إحدى الغرف حيث كانت هناك بعض الصناديق. سمع إيسلي صوت شغب، وسرعان ما عاد العجوز حاملًا في يده أرنبًا من أذنَيه وهو يتلوَّى. بيده الخاوية نزَعَ سدادة زجاجة خضراء صغيرة على الطاولة، ثم التقط ريشةً من على الطاولة، وغمسَ طرفها بحذر في الزجاجة. بعد ذلك، لامَسَ أنف الأرنب بطرف الريشة في حذر وخفة بالغَين، حتى إنَّ الريشة لم تكَد أن تمسَّ أنف الأرنب.

وفي الحال، ودون أي مقاوَمة، صار الأرنب يترنَّح ويَعرج وكأن جوهر الحياة قد انسحب من الجسد. أعاد كاجالوس السدادة إلى موضعها ووضع الريشة في نيران خافِتة أشعلها في منتصَف الغرفة بواسطة الفحم.

قال باقتضاب: «الفيسوستيمونانين هو تركيبة من ابتكاري.» ووضع الأرنب الميت على الأرض تحت قدمي الآخر. وقال في تباهٍ: «سيدي، سوف تأخذ الأرنب معك وتَفحصُه؛ سوف تُخضعه لاختباراتٍ لا نهاية لها، لكنَّك لن تَكتشِف المادة القلوية التي قتلتْه.»

قال إيسلي: «ليس ذلك صحيحًا؛ فسيكون هناك انقباض لبُؤبؤ العين، وهي علامة ثابتة لا تتغيَّر.»

قال العجوز بنبرة انتصار: «ابحث أيضًا عن ذلك.»

أجرى إيسلي الاختبارات الظاهِرية، ولم يجد حتى لتلك العلامة الثابِتة أيَّ أثر.

كان ثمَّة جسدٌ بلا ملامح واضحة يَلتصِق بقوة إلى الجدار بالخارج يُرهف السمع. كان واقفًا بجوار النافذة الموصدة، وقد ثبَّت بأذنه أنبوبًا صغيرًا من المطاط المُكبرَت به مستقبل مكبِّر للصوت، وكان المطَّاط الذي يُغطِّي طرف الأنبوب ذا الشكل الجرسي؛ مثبَّتًا بمصراع النافِذة.

ظل واقفًا على هذا الحال لنصف ساعة، بلا حراك، ثم انسحَبَ في هدوء واختفى وسط ظلال بستان البرتقال الذي كان ينمو في مُنتصَف الحديقة الطويلة.

وفي هذه الأثناء فُتِح باب المنزل، وبواسطة مصباح في يده، أنار كاجالوس لضيفه الطريق إلى الشارع.

ضحك العجوز قائلًا: «إن الشياطين أكثر اخضرارًا من أيِّ وقتٍ مضى. وي، سوف يكون هناك أحداث ومجريات يا أخي!»

لم يَنبس إيسلي بكلمة. كان كل ما يُريده هو العودة إلى الشارع مجددًا. وقف واجفًا في جزع مُمتزج بالتوتُّر، بينما كان العجوز يَفتح مزلاج الباب الثقيل، وحين انفتَح، اندفَعَ نحو الشارع.

قال: «إلى اللقاء!»

قال العجوز: «صحبتْك رعاية الرب.» وانغلَقَ الباب بهُدوء.

(٢) كولونيل بلاك الخبير المالي

كانت شركة بلاك آند جرام تَحظى بشيء من الشُّهرة في أوساط المال والأعمال بمدينة لندن. ويُمكن القول إنَّ جرام كان رجلًا فوق مُستوى الشبهات؛ فهو بطلٌ حقيقي من أبطال عالم المال، وكان يَرتاد الكنيسة، ويُغدق العطاء على المؤسَّسات والأعمال الخيرية. والحق أنَّ بلاك كان يشكو بانزعاج لا يَخلو من المرح — إن كان من المُمكن تخيُّل اجتماع الاثنين معًا — من أن جرام يمكن أن يفسد عليه يومًا رائعًا بسخائه الخيالي هذا.

أطلَقَ جرام العنان لقلبِهِ ليقود عقله؛ فقد كان بالغ الرقة واللِّين بما لا يَتناسب مع عالم الأعمال، ولدَيه ميل شديد للانطواء والتراجُع. كان حي المال في لندن يَنظر إلى جرام بارتيابٍ بالغ؛ إذ كان يُشبهه بسيدةٍ تُدعى هاريس، لكن بلاك لم يكن يَنفعِل أو يَثور إزاء ذلك، بل كان يَبتسِم ابتسامة يَكتنفها الغموض أمام كل الشكوك التي يُضمرها حي المال أو يُبديها، ويَمضي في إبداء أسفه إزاء الحماقة المُخزية لرجل كان يبدو أنه يسعى، على حدِّ تعبير بلاك، إلى أن يَجعل للشركة سُمعة طيبة على الرغم من الشائعات المُتمحوِرة حول الكولونيل جيه بلاك.

هكذا كان بلاك يصف نفسه، رغم أنَّ قوائم الجيش كانت خالية من اسمه، وحتى البحث في الكشوف الضخمة التي تتضمَّن أسماء حامِلي الرُّتَب الشرفية الأمريكية لم يَكشف عن أي صِلة له بهذا اللقب.

كانت شركة بلاك وجرام تَطرح أسهم الشركات للتداوُل في أسواق الأوراق المالية، وتُتاجر في الأوراق المالية والأسهُم على نطاقٍ كبير. كانا يُوصيان عملاءهما بأسهُم معيَّنة، وكان العملاء يشترونها أو يَبيعونها حسب النصيحة المُسداة إليهم، وفي نهاية مدةٍ زمنية معيَّنة. وقد بعثا بمُكاتباتٍ إلى عملائهما يُعبران فيها بتأدُّب عن أسفهما لاستنفاد الغطاء

المودَع لديهما، ويطلبان منهم بإلحاحٍ بأن يقوموا في أقرب وقتٍ مُمكن بتسديد الالتزامات المالية التي كانوا قد تَعهَّدوا بتحمُّلها، وهو ما كان تصرفًا غريبًا من العملاء بعض الشيء. كانت هذه، على أيِّ حال، هي البداية المُتواضِعة لشركةٍ كان مُقدَّرًا لها أن تَزدهِر وتُصبح ذات حجمٍ هائل وشأنٍ كبير. غير أنَّ جرام قد تَرَك العمل فيها، بل الحق أنه لم يكن مُشاركًا فيه قَط. وإنَّ المرء لَيرتاب فيما إذا كان قد تنفَّس نَسَمَة الحياة من قبل أصلًا، بينما ازداد بلاك ازدهارًا. كان اسمه بارزًا للغاية في أوساطٍ معيَّنة، بينما لم يُذكَر قَط في أوساطٍ أخرى؛ إذ لم يكن أقطاب المال والأعمال في المدينة — مثل آل فارينج وآل فيرتهايمر وآل سكوت-تيسون — على درايةٍ رسمية بوجودِه؛ ومن ثمَّ فقد واصلوا أعمالهم بهدوء كالمعتاد؛ يَقرضون ملايينهم بفوائد صغيرة للغاية، ويُصدرون قروضًا حكومية، ويَمنحون خصوماتٍ على الكمبيالات، ويَشترُون السبائك، ويُجرُون ما شابَه ذلك من العمليات التي كانت تملأ أوقاتهم بين الساعة الحادية عشرة صباحًا، حين كانت عَرباتهم الكهربائية تُنزِلُهم في شارع «ثريدنيدل ستريت»، والساعة الرابعة مساءً، حين كانت عَرباتهم الكهربائية تُقِلُّهم مجددًا. كانوا يقرءون عن الكولونيل بلاك بأسلوبهم الجِدِّي الرَّصين؛ إذ كان ذكرُه يُهيمِن أحيانًا على المقالات المتعلِّقة بالشئون المالية. كانوا يقرءون عن صفقاته العظيمة في مجال الأوراق المالية، وعن صفقتِه مع إحدى شركات الكهرباء الأرجنتينية، وتمويله شركات المطاط بطرح أسهمها للبيع، ومناجم النحاس الكندية التي يَملكها. كانوا يقرءون عنه، بغير استِحسان ولا استنكار، وإنما كانوا يُعاملُونه باهتمامٍ فاتر كذلك الذي يَحمله مُحرِّك قطار تجاه سيارة.

وحين تواصَل بلاك مع أقطاب المال والأعمال في مُناسبةٍ لا تُنسى أبدًا، وتقدَّم إليهم بمُقترحٍ واعد، أعربوا عن «أسفهم لعدم قدرتهم على قبول المقترح المثير للاهتمام الذي تقدَّم به الكولونيل بلاك.» وبعد فترة قصيرة من الحيرة والانزعاج، تواصَلَ مع مجموعة الشركات الأمريكية؛ إذ كان من الضروري أن تحمل نشرة الاكتتاب الخاصة به أسماء شَخصياتٍ شهيرة لكي يَنجح مخطَّطه. وقد كان الكولونيل بلاك يحسب هؤلاء الأمريكيِّين رجالًا حصفاء، وقدَّم إليهم مُقترحاته بعباراتٍ مُتغطرِسة ومُغرية في الآن نفسه.

فجاءه الرد من إحدى تلك الشركات الأمريكية التي رفضَت مليون دولار مع صداقةٍ لا تُساوي أكثر من خمسة سنتات، على النحو التالي: «صديقنا العزيز، لقد دَرَسنا اقتراحك بإمعان، وبالرغم من اقتناعنا بأنَّك ستَجني الأموال من تَحقيقه، فلسنا مُتيقِّنين من أننا سنجنيها منه مثلك.»

جاء بلاك إلى حيِّ المال في لندن في عصر أحد الأيام لحُضور أحد اجتماعات مجلس الإدارة. وقد كان خارج المدينة طوال الأيام القليلة السابقة؛ إذ استبقَ بتجنيد أفراد جدُد من أجل الصراع الذي كان ينتظره، كما قال لمجلس الإدارة بلمسةٍ من الفكاهة.

كان رجلًا متوسِّط القامة عريض الكتفَين. وكان وجهه نحيلًا هزيلًا وكانت بشرتُه شاحِبةً قد كساها اصفرارٌ متجانس غريب. وإذا رأيتَ الكولونيل بلاك مرَّة، فإنك لن تَنساه أبدًا، وليس ذلك بسبب وجهِه الأصفر أو حاجبِه الأشبه بشريطٍ أسود مُستقيم أو فمه ذي الشفتَين النحيلتَين فقط، لكنَّ شخصية الرجل نفسها كانت تَترك انطباعًا لا يُمحى في ذهنِ مَن يراه.

كان يتصرَّف بسرعة وعلى نحو مُباغت، وكانت ردودُه فظَّة. أما قراراته، فكانت تتَّسم بطابعٍ حاسِم. وإذا لم يكن أقطاب حيِّ المال يَعرفونه، فقد كان الآلاف غيرهم يَعرفونه؛ إذ كان اسمه ذائع الصيت في إنجلترا، وكانت جميع عائلات الطبقة الوسطى بأكملها تقريبًا تحمل بعضًا من الأسهم التي كان يَطرحها. كان «مُضاربو الشوارع» الصغار يُصغون إلى كلامه باهتمامٍ بالغ، وكان عدد المتقدِّمين لشراء الأسهم التي يُصدرُها يبلغ ضِعفَ الأسهم المطروحة. لقد رسَّخ وضعه في خمس سنوات، وبعدما كان مغمورًا من قبل، بَلَغ أعلى المكانات شأنًا في هذه المدة القصيرة.

في الموعد المُحدَّد بالدقيقة، دَخَل غرفة الاجتماعات في جناح المكاتِب الذي كان يشغله في شارع «مورجيت ستريت».

وقد كان الاجتماع عُرضةً لأن يكون عاصفًا؛ فمرَّةً أخرى، كان الحضور يستشعرون رائحة دَمجٍ يلوح في الأجواء، ومرَّةً أخرى، عارَض رئيس إحدى مجموعات مصانع الحديد — وهي ائتلافٌ لشركات إنتاج الحديد كان يُشكِّله — تهديدات بلاك ومبعوثِيه ومداهناتِهم.

قال فانكس، ذاك الرجل الضخم الأصلع: «الآخرون يَضعُفون، وأنت وعدتَني بأنَّك ستُفهِّمه حقيقة الوضع.»

فقال بلاك بإيجاز: «سأفي بوعدي.»

فأضاف فانكس: «لقد كان ويديسون مُصِرًّا على معارضتِنا ومات، لكنَّنا لا نستطيع تعليق آمالنا على مساعَدة العناية الإلهية طوال الوقت.»

خفَض بلاك حاجبَيه.

وقال: «لا أحب هذا النوع من النِّكات. ساندفورد رجلٌ عنيد ومُتغطرِس؛ إنَّه يحتاج إلى معاملةٍ دقيقة خاصة. سأتولى أنا أمره.»

انفضَّ الاجتماع على نحو غير مرضٍ، وكان بلاك يُغادر الغرفة حين استدعاه فانكس بإشارةٍ منه.

قال له: «التقيتُ البارحة رجلًا كان يعرف صديقك الطبيب إيسلي في أستراليا.»

فرَدَّ الكولونيل بلاك بوجهٍ جامد خالٍ من التعبير: «حقًّا؟»

«نعم، كان يعرفه في أيام صباه، وقد سألَني عن المكان الذي يَستطيع أن يجدَه فيه.»

فهزَّ الآخر كتفَيه، وقال: «إيسلي خارج البلاد، أظنُّك لا تُحبه، أليس كذلك؟»

فأومأ أوجستس فانكس برأسه، وقال: «لا أحبُّ الأطباء الذين يَزورونني في مُنتصَف الليل، ولا أجدهم حين أحتاج إليهم، ودائمًا ما يتجوَّلون في أنحاء القارة بغرض التسلية.»

فدافع عنه بلاك قائلًا: «إنَّ لديه الكثير من الأشغال. بالمناسَبة، أين يَمكُث صديقك؟»

«ليس صديقي. هو مُنقِّبٌ يُدعى ويلد، وقد جاء إلى لندن بمقترحٍ لاستخراج المعادن. ويمكث في فندق «فارليتس تمبيرانس» في حيِّ بلومزبري.»

قال بلاك مومئًا برأسه: «سأُخبر إيسلي حين يعود.»

عاد إلى مكتبه الخاص مُستغرقًا في التفكير. لم تكن حال الكولونيل بلاك على ما يرام. لقد كان يُذاعُ عنه أنه من أصحاب الملايين، لكنَّه كان في حقيقة الأمر بمَثابة واحدٍ من أولئك المموِّلين الكثيرين الذين كانوا يَعُدُّون ثروتهم بالأوراق. وكان حتى هذه اللحظة كَمَن يتسلَّق ظلالًا؛ فالثروة المادية الحقيقية كانت ما تزال بعيدة عن متناوله. صحيحٌ أنَّه كان يُنظِّم عمليات دمجٍ ناجحة بين الشركات، لكنَّه تحمل في سبيل ذلك تكلفة باهظة. فكانت الملايين تتدفَّق عَبر يديه، ولا يتبقَّى منها في قبضته سوى أقل القليل. لقد كان يُجسِّد ذلك التناقض الغريب؛ رجلٌ غير شريف ذو أساليب شريفة. وكانت مخطَّطاته سليمةً مُحكمةً من الناحية المالية، لكنَّ إنجازها كان يتطلَّب جهودًا تكاد تكون خارقة.

كان مُستغرقًا في أحلام يَقظةٍ مُزعِجة، حين انتشلتْه منها قَرعةٌ على الباب. فُتِح الباب إيذانًا لفانكس بالدخول؛ فعَبَس بلاك في وجه ذلك المتطفِّل، لكنَّ الآخر سَحَب كرسيًّا وقَعَد عليه، ثم قال: «أصغِ إليَّ يا بلاك، أريد أن أقول لك شيئًا.»

«قُله بسرعة.»

أخذ فانكس سيجارًا من جيبه وأشعله، ثم قال: «لقد حظيت بمَسيرة مهنية مُدهِشة. أتذكَّر حين بدأت مسيرتك بمَحلِّ مُضارَبةٍ غير قانوني.» واستدرك على عَجَلٍ حين لمح الغضب يتصاعد في وجه بلاك: «حسنًا، لن نُسمِّيَه محلَّ مُضاربة غير قانوني، بل مكتب سمسار

تداول أوراق مالية غير تابع للبورصة. وكان لديك شريكٌ مُغفَّل، أقصد قليل الخبرة، أسهَم برأس المال؟»

«نعم.»

«ليس جرام الغامِض على ما أظنُّ، أليس كذلك؟»

«بل خَليفته، ولم يكن يوجد شيء غامض بشأن جرام.»

«خليفة اسمه فلينت؟»

«نعم.»

«وقد مات فجأة، أليس كذلك؟»

قال بلاك باقتضاب فظ: «أعتقد ذلك.»

فقال فانكس ببطء: «العناية الإلهية مرَّة أخرى. لقد استحوذتَ على الشركة كلها بعد ذلك. استحوذتَ على عملية طرح الأسهم وإحدى شركات المطاط، ونجحت هذه الشركة. حسنًا، ثم طرحتَ أسهم منجم قصدير، أو شيء من هذا القبيل، للبيع، وقد وقعت حالة وفاة، أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك، لقد تُوفِّي أحد المُديرين، لكنِّي نسيتُ اسمه.»

فأومأ فانكس، وقال: «كان بإمكانه إيقاف طرح الأسهم للبَيع؛ إذ كان يُهدِّد بالاستقالة وفضحِ بعض أساليبك.»

«لقد كان رجلًا عنيدًا جدًّا.»

«وقد مات.»

«نعم» سكت هنيهةً ثم أضاف: «مات.»

كان فانكس ينظر إلى الرجل الجالس أمامه.

قال: «وكان الطبيب إيسلي يتولى رعايته.»

«أعتقد ذلك.»

«ومات.»

فاتَّكأ بلاك على المكتب، وسأله: «ماذا تقصد؟ إلام تُلمِّح عن صديقي الطبيب إيسلي؟»

قال فانكس: «لا شيء سوى أنَّ العناية الإلهية ساعدتْك بعض الشيء. فسجلُّ نجاحك سجلُّ وفيات، لقد أرسلت إيسلي ليزورني ذات مرة.»

«لأنَّك كنتَ مريضًا آنذاك.»

فقال فانكس بتجهُّم: «أجل، وكنتُ أسبِّب لك بعض المتاعب أيضًا.» نفض رماد سيجارته على السجادة، وقال: «سأستقيل من كلِّ المناصب التي أتولَّاها في مجالس إدارات شركاتك يا بلاك.»

فضحك الآخر ضحكةً فظَّة.

«يُمكنُك أن تضحك، لكنَّ هذا ليس صوابًا يا بلاك. أنا لا أريد مالًا أدفع نظيره ثمنًا باهظًا للغاية.»

فقال الكولونيل بلاك: «يُمكنك أن تستقيل من العمل يا عزيزي، لكن هل لي أن أسألك عمَّا إذا كان أيُّ شخصٍ آخر يُشاطرك شكوكَك العجيبة؟»

هزَّ فانكس رأسه.

وقال: «لا أحد حتى الآن.»

ظلَّ كلاهما ينظر إلى الآخر على مدار نصف دقيقة مرَّت كأنها وقتٌ طويل جدًّا.

تابع فانكس حديثه فقال: «أريد الرحيل فورًا. أعتقد أنَّ سنداتي وأصولي تُساوي ١٥٠ ألف جنيه إسترليني، يُمكنك شراؤها.»

قال بلاك بخشونة: «إنك تصدمني.»

فتح درج مكتبه، وأخرج منه قنينة زجاجية خضراء وريشة، وقال مبتسمًا: «إيسلي المسكين يتجوَّل في إسبانيا بحثًا عن أسرار صناعة العطور المغاربية! سيَفقد عقله لو عرف ما تُفكر فيه.»

فقال فانكس تبلُّد: «أُفضِّل أن يَفقد عقله على أن أفقد حياتي. ماذا لديك هنا؟»

فنَزَع بلاك سدادة القنينة وغَمَس الريشة فيها، ثم سَحَبها وقرَّبها إلى أنفه.

سأله فانكس بفضول: «ما هذا؟» وجاءت إجابة بلاك بأن رفع الريشة ناحية الرجل ليَشمَّها.

قال فانكس: «لا أستطيع شم أي شيء.» فأمال بلاك طرف الريشة إلى الأسفل سريعًا، ومرَّره على شفتي الآخر. وحينها صاح فانكس: «هنا ...» ثم خرَّ على الأرض خائر القوى.

«أيها الشرطي فيلو!»

كان فرانك فيلو يُغادر غرفة الاتهام حين سمع صوت الرقيب المسئول عن إدارة مركز الشرطة يُناديه بنَبرةٍ مُحتدَّة.

ردَّ قائلًا بنبرةٍ استفسارية: «نعم أيُّها الرقيب؟» إذ كان يعرف أنَّه سيَسمع كلامًا غير سار؛ فنادرًا ما كان الرقيب جوردن يتحدث إليه إلَّا ليُحذِّره أو يُوبِّخه. كان الرقيب رجلًا

متغضن الوجه يعبر عن انزعاجه بعادة قبيحة هي أنَّه كان يُظهِر أسنانه. ولم يكن من المُمكِن تخيُّل تبايُنٍ أشد من ذاك الذي تجسَّد في وقوف الشاب الطويل ذي الظهر المُنتصِب مُرتديًا زيَّه الشرطي أمام المكتب، وجلوس الرجل ذي الهيئة المتقلِّصة على الكرسي خلفه.

كان وجه الرقيب جوردن أبيض شاحبًا وكان شاربه الأسود القصير يُبرِز ذلك البياض. وبالرغم من بنيتِه الجسَدية الجيدة، كانت الثياب تبدو عليه بمَظهرٍ أخرق، بل إنَّه هو نفسه كان أخرَق من أكثر من ناحية. كان ينظر آنذاك إلى فيلو مُظهِرًا أسنانه، وقال: «لقد تلقيت شكوى أخرى بشأنك، وإذا تكرَّر ذلك، فسيُحال الأمر إلى المفوض.»

أومأ الشرطي برأسه باحترام، وقال: «آسفٌ جدًّا أيها الرقيب، لكن ما هي الشكوى؟»

فصاح الآخر بغضب وقال: «تعرفها كما أعرفها، لقد أزعجت الكولونيل بلاك مرَّة أخرى.»

وهنا سَرَت ابتسامةٌ طفيفة بين شفتَي فيلو؛ إذ كان يعرف شيئًا عن العناية الشديدة التي كان الرقيب يُعامل الكولونيل بها.

فانفجر الرقيب غضبًا، وقال: «لماذا تَبتسم بحقِّ السماء؟» وأضاف: «أحذِّرك من أنك تتمادى في وقاحتك، وتلك المسألة قد تُحال إلى المفوِّض.»

قال الشاب: «لم أتعمَّد أن أُسيءَ الأدب أيُّها الرقيب. لقد سئمتُ هذه الشكاوى مثلك، لكنِّي أخبرتُك، كما سأُخبر المفوض، بأنَّ الكولونيل بلاك يَسكُن بيتًا في «سرينجتون جاردنز» ويُثيرُ اهتمامي بعض الشيء، هذا هو عُذري.»

قال الرقيب: «إنَّه يَشتكي من أنَّك تُراقب البيت دائمًا.» فابتسم الشرطي فيلو.

وتحدَّث قائلًا: «بل هذا ضميره يتيقَّظ. بكُلِّ صدقٍ أيُّها الرقيب، لقد عرفت أنَّ الكولونيل لا يستسيغُ ...»

لكنه توقَّف فجأةً عن الكلام.

سأله الرقيب: «ماذا؟»

فقال الشرطي فيلو: «ربما من الأفضل أن أُسِرَّ أفكاري في نفسي.»

أومأ الرقيب بتجهُّم.

وحذَّره قائلًا: «إذا وقعتَ في مشكلة، فلا تَلومنَّ إلَّا نفسك. الكولونيل بلاك رجلٌ ذو نفوذ. إنَّه أحد دافِعِي الضرائب. لا تنسَ ذلك أيها الشرطي. ودافعو الضرائب يَدفعون راتبَك، ويُوفِّرون المِعطَف الذي يُدفِّئ ظهرك ويُطعِمونك؛ أي إنَّك مدينٌ بكلِّ شيءٍ لدافعي الضرائب.»

فقال الشاب: «رغم أنَّ الكولونيل بلاك من دافِعِي الضرائب، فهو يَدين لي بشيءٍ ما.»

رفع رداءه الخارجي على ذراعه، وخَرَج من غرفة الاتهام ثم هبط الدرَجات الحجرية المؤدية إلى الشارع، وألقى عليه الحارس تحية الوداع بابتهاج.

كان فيلو شابًّا مُزعِجًا، وزاد من كونه مصدرًا للإزعاج تلك الحقيقة المهمَّة التي تمثَّلت في أنَّه حتى أقرب أصدقائه لم يكونوا يعرفون أسلافه. كان رجلًا قد حصَّل من التعليم مستوًى أعلى من المعتاد، وكان هادئًا مُتحفِّظًا يتميَّز صوته بنبرة لطيفة؛ أي إنَّه كان يتمتَّع بجميع شِيَم الرجال الفضلاء وخصالهم.

كان يَملك بيتًا صغيرًا للغاية في حيِّ «سومرز تاون» حيث كان يعيش وحده، غير أنَّ أحدًا من أصدقائه لم يحظَ قطُّ بالعثور عليه في بيته إن زاره دون موعدٍ سابق، في غير أوقات العمل؛ ومن ثمَّ فقد كانوا يَعتقدُون أنَّ لدَيه اهتماماتٍ أخرى.

وقد تمكَّنُوا من تخمين هذه الاهتمامات حين شارك، في مُفاجأةٍ مثيرة للسخَط، في بطولة الملاكَمة للهُواة ونال جائزة الشرطة؛ إذ كان فيلو مُلاكمًا رائعًا؛ فقد كان قويَّ الضربات سريع الحركة، يَتميَّز بأدائه الجيد ومنهجيتِه الذكية.

كان أشقياء حيِّ «سومرز تاون» هُم أوَّل من اكتشَفَ ذلك؛ إذ رآه واحد منهم يُدعى جرولير ذات مرَّةٍ لا تُنسى وقد اشتبَكَ في شجار في طريقه إلى مركز الشرطة، وشهد بمهارة ذلك الشاب وبراعته أمام حشدٍ من الجماهير الفاغِري الأفواه.

وقد أكسبته طبيعتُه المستقلَّة المرحة كثيرًا من الأصدقاء، لكنَّها جعلَت له أعداء أيضًا، وبينما كان يسير في الشارع المُمتد من مركز الشرطة مُستغرقًا في التفكير، أدرك أنَّ عداوة الرقيب له ألدُّ مما هو مُعتاد عليه.

لماذا إذن؟ كان هذا السؤال يُحيِّره؛ فبالرغم من كلِّ شيء، كان فيلو يُؤدِّي واجبَه فحسب. وهو لم يكُن يرى أنَّ تَجاوُزَ مسئوليات واجباته مبرِّرٌ كافٍ لاستياء رئيسه في العمل منه؛ إذ كان قد وصَلَ إلى سِنِّ الحماس الشديد التي يُمكنُ أن يُغتَفَر فيها أيُّ شيء إلَّا التقاعس عن العمل. أمَّا بخصوص عداوة بلاك، فقَد هزَّ فيلو كتفَيه؛ إذ لم يَستطِع فهمَها. ولم يكن من طبيعته أن يشُكَّ في وجود أيِّ دافع آخَر لدى الرقيب سوى تلك الرغبة الطبيعية تمامًا لدى كلِّ الرؤساء اللامبالين المُتخَمين بالتَّجارب الحياتية في كبح جماح مرءوسيهم شديدي الاندفاع.

اعترف فرانك أمام نفسه بأنَّه كان شخصًا مُزعجًا جدًّا بالفعل، وفَهِم عداوة الرقيب تجاهه من نواحٍ عديدة. انصرف عن التفكير في هذه المسألة، وشقَّ طريقه إلى بيتِه الصغير في شارع «كروم»، ودَخَل غرفة طعامه الصغيرة.

كانت الجدران مطليةً بطلاءٍ جيريٍّ، ولم تكن قِطَع الأثاث القليلة الموجودة في البيت من نوعية الأثاث الذي يُوجَد عادةً في مثل هذه البيوت. فلا بُدَّ أنَّ الصورة القديمة المُوضوعة فوق رفِّ المدفأة كانت تُساوي الدخل السنوي لرجُلٍ عامل. ولا شكَّ أنَّ المِنضدَة الصغيرة القابلة للطيِّ الموضوعة وسط الأرضية المُغطَّاة باللِّبْد كانت تَنتمي إلى العصر اليعقوبي، وأنَّ الكراسي كانت مُصمَّمة على طراز «شيراتون»، وكذلك الخزانة الجانبية. وبالرغم من أنَّ العصور التي تنتمي إليها تلك القِطَع لم تكن مُتناغمة فيما بينها تمامًا، فقد كان عُمرها الكبير يُوفِّر درجة كافية من التناغُم. كانت المدفأة تنفثُ نيرانًا متوهِّجة، لأنَّ الليل كان قارس البُرودة. توقَّف فيلو أمام رفِّ المدفأة ليتفحَّص رسالتين كانتا في انتظاره، ثم أعاد وضعهما حيث أخذهما، ومرَّ عَبر أبوابٍ قابلة للطيِّ إلى غرفة نومٍ صغيرة جدًّا.

كان مالك البيت الذي يَسكُنُه فيلو مُتعاونًا مجاملًا؛ فمُلَّاك العقارات والمنازل في حيِّ «سومرز تاون»، لا سيما مُلَّاك البيوت البسيطة الصغيرة المَبنية على أراضٍ قيِّمةٍ، كانوا نادرًا ما يُنفِّذون مثل هذه التجديدات التي طلبها فيلو. فعلى سبيل المثال، لم يكن أيُّ مالكٍ عادي ليَبني ذلك الحمَّام الفسيح الذي زخر به البيت، لكنَّ مالك البيت الذي كان فيلو يسكنه آنَذاك لم يكن رجلًا عاديًّا.

استحمَّ الشاب، وبدَّل ملابسه مُرتديًا ثيابًا مدنية، وأعدَّ لنفسه كوبًا من الشاي، وارتدى معطفًا طويلًا وصل إلى عَقبَيه، وغادَرَ البيت بعد نصف ساعة من دخوله.

شقَّ فرانك فيلو طريقه غَربًا. وَجَد سيارة أجرة في حيِّ «كينجز كروس» وأعطى السائق عنوانًا في شارع «بيكاديللي». وقبل أن يَصلَ إلى ذلك الشارع التاريخي، قَرَع على زجاج النافذة، وأمر السائق بإنزاله.

وفي الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة، غادَرَ الرقيب جوردن مقرَّ مركز الشرطة بعد أن انتهى من عمله. وبالرغم مما بدا عليه من هدوء وتحفُّظ في الكلام، فقد كان يستشيط غضبًا من داخله.

ظلَّت كراهيته تجاه فيلو مثلما هي لم تتغيَّر، لكنَّها اشتدَّت في الأسابيع القليلة الماضية بسبب السلوك الذي انتهجه الشاب حيال الرجل المُدلَّل لدى الرقيب.

كان جوردن لغزًا غامضًا لأفراد قسمه الشُّرْطي بقدرِ ما كان فيلو كذلك، بل أشد غموضًا؛ ذلك أنَّ السريَّة التي اكتنفَت حياة جوردن كانت تُنذر بشرٍّ أخطر من ذلك الذي يُوحي به تحفُّظ الشاب.

كان جوردن يَحمل طموحًا صار أشبه بلعنة مُسلَّطة عليه؛ فقد كان يأملُ في بداية حياته المهنية أن يُحقِّق مكانةً مميزة في فريق الشرطة، لكنَّ افتقارَه إلى التعليم، مع أسلوب تحدُّثه الذي يَميل إلى الغِلظة والفظاظة، قد صارا عقبةً في طريق حماسه.

لقد أدرك القيود التي تفرضها السلطات على صلاحياته. وكان قد فطن منذ فترةٍ طويلة إلى أنَّ الأمل في الترقية إلى منصب المُفتِّش أولًا حتى يصلَ في نهاية المطاف إلى ذاك النجم الساطع الذي يُغري كلَّ شُرطي بالتقدم في العمل كي يَبلغه، والذي يُعادِل الهراوة التي يُفترض عمومًا أنَّها موجودة في حقيبة ظهرِ كلِّ جندي؛ أي منصب المُشرِف، لم يكن يناسبه.

ولهذا، فقد كان على ذلك الرجل الطَّموح المُحبَط أن يجد منفذًا جديدًا، وقَد ركَّز اهتمامه على جنْي الأموال. صار ذلك شغفًا له، بل هوسًا قد تملَّك منه. وصار بُخله وشُحُّه وجشعه النهم مما تُضرَب به الأمثال في كلِّ أقسام قوات شرطة العاصمة.

أصبح جنْي المال هوسًا لدَيه، وصارت ألدُّ عداواته مُخصَّصةً لأولئك الذين كانوا يضعُون أهون العقبات بين الضابط وإشباع طموحاته.

جديرٌ بالقولِ عن الكولونيل بلاك إنَّه كان لطيفًا للغاية. والجَشعُ يتبنَّى مَوقفًا مُتساهلًا إزاء أخلاق وليِّ نعمته. ومع أنَّ الرقيب جوردن لم يكن من ذلك الصِّنفِ من الرجال الذي قد يرغب عن طيبِ خاطرٍ في مساعدة الخارجين عن القانون، فلَم يكن لأي شخصٍ أن يقول عن سمسار أوراق مالية خارجي، لم يُفضَح احتياله، سوى أنَّه أحد أفراد المجتمع الذين تُبتغى مرضاتهم.

كان بلاك قد حدَّد موعدًا معه. وكان الرقيب في طريقه ليُلاقيَه وَفقَ هذا الموعد. كان الكولونيل يَعيش في أحد تلك الميادين التي تقع في حيٍّ «كامدن تاون» وكانت عصريةً فيما سبق. وكان ثَراؤه جليًّا؛ إذ كان يقود سيارةً يَملكُها، وأثَّث البيت رقم ٦٠ في شارع «سرينجتون جاردنز» برفاهيةٍ باذِخة.

لم يكن لدى الرقيب وقتٌ لتبديل ثيابه. وقال لنفسه إنَّه ليس مُضطرًّا إلى ذلك؛ إذ إنَّ طبيعة علاقته مع بلاك لم تكن تَستدعي الالتزام بقواعد السلوك الرسمية التقليدية.

كان الميدان مهجورًا في ذلك الوقت من الليل، وشقَّ الرقيب طريقه إلى مدخل المطبَخ في الطابق السُّفلي ورنَّ الجرس؛ وسرعان ما فَتَح الباب أحد الخُدَّام.

قال صوتٌ آتٍ من وسط الظلام بينما كان الرقيب يصعد الدَّرَج إلى الصالة غير المُضاءة في الطابق العلوي: «أهذا أنت أيُّها الرقيب؟» أضاء الكولونيل بلاك النور. ومَدَّ يده الطويلة المفتولة العضلات للترحيب بضابط الشرطة، وقال: «إنني مسرورٌ جدًّا بمجيئك.»

فأمسك الرقيب يد الكولونيل وصافَحَها بحرارة، وقال: «جئتُ لأعتذرَ لك أيُّها الكولونيل بلاك. لقد وبَّختُ الشُّرطي فيلو بشدة.»

فلوَّح بلاك بيده مستنكرًا، وقال: «إنني لا أريدُ إيقاع الأذى بأيٍّ من أفراد قوَّتك الرائعة، لكنَّ تَطفُّل هذا الرجل على عملي أمرٌ مُهين ولا يُغتفَر حقًّا.»

أومأ الرقيب برأسه وقال: «أتفهَّمُ انزعاجك جيدًا يا سيدي، لكنَّك ستتفهَّم أنَّ هؤلاء الشرطيين الشباب دائمًا ما يَنقادُون قليلًا لحماسِهم الشديد، وحين يكون المرء على هذه الشاكلة، فإنه عادةً ما يُبالِغ قليلًا في أداء عمله.»

كان يتحدَّث بنبرةٍ يغلب عليها التوسُّل رغبةً منه في إزالة أيِّ انطباعٍ سيئ قد يكون له وجود في ذهن بلاك بشأن أيِّ دورٍ له في تحرِّيات الشرطي فيلو.

فحباه بلاك بانحناءةٍ دمثة.

وقال له: «من فضلك، انسَ هذا الأمر، أرجوك؛ فأنا متيقنٌ تمامًا من أنَّ الشرطي الشاب لم يتعمَّد جرح كبريائي.» وقاد الرقيب إلى غرفة طعامٍ فسيحة كانت تقع في الجزء الخلفي من المنزل؛ حيث كان الخمر والنبيذ على المنضدة. قال الكولونيل: «فلتتفضل بأخذ ما تشاء أيُّها الرقيب.» ودَفَع كُرسيًّا كبيرًا وثيرًا ناحيته.

غاص الرقيب في أعماقه الرغدة مُتمتمًا بكلمات الشُّكر، ثم قال: «من المُقرَّر أن أعود إلى مركز الشرطة بعد نصف ساعة، إذا سمحت لي حينئذٍ.»

فأومأ بلاك قائلًا: «سنكون قد أنجزنا عملنا بحلول ذلك الوقت، لكن قبل أن نواصل، دعني أشكرك على ما أنجزته بالفعل.»

أخذ من جيب معطفِه الداخلي محفظة مُسطَّحة وفتحها وأخرج منها عملتَين ورقيتَين، ثم وضعهما على المنضدة بالقرب من الرقيب. فاحتجَّ الرقيب احتجاجًا واهيًا، لكنَّ عينَيه قد لمعتا بالبريق حين رأى العملتَين الورقيتين المُجعَّدتين. تمتَمَ قائلًا: «لا أظنُّ أنني فعلتُ أيَّ شيءٍ لأستحقَّ هذا.»

فابتسم الكولونيل بلاك وأمال سيجارَه الكبير بسعادة، وقال: «إنَّني أدفعُ بسخاءٍ نَظير خدماتٍ بسيطة أيها الرقيب. لديَّ أعداء كُثُر — رجالٌ سيُحرِّفون دوافعي — ومن الضروري أن آخذَ حذري مُقدَّمًا.»

راح يسير في البيت بخُطًى واسعة وقد وضَع يديه في جيبَي بنطاله وبدا عليه الاستغراق في التفكير.

ثم قال: «إنجلترا بلدٌ عسيرٌ على الرجال الذين قادَهم حظُّهم العثر إلى العمل في التمويل.»

فتمتَمَ الرقيب جوردن ببعض كلمات تُعبِّر عن تعاطُفِه معه.

بينما أضاف الكولونيل المتضرِّر قائلًا: «في عملنا أيُّها الرقيب، كثيرًا ما يَنهال الأشخاص المُحبَطون — أي أولئك الذين لم يُحقِّقوا الأرباح التي تَوقَّعوها — باتهاماتٍ غريبة على المسئولين عن إدارة المشروعات التي تُستَثمَر فيها أموالهم. لقد تلقيتُ اليوم رسالةً …» وهزَّ كتفيه ثم تابع: «تتَّهمني — أنا! — بإدارة محلِّ مُضارَبةٍ غير قانوني.»

فأومأ الرقيب؛ إذ كان يفهم هذا الجانب من المُضارَبة في الأسهم جيدًا.

وأضاف بلاك بينما كان يَمشي في البيت جيئة وذهابًا بخُطًى واسعة: «والمرءُ لديه أصدقاء، لديه أناسٌ يريد حمايتهم من مثل هذه المضايقات، سأضرب مثلًا هنا بصديقي الطبيب إيسلي.» وأضاف متهجِّيًا الاسم بعناية: «إيسلي: إي، ثم سين مُشدَّدة، ثم لي. هل سمعت عنه من قبل؟»

لم يكُن الرقيب قد سمع عن أيِّ شخصٍ بهذا الاسم من قبل، لكنَّه كان مستعدًّا للاعتراف بأنَّه قد سمع عنه.

قال الكولونيل: «ها هو رجلٌ، رجلٌ من أفضل بَني مهنته بكلِّ تأكيد، لكنِّي لن أُفاجأ إذا علمتُ أنَّه هو نفسه ليس بمأمنٍ من الافتراءات والتشهير.»

كان الرقيب يرى ذلك واردًا جدًّا، وتمتَمَ تَمتمةً توحي بذلك المغزى.

تابع الكولونيل حديثه قائلًا: «ثمَّة احتمال قائم على الدوام بأن يَلتصِق الحقد بالمشاهير، ولأنني أعرف أنَّك ستكون من أوائل مَن يسمعون مثل هذه الافتراءات، وأنَّك أيضًا ستمنحني فرصةً — فرصةً خاصة — للدفاع عن نفسي ضد هذه الافتراءات، فأنا أشعر بهذا الأمان. بارك الربُّ فيك أيُّها الرقيب!» وربَّت على كتف جوردن، الذي تأثَّر بذلك تأثُّرًا صادقًا.

قال: «أتفهَّمُ موقفك تمامًا يا سيدي، ويُمكنُك أن تَطمئنَّ إلى أنه سيكون من دواعي سروري وفخري أن أقدِّم لك أيَّ مساعَدةٍ متى أمكنَني ذلك.»

ومرة أخرى، حبا الكولونيل زائره بتربيتةٍ بسيطة.

تابع حديثه قائلًا: «أو للطبيب إيسلي أيضًا، فلتتذكَّر هذا الاسم.» وأضاف: «والآن أيُّها الرقيب، لقد استدعيتك الليلة …» وهزَّ كتفَيه مُستدركًا «إنَّ قولي بأنني استدعيتُك هو من قبيل المغالاة بالطبع؛ إذ كيف لمواطنٍ متواضعٍ مثلي أن يأمرَ ضابط شرطةٍ بخدمته؟»

وهنا بَرَم الرقيب جوردن شاربه في استحياء.

واصل الكولونيل قائلًا: «الأحرى أنني أستغلُّ صداقتك التي لا تُقدَّر بثمن لأطلب نصيحتك.»

توقفَ عن المشي وسَحَب كُرسيًّا مُقابلًا لمقعد الرقيب، وقَعَد عليه.

وقال: «لقد حالَف الحظُّ الشرطيَّ فيلو، ذاك الرجل الذي اشتكيتُ منه، في تقديم خدمةٍ لابنة السيد ثيودور ساندفورد، أظُنُّ أنك تعرف هذا الرجل الفاضل.»

أومأ الرقيب؛ إذ كان قد سمع عن السيد ثيودور ساندفورد، ومَن ذا الذي لم يسمع عنه؟ ذلك أنَّ ثيودور ساندفورد كان أحد أصحاب مصانع الحديد الذين تُقدَّر ثرواتهم بالملايين، وقَد شيَّد قصرًا حقيقيًّا في منطقة «هامبستيد»، واشترى إحدى لوحات الرسَّام «فاسكيز» وأهداها للوطن.

أضاف الكولونيل بلاك: «لقد قَفَز شُرطيُّك على سيارةٍ كانت الآنسة ساندفورد تقودها إلى أسفل تلَّةٍ شديدة الانحدار وكانت مكابحها مُعطَّلة، واستطاع، مُجازِفًا بحياته، أن يقود السيارة بأمانٍ وسط حركة السيارات الأخرى، والحق أن الآنسة ساندفورد كانت قد فقدت أعصابها.»

فقال الرقيب مستنكرًا: «آه، كان هو إذن، أليس كذلك؟»

رَدَّ الكولونيل بالإيجاب وبتأدُّب شديد، قائلًا: «بلى. والآن، صار ذلك الشاب وتلك الفتاة يلتقيان دون معرفة والد الآنسة ساندفورد، و... حسنًا، أنت تفهم.»

لم يكن الرقيب يفهم مقصد الكولونيل، لكنَّه لم يقل شيئًا.

قال الكولونيل: «أنا لا ألِّمح إلى وجود أيِّ خطأ، لكنَّه شرطي أيُّها الرقيب، وليس حتى ضابطًا مثلك، بل شرطيًّا!»

قال الرقيب كأنَّه يتكلم برأسه وعينَيه ويديه: «شيءٌ مؤسف!»

وأضاف الكولونيل: «ولسببٍ غريب لا أستطيع فهمه، أجد أنَّ السيد ساندفورد يتساهل مع زيارات هذا الشاب إلى بيتِه، وهذه مسألة لا نستطيع الخوض فيها مع الأسف، لكنِّي أرغب منك ... حسنًا، أرغب منك أن تستخدم نفوذك مع فيلو.»

نَهَض الرقيب جوردن ليغادر. لم يكن لديه أيُّ نفوذ، بل بعض الصلاحيات فحسب. وهو لم يفهم سوى القليل ممَّا كان الرجل الآخر يقصده، وتَفَاقَم عدم فهمه حين قال له الكولونيل بلاك وهو يمُدُّ يده القوية: «أودُّ أن أعرف إذا تورَّط هذا الشاب في أيِّ مشكلةٍ، بل أودُّ أن أعرف الكثير.»

فقال الرقيب بنبرةٍ حادة: «إنَّ ذلك المدعو فيلو رجلٌ انتهازي نادِر؛ فهو يَتعرَّفُ إلى الطبقات الراقية بطريقةٍ أعجزُ عن فهمها، أعتقد أنه يَنال ثقتهم تدريجيًّا بالمكر والاحتيال. دائمًا ما أقول إنَّ المطبخ هو المكان المناسب للشُّرطي، وحين أرى شرطيًّا في غرفة المعيشة، تتبادر إلى ذهني شكوكٌ وظنون. ثمة قدر كبير من الفساد ...» سَكَت فجأة عن الكلام؛ إذ أدرك أنَّه هو نفسه موجودٌ الآن في غرفة معيشة، وأنَّ كلمة «الفساد» كانت قبيحة ومتناقِضة مع هذا الموقف.

رافقه الكولونيل بلاك إلى الباب.

وتحدث إليه قائلًا: «أنت تُدرك أيُّها الرقيب أنَّ هذا الرجل — قلتَ إنَّ اسمه فيلو، أليس كذلك؟ — يُمكن أن يتخطَّاك ويُقدِّم تقريرًا إلى رئيسك مباشرة أو يُقدِّمه من وراء ظهرك؛ ولهذا أريد منك أن تَحرص أشدَّ الحرص على أن يصل إليَّ مثل ذلك التقرير، إذا قُدِّم في أيِّ وقت؛ فأنا لا أريد أن أؤخذ بغتةً. وإذا ظهرت أيُّ اتهاماتٍ تقتضي الردَّ عليها، أريد أن أعرف كل شيءٍ عنها مُقدَّمًا؛ فهذا سيجعل الردَّ عليها أسهل بكثير، إذ إنَّ لديَّ الكثير من المشاغل.»

وبعد ذلك صافَح الرقيب وأوصَله إلى خارج المنزل.

عاد الرقيب إلى مركز الشرطة بخُطًى سريعة وشعور بالاطمئنان إلى أنَّه قد قضى أمسيته على أفضل نحو.

(٣) مغامرةٌ في «بيمليكو»

في أثناء ذلك الوقت، وصلَ شُرطيُّنا إلى حانةٍ صغيرة بالقرب من شارع «ريجنت ستريت». دَخَلها وطَلَب مشروبًا، ثم قَعَد على كرسيٍّ في رُكن الصالة الفسيحة. كان يوجد شخصان أو ثلاثة في أرجاء القاعة، كان ثمَّة رجلَان أو ثلاثة يَحتسُون مشروباتهم عند المشرب ويتحدَّثُون. كانوا يَرتدون حُلَّاتٍ برَّاقة مُبهرَجة ويَختلسُون النظرات إلى كلِّ وافد جديد. عَرَف الشرطي أنَّهم مُجرمون عاديون من النوع الأول ولم يَستحوِذوا على انتباهِه؛ إذ كان يتطلَّع إلى هَدف أهم.

جلس ينتظر في الرُّكن وقد بدا عليه الانهماك في قراءة صحيفة مسائية، وقبع أمامه مشروب الويسكي الممزوج بالمياه الغازية دون أن يُمسَّ تقريبًا. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا، وليست بالمرة الأولى التي يَنتظِر فيها دون أيِّ نتيجة، لكنَّه كان صبورًا مُثابِرًا في السعي إلى هدفه.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة العاشرة والربع، حين فُتِح مصراعا الباب المتأرجِح ودَخَل منه رجلان، وقد ظلَّا على مدار نصف ساعة تقريبًا مُنهمِكين في مشاوَراتٍ هامسة. استطاع فرانك أن يرى من فوق صحيفته وجه سباركس. كان سباركس هو مُنفِّذ الأعمال المُعتادة الوضيعة لعصابة بلاك؛ إذ كان متعدِّد المهارات والقدرات. كان يُكلَّف بأداء أحقر مهامِّ بلاك، وكان يخدم سيده بكفاءة. أمَّا الآخر، فقد كان فرانك يعرفه باسم جيكوبس، وهو لصٌّ عادي كان يتقاضى راتب تقاعُد من الكولونيل المُحسِن.

تخلَّلت المحادثة بين الحين والآخر نظرات إمَّا إلى الساعة المُعلَّقة فوق المشرب أو إلى ساعة سباركس، وفي الساعة الحادية عشرة إلا الربع، نَهَض الرجلان وخَرَجا؛ فتبعهما فرانك تاركًا مشروبه لم يَنقص منه شيء تقريبًا.

انعطف الرجلان إلى شارع «ريجنت ستريت»، وسارا فيه قليلًا ثم أوقَفا سيارة أجرة. مرت سيارة أجرة أخرى، فأشار فرانك إلى سائقِها بالوقوف، وقال للسائق: «اتبع سيارة الأجرة الصفراء تلك، وابقَ خلفَها بمَسافةٍ مُناسِبة، وحين تتوقَّف لإنزال راكبيها، تجاوَزْها وأنزلني بعدها بقليل في الشارع نفسه.»

فلَمَس السائق قبَّعته، ثم تحرَّكت سيارتا الأجرة باتجاه حيِّ «فكتوريا»، ومرَّتا بمحطة القطار الكُبرى على اليسار، وانعطفتا إلى شارع «جروفينور رود» على اليَمين، وسرعان ما وصلتا إلى متاهة الشوارع التي تُشكِّل منطقة «بيمليكو». توقَّفَت سيارة الأجرة الأولى عند مبنًى مُقفِر في شارعٍ كان أنيقًا في الماضي لكنَّه صار الآن في حالةٍ لا يُمكن وصفها تتراوح ما بين الأحياء الخَرِبة وبين الطابع الأرستقراطي المتهالك. رأى فرانك الرجلَين يترجَّلان من السيارة، ثم نَزَل هو الآخر بعدهما ببضع مئاتٍ من الياردات على الجانب الآخر من الشارع. كان قد حدَّد المبنى بعلامةٍ مميزة، ولم يكن ذلك صعبًا عليه؛ إذ كان باب المبنى يحمل لوحةً نُحاسية تُشير إلى أنَّه وكالة توظيف، وقد كان كذلك بالفعل.

دَخَل طريداه من الباب، ثم تقدَّم فرانك بخُطًى واسعة نحو المنزل. عَبَر الشارع ووقف حيث استطاع مراقبة الباب. رنَّت أجراس كنيسةٍ مُجاوِرة مُعلِنةً بلوغ الساعة الثانية عشرة والنصف قبل أن يحدث أيُّ شيء. ومرَّ شرطيٌّ مُناوب بفرانك رامقًا إيَّاه بنظرةٍ مُمتعضة بطرفِ عينيه، وحتى المُشاة القليلون الذين كانوا في الخارج في ذلك الوقت قد رمَقُوه بارتيابٍ مُماثل.

لم يَكد صوت أجراس الكنيسة المُجاوِرة يَتلاشى حتى اقتربت سيارةٌ خاصة قد قدمت من آخر الشارع بسرعة وتوقَّفت بارتجاجةٍ أمام المبنى. ترجَّل منها رجلٌ، ولم يجد فرانك من موقفه أيَّ صعوبة في معرفة أنَّ ذلك الرجل هو بلاك. وقد تجلَّى ما كان يتوقَّعه من حقيقة أنَّ الباب قد فُتِح له فورًا.

وبعد ثلاث دقائق أخرى، جاءت سيارةٌ أخرى من آخر الشارع وتوقَّفَت على بُعد بضعة مبانٍ من المنزل، وكأنَّ السائق لم يكن مُتيقنًا تمامًا من وجهته. كان ذلك الوافد الجديد غريبًا على فرانك. بدا في الضوء الخافت المتردِّد لأحد مصابيح الشارع أنَّه يَرتدي ثيابًا عصرية؛ فحين استدار ليُعطيَ سائقه بعض التعليمات، لَمح فرانك مُقدِّمة قميصٍ أبيض ناصع تحت المعطف الطويل الداكن. تردَّد الرجل عند أسفل العتبات المُؤدية إلى الباب، ثم صَعَد ببطء وتعثَّر للحظة عند الجرس. فُتِح الباب قبل أن يَلمسه. وكان البيت يشهد نقاشًا قصيرًا حين دخل الوافد الجديد.

وبينما كان فرانك يَنتظِر بصبرٍ على الجانب الآخر من الشارع، رأى ضوءًا يظهر فجأة في الطابق الأول.

ليته كان يعلم أنَّ ذلك التجمُّع كان بمثابة اجتماع مجلس إدارة، اجتماع مجلس إدارة شركة كانت تتلقَّى تَمويلًا أكبر من بعض الشركات الأعلى مكانةً في حي المال في المدينة، ولدَيها فروعها المُنتشِرة في مُختلف أنحاء العالم ووكلاؤها ونظام العمل الخاص بها ودفاترها، هذا إن استطاع أحدٌ أن يَعثر على تلك الدفاتر، وفك ألغاز بياناتها المُشفَّرة.

جلس بلاك عند أحد طرفي الطاولة الطويلة وجلس آخرُ القادمِين عند الطرف الآخر. كان ذلك الرجل متورِّدَ البشرة يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا، له ذقن صغير وشارب أصفر خفيف. وكان وجهه مألوفًا لكلِّ مَن له علاقة بسباقات الخيول؛ إذ لم يكن ذلك الرجل سوى البارونيت الرياضي السير آيزاك ترامبر. ثمة شيءٌ متعلِّق بالسير آيزاك قد أبقاه على هامش دوائر المُجتمَع الراقي، مع أنَّه كان يَنحدِر من سلالةٍ تَرتبط ارتباطًا راسخًا بتاريخ إنجلترا؛ إذ ابتُكِرَت رتبة البارونيت منذ القِدم في القرن السابع عشر. كان اسم عائلته مدعاةً إلى الفخر، وقد حمله العديد من أسلافه باعتزاز. أما اسمه هو فقد كان من المحرَّمات التي ينأى الناس عن ذكرها؛ فتُرفض دعواته بأدبٍ ولا يُردُّ عليها بمثلها أبدًا.

ثمة فضيحة غير مفهومة قد ارتبطَت باسمه. صحيحٌ أنَّ المجتمع الإنجليزي متساهلٌ جدًّا مع أبنائه. وصحيحٌ أنَّه يَغفر بعض الجرائم والخطايا ويَتجاوز عنها بسهولة، أو يصفح عنها في نهاية المطاف على الأقل، لكنَّه لا يَغفر بعضها ولا يَصفَحُ عنه أبدًا. فحالَما يرتكب المرء أيًّا من هذه الجرائم، أو يقترف أيًّا من هذه الخطايا، تُغلَق في وجهه أبواب حيِّ «مايفير» إلى الأبد. وقد كان الرجل محاطًا بغيمةٍ من الفضائح الصغيرة، لكنَّ تلك التي أقصته عن المجتمع الراقي هي أنَّه امتطى حصانه الخاص في أحد سباقات «ميدلاند». وكان ذلك الحصان واحدًا من أبرز الخيول المُرشَّحة للفوز في بداية السباق، وبلغت نسبة أرباح المُراهنة على فوزه خمسة إلى اثنين.

سُطِّرَت ملابسات هذا السباق في سجلَّات نادي «جوكي كلوب» لسباقات الخيل. وقد صوَّر الصحفيون الرياضيون الذين شهدوا هذه الحادثة الاستثنائية، تفاصيل إقدام الجمهور الغاضب على تحطيم الحواجز ومحاولة الوصول إلى هذا الفارس الهاوي؛ تصويرًا بارعًا. بعد ذلك مَثُلَ السير آيزاك أمام مُنظِّمي السباقات المحليِّين وأحيلت القضية إلى منظمي نادي «جوكي كلوب». وتضمَّن العدد التالي من منشور «ريسنج كالندر» الرسمي الذي يُصدرُه النادي، ذلك الإعلان المشئوم بأنَّ السير آيزاك ترامبر قد صار «محظورًا» من دخول منطقة «نيوماركت هيث» المُخصَّصة لسباقات الخيل.

ظلَّ تحت وطأة هذا الحظر طوال أربع سنوات إلى أن سُحِبت تلك المذكرة. صار بإمكانه حضور سلاسل السباقات من جديد وامتلاك الخُيول أيضًا، وقد فعل كلا الأمرين، لكنَّ المَنع الذي فَرَضه عليه المجتمع؛ أي تلك المذكرة غير المكتوبة «بحظره»، لم تُسحَب. أُغلِقَ في وجهه باب كلِّ بيتٍ موقَّر، ولم يَعُد لديه سوى صديقٍ واحد في العالم المتأنِّق، وقد قيل إنَّ إيرل فيرلوند، ذاك الرجل العجوز النَّكِد الذي يقطر لسانه سُمًّا، لم يدافع عن تلميذه المُدلَّل غير الواعد إلَّا بدافعٍ من الشذوذ الخالص، وقد كان هذا الخلاف مفهومًا من رجلٍ كان معروفًا بأنَّ لسانه هو الألذع في أوروبا.

تُضرب الأمثال بسهولة السقوط في هاوية الجحيم، وقد كان ما سهَّل سقوط السير آيزاك ترامبر هو نزعة الانحطاط التي تجلَّت فيه حتى في بدايات شبابه. وحين جلس عند أحد طرفي طاولة الاجتماع، وقد وضع يدَيه في جيبي بنطاله، ومال برأسه على أحد الجانبَين كطائرٍ مبتهج، أثبت أنَّه رجلُ أعمالٍ بارع جدًّا، وهو ما اكتشف بلاك بنفسه في وقتٍ سابق من معرفتهما.

قال بلاك وهو ينظر إلى رفيقه بشيءٍ من المرح: «أظنُّ أننا جميعًا هنا الآن.» إذ كانا قد تركا سباركس وصديقه في غرفةٍ بالأسفل. وتابع قائلًا: «لقد طلبتُ منك أن تأتي الليلة لتسمع تقريرًا عن هذا العمل. يُسعدني إخبارك بأننا جنَينا هذا العام ربحًا أكبر ممَّا جنيناه طوال فترة عملنا منذ بدايته.»

مضى يسرد بعض التفاصيل عن العمل الذي كان مسئولًا عنه، وفعل ذلك بهيئةِ وأسلوبِ مَن يتحدث أمام قاعة اجتماعات مكتظَّة بالحضور.

تحدث الكولونيل بطريقة الكهان فقال: «قد يقول الناس إنَّ عمل السمسار الخارجي يَتضارَب مع وضعي المُهم المُعتَرَف به في عالم المال؛ لذا فأنا أرى أنه من المستحسَن أن أفصل نفسي عن شركتنا الصغيرة. غير أنَّ السمسار الخارجي شخصٌ مُفيد، لا سيما إذا كان لدَيه مائة ألف زبون. إنني أملكُ أسهُمًا يُمكنه أن يُوصي بها مع وجود دليلٍ قاطع على أنَّه ليس له مصلحة في ذلك، وأنا الآن أرغبُ بشدة في أن يُوصَى بهذه الأسهم.»

فسأله البارونيت بلا مبالاة: «هل نفقد أيَّ شيء بموت فانكس؟ كان حظًّا عاثرًا، أليس كذلك؟ لكنَّه كان سمينًا للغاية.»

فحدَّق الكولونيل إلى السائل بنظرةٍ هادئة، وقال بهدوء: «دعنا لا نتطرَّق إلى الحديث عن فانكس. لقد أحزنَني موت فانكس بشدَّة، ولا أرغب في الحديث عن ذلك.»

أومأ البارونيت. وقال: «لم أكن أثقُ بذلك المسكين قط، ولم أَثق أيضًا بذلك المسكين الآخر الذي أحدَثَ جَلَبةً فظيعة هنا منذ عام، في شهر فبراير على ما أظن، أليس كذلك؟»

قال الكولونيل باقتضاب: «بلى.»

فقال الأرستقراطي الذي تُعوِزُه اللباقة: «من حُسن حظِّنا أنَّه مات هو الآخر؛ لأنَّ ...»

فقال الكولونيل بنبرة أقرب إلى الزمجرة: «فلنُواصِل العمل.» غير أنَّ البارونيت كان لديه شيءٌ يريد قوله؛ إذ كان قلقًا على أمنِه الشخصي. وحالَما أبدى بلاك أمارةً على إنهاء العمل، اتَّكأ السير آيزاك إلى الأمام بنفادِ صبر.

قال له: «تتبقَّى مسألةٌ واحدة لم نُناقِشها يا بلاك.»

كان بلاك يعرف ماهية هذه المسألة، وكان يتجنَّب التطرُّق إلى الموضوع بحرصٍ شديد. سأله ببراءة: «ما هي؟»

فسأله الآخر ببعض القلق: «هؤلاء الرجال الذين يُهدِّدوننا، أو بالأحرى يُهدِّدونك، إنهم لا يعرفون أيَّ شيء عن هُوية مَن يتولَّى زمام عملنا، أليسوا كذلك؟»

هزَّ بلاك رأسه مبتسمًا، وقال: «أظنُّهم لا يعرفون. أنت تقصدُ رجال العدالة الأربعة بالطبع.»

أومأ السير آيزاك إيماءةً قصيرة، ثم أضاف بلاك مُتظاهرًا باللامبالاة: «نعم. لقد تلقَّيت رسالةً معتمة الهوية من هؤلاء الرجال. والحق يا عزيزي السير آيزاك، أنني مُتيقِّنٌ تمامًا من أنَّ المسألة برمتها مجرد خدعة.»

فسأله الآخر: «ماذا تعني بأنَّها خدعة؟»

هزَّ بلاك كتفيه. وقال: «أعني أنَّه لا توجد جماعةٌ باسم رجال العدالة الأربعة أو أيُّ جماعةٍ من هذا القَبيل. إنَّهم محض خرافة. لا وجود لهم؛ فذلك أشدُّ إثارةً من أن تصفه الكلمات. تخيَّل أنَّ أربعة رجال قد اجتمعوا لتصحيح قوانين إنجلترا. إنَّ ذلك يبدو أقرب إلى الروايات المثيرة منه إلى الحياة الواقعية.» ضحك بهدوءٍ ظاهري، ثم أضاف وهو يهُزُّ إصبعه يمينًا ويسارًا بشيءٍ من الممازحة أمام وجه البارونيت القَلِق: «هذه الأشياء لا تحدث في «بيمليكو». كلا، فأنا أظنُّ أن شُرطيَّنا، ذاك الرجل الذي حدَّثتُك عنه، هو أصلُ كلِّ هذا. الأرجح أنَّه هو هؤلاء المتآمرون اليائسون الأربعة كُلهم.» وضحك مجددًا.

بَرَم السير آيزاك شاربه بعصبية. وقال متذمرًا: «من الهُراء القولُ إنَّهم غير موجودين؛ فنحن نعرف ما فعلوه قبل ستِّ سنوات، وأنا لا أحبُّ هذا الرجل الآخر بعض الشيء.»

«أيُّ رجلٍ آخر ذاك الذي لا تحبه؟»

أجاب بانفعال: «هذا الشرطي المُتطفِّل. ألا يُمكن رشوته؟»

«الشرطي؟»

«نعم، أظنُّك تستطيع رشوة الشرطيين، ما دُمت تستطيع رشوة الرقباء.» كان السير آيزاك ترامبر يتمتع بموهبة السُّخرية اللاذعة.

فرك بلاك ذقنه وقد بدا عليه الانهماك في التفكير، ثم قال: «من الغريب أنَّ ذلك لم يَخطر ببالي قَط. أعتقد أننا نَستطيع المحاولة.» ألقى بعد ذلك نظرةً خاطفة على ساعته، وقال: «سأطلب منك الرحيل الآن، فأنا لديَّ موعدٌ في الساعة الواحدة والنصف.»

ابتسم السير آيزاك ببطء، وقال: «من الغريب أن يكون لديك موعدٌ في هذه الساعة.»

رَدَّ الكولونيل بلاك قائلًا: «عملنا غريب.»

فنهضا، والتفت السير آيزاك إلى بلاك. وسأله: «بخصوص ماذا ذلك الموعد؟»

ابتسم بلاك ابتسامة غامضة. واستهلَّ الإجابة قائلًا: «إنها مسألة خاصَّة بعض الشيء.»

سَكَت فجأة؛ إذ سمع صوت خُطى أقدام مُتسارعة على الدَّرَج خارج الغرفة. وبعد ذلك بثانية، فُتِح الباب واندفع سباركس إلى داخل الغرفة، وقال لاهثًا: «سيدي الزعيم، إنهم يُراقبون المنزل.»

«مَن ذا الذي يُراقبه؟»

أجاب مفصِّلًا: «كان ثمة رجلٌ مُتطفِّل يقف على الجانب الآخر من الشارع. لقد رأيته، وفور أن أدرك هو ذلك، بدأ يَبتعِد، ثم عاد الآن مرة أخرى. لقد ظللنا نُراقبه أنا وويلي.»

تَبِع الرجلان سباركس المُنفعِل إلى الطابق السُّفلي؛ حيث كانا يستطيعان عَبر النظر من نافذة مُنخفِضة، أن يُشاهِدا ذلك الرجل الذي تجرَّأ على التجسُّس على أفعالهما، دون أن يُلاحظهما.

قال بلاك غاضبًا: «إذ كان هذا الرجل من الشرطة؛ فقَد خذَلني ذلك الكلب جوردن. لقد قال لي إنَّ «سكوتلانديارد» لا يتأهَّبون لاتخاذ أيِّ إجراء.»

أدرك فرانك من مكان مراقبته أنَّه قد أثار قدرًا من الانزعاج؛ إذ رأى سباركس يرجع على عَجَلٍ مع جيكوبس ويدخلان المنزل مرةً أخرى. ولاحظ أنَّ الضوء أُطفِئ فجأةً في الطابق الأول؛ فأدرك حينذاك أنَّهم كانوا يُراقبونه عَبر اللوح الزجاجي الموجود بمَدخل المنزل.

لم يكن يوجد المزيد ممَّا يُمكن أن يعرفه. وقد باء بالفشل حتى هذه اللحظة؛ إذ لم يكن يَخفى عليه أنَّ السير آيزاك ترامبر شريك لبلاك، ولا أنَّ جيكوبس وسباركس المُحترَم مُنخرِطان في هذا الشأن كذلك. ولم يَعرف ما كان يَتطلَّع إلى معرفته ولم يبلغ ما كان يأمل تحقيقه.

كان يَستدير مُبتعدًا باتجاه «فكتوريا» حين استرعت انتباهه قامةُ شابٍّ كان يتقدَّم ببطءٍ على الرصيف المقابل ويُلقي بين الحين والآخر نظراتٍ خاطفة على أرقام البيوت المنقوشة على شُرَّاعات الأبواب. راح يُراقبه بدافع الفضول، وسرعان ما رآه يتوقَّف أمام البيت رقم ٦٣.

عَبَر الشارع إلى الاتجاه الذي كان يَسير فيه في ستِّ خطوات. فاستدار الصبي — الذي كان أكثر قليلًا من مجرَّد صبي عادي — وقد ارتعب بعض الشيء من ظهور فرانك المفاجئ. اقترب منه فرانك فيلو وعَرَف هويته، ثم قال له: «لا داعيَ إلى الخوف. أنا ضابط شرطة. أأنت ذاهبٌ إلى ذلك المنزل؟»

نظر إليه الشاب لحظةً ولم يَرُد، ثم قال بصوتٍ مرتجف: «نعم.»

«هل ستذهب إلى هناك لإعطاء الكولونيل بلاك معلوماتٍ معيَّنة عن أعمال رَبِّ عملك؟»

أومأ الشاب برأسه بالإيجاب، وقد بدا وكأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي من شدة الخوف.

«أيعرف ربُّ عملك بذلك؟»

فهزَّ الفتى رأسه ببطء، وسأل فجأةً بنبرةٍ مُرتعِدة لاحظها فرانك في صوته: «هل أرسلك؟»

فابتسم فرانك مُتسائلًا في طيَّات نفسه عن هوية ربِّ العمل ذاك، وقال: «كلا، بل أتيتُ إلى هنا من تلقاء نفسي، وأريدُ أن أحذرك من الوثوق بالكولونيل بلاك.»

فنَفَض الفتى رأسه، ورأى فرانك الحُمرة التي اعتلَت وجهَه، ثم قال فجأة: «أنت الشرطي فيلو.»

وإذا قيل إنَّ فرانك لم يُدهش حينها إلا قليلًا، فإنَّ ذلك يكون تهوينًا لشعوره في ذلك الموقف. كرَّر العبارة قائلًا: «نعم. أنا الشرطي فيلو.»

وبينما كان يتكلَّم، فُتِح باب البيت، لكنَّ فرانك لم يستطع من وضعية وقوفه أن يرى ذلك. خَرَج بلاك من الباب خلسةً ونَزل على الدَّرجات الخارجية متجهًا ناحيته.

ولم يكن السمسار يرغب في أيِّ شيء حينئذٍ سوى معرفة هوية الرجل الذي كان يُراقبه خلسة. وكان قريبًا بالدرجة التي تكفي لأن يسمع ما قاله الفتى.

فصاح قائلًا: «فيلو!» ونَزَل بقية الدرجات راكضًا، ثم قال مُزمجرًا: «إذن، فهذا أنت، أليس كذلك؟ هذا أنت الذي تتطفَّل على عملي مجددًا.»

قال فرانك ببرود: «شيءٌ من هذا القبيل.»

والتفت إلى الفتى مرَّة أخرى.

قال له بنبرةٍ آمرة: «أقول لك إنَّك إذا دخلت هذا البيت، أو كانت لك أي صلة بهذا الرجل، فستندم على ذلك إلى آخر يومٍ في حياتك.»

قال بلاك وهو يَستشيط غضبًا: «ستدفع ثمن ذلك! سوف أنزع مِعطفَك عن ظهرك أيها الشرطي. سوف أُسلمك إلى الشرطة. سوف ... سوف ...»

قال فرانك وقد رأى بعينَيه السريعتَين خيالَ شُرطيٍ على الجانب الآخر من الطريق يسير ناحيتهم ببطء: «لديك فرصةٌ ممتازة إذن؛ فثمة شرطي هناك، نادِه الآن وسلِّمني إليه. لا سبب يمنعك من ذلك، لا سبب يجعلك ترغب في تجنُّب إشهار هذا التصرُّف.»

وهنا قال الفتى: «آه، لا لا! أيها الكولونيل بلاك، يجب أن آتي في وقتٍ آخر.» وتوجه إلى فرانك غاضبًا؛ فتحدث إليه مستمدًّا الشجاعة من وجود بلاك وقال: «أمَّا أنت ...»

فقاطعه فرانك قائلًا بالكلمات نفسها: «أمَّا أنت، فتجنَّب الرفقة السيئة!»

تردَّد الفتى، ثم استدار ومشى بعيدًا بسرعة، تاركًا الرجلَين وحدهما على الرصيف.

كان المشاهدون الثلاثة في صالة المنزل يتابعون المشهد بفضول، وكان اثنان منهم على الأقل يترقَّبان من بلاك تعليماتٍ لن تكون عاقبتها حسنةً على فرانك.

غير أنَّ بلاك تمالك أعصابه ببعض الصعوبة؛ فهو أيضًا قد رأى خيال الشرطي على الجانب الآخر من الطريق.

قال بلُطفٍ اضطراري: «أصغِ إليَّ أيها الشرطي فيلو. أعرف أنك مُخطئ، وأنت تَظنُّ أنَّك مُحِق. فلتأتِ معي إلى الداخل ولنُناقش هذه المسألة.»

انتظر الرد بينما كان عقله يحيك خطةً للتعامل مع هذا العدو الخَطِر. لم يتخيَّل أنَّ فرانك سيقبل الدعوة، وقد دُهِش حقًّا حين رأى الشرطي يستدير دون أن يتفوَّه بكلمةٍ أخرى، ويصعَد الدرجات المؤدية إلى الباب ببطء.

(٤) الرجال الذين نصَّبوا أنفسهم قضاة

سَمِع فرانك صوت جلبة بسيطة في الصالة، وعرف أنَّ الرجال الذين كانوا يراقبونه قد ذهبوا للاختباء. لم يكن يشعر بخوفٍ كبير، مع أنَّه لم يكن يحمل سلاحًا؛ إذ كان واثقًا للغاية في قوته وبراعته.

دَخل بلاك خلفه وأغلق الباب وراءه، ثم سمع فرانك صوت مزلاج الباب يستقر في موضعه في الظلام. وأضاء بلاك النور.

قال بلاك بابتسامةٍ ودية: «نحن نعمل بنزاهة أيها الشرطي. ها أنت ترى أننا لا نمارس معك أيَّ ألاعيب خبيثة؛ فكل شيء مستقيم وواضح.»

بادَر بصعود الدَّرَج الذي كان مُغطًّى بسجادٍ كثيف، وتبعه فرانك. لاحظ الشاب أنَّ المنزل كان مفروشًا بأثاث فاخر. كانت الجدران تحمل رسومات فَخمة، وكانت الستائر المُسدَلة على نافذة الدَّرَج مصنوعة من الحرير، وكانت خزانات المشغولات الخزفية الصينية تملأ تجاويف الجدران.

قاده بلاك إلى غرفة في الطابق الأول. لم تكن تلك هي الغرفة التي عُقِد فيها اجتماع مجلس الإدارة، بل كانت غرفة صغيرة تتفرع من غرفة الاجتماعات، وكانت الفخامة فيها أقل وضوحًا. لم تكن الغرفة تحوي أيَّ أثاثٍ سوى مكتبين، وكان السجاد المفروش تحت أقدامهما من النوع الشائع الموجود في المكاتب العادية. وثمَّة لوحةٌ كبيرة من بساط الحوائط، هي لمسة الفخامة الوحيدة في الغرفة، كانت تُغطِّي أحد الجدران. وتدلَّت من السقف نجفةٌ أضاءَت الغرفة. كانت المدفأة تحوي جذوةً صغيرة من النيران. وعلى منضدةٍ صغيرةٍ بالقرب من أحد المكتبَين، كان يوجد عشاء مُعَدٌّ لشخصين. وقد لاحَظ فرانك ذلك، وابتسم بلاك بينه وبين نفسه لاعنًا غباءه.

قال بهدوء: «قد يوحي المظهر العام بأنني كنت أنتظرك، لكن الحق أنَّ لديَّ بعض الأصدقاء هنا الليلة، وسيبقى أحدهم لتناول العشاء.»

أومأ فرانك برأسه. كان يعرف دلالة مائدة العشاء وحزم الأوراق المُدبَّسة الجاهزة للاستخدام.

قال له بلاك: «اجلس.» وجلس هو نفسه إلى أحد المكتبَين. جلس فرانك على مسافةٍ من المكتب الآخر، واستدار نصف استدارةٍ ليواجه الرجل الذي كان عازمًا على إهلاكه.

قال بلاك بنبرةٍ سريعة: «والآن، لنبدأ العمل. لا سببَ في الدنيا يَمنع التوصُّل إلى تفاهُمٍ بيننا.» وأضاف بنبرة استحسان: «أنا رجل أعمال، وأنت رجل أعمال، وشابٌّ ذكيٌّ أيضًا.»

لم يَرُد فرانك. كان يعرف ما سيحدث بعد ذلك.

أردف بلاك بنبرةٍ تأمُّلية: «لنفترض أننا أبرمنا اتفاقًا كهذا. أنت تتصوَّر أنني مُنخرِطٌ في نوع شنيعٍ للغاية من الأعمال.» وواصل كلامه مستنكرًا: «آه، أنا أعرف! أعرف! أنت تعتقد أنني أحقِّق أرباحًا طائلة، وأنني أسرق الناس بأساليب محلات المُضاربة غير القانونية. لا داعي إلى أن أخبرك أيها الشرطي بأنني حزينٌ وغاضب لأنَّك تتبنَّى انطباعًا سيئًا عن شخصيتي.»

لم يكن صوته حزينًا ولا غاضبًا، بل كانت النبرة التي تحدَّث بها إقرارًا مبتهجًا بالذنب.

«الآن، أنا مُقتنعٌ تمامًا بأنَّك ينبغي أن تُحقِّق في شئوني بنفسك. تعرفُ أنَّنا نتلقَّى عقودًا كثيرة للأعمال من جميع أنحاء القارة، وأننا نَدفع أموالًا طائلة من تمويلاتنا للزبائن الذين، حسنًا، هل لنا أن نقول: الذين يُراهِنون على هامش الأرباح؟»

قال فرانك: «لك أن تقول ما تشاء.»

فقال بلاك: «الآن، لنفترض أنَّك ستذهب إلى باريس أيُّها الشرطي؛ إذ يُمكنُك أن تأخذ إجازة بسهولة، أو يمكنك أن تذهب إلى أي منطقة خارج العاصمة أو أيٍّ من المدن الكبرى في بريطانيا العُظمى حيث يقيم زبائننا وتُحاورهم بنفسك عن نزاهتنا. اسألهم، سأعطيك قائمةً بأسمائهم. لا أريدك أن تفعل ذلك على نفقتِك الخاصة ...» قال ذلك ثمَّ مَدَّ يده الكبيرة تأكيدًا لهذا النفي، ثم تابع: «فأنا لا أظنُّ أنَّك تملك أموالًا وفيرة لتُبدِّدها على ذلك النوع من الرحلات. الآن، سأُعطيك الليلة مائتي جنيه، إن شئت، ولك أن تستخدم هذا المبلغ مثلما تشاء لتَتعمَّق في تحقيقاتك. ما رأيك في ذلك؟»

ابتسم فرانك، وقال: «أراه مقترحًا ذكيًّا شيطانيًّا؛ آخذ مائتي جنيه، ويُمكنني حينئذٍ أن أستخدمها للغرض الذي ذكرته، أو أضعها في حسابي الخاص، وما من أسئلة ستُطرح عن هذا الشأن. هل أفهمه فهمًا صحيحًا؟»

ابتسم الكولونيل بلاك وأومأ برأسه. تغضَّن وجهه القوي الأصفر في تعبيرٍ عن استمتاعٍ داخلي، وقال: «أنت شابٌّ ذو ذكاءٍ فريد.»

قام فرانك من كرسيه. وقال: «لن يَحدث هذا.»

فاكفهرَّ وجه الكولونيل بلاك، وقال: «أتقصدُ أنَّك ترفض؟»

أومأ فرانك برأسه، وقال: «أرفضُ بالتأكيد. لا يُمكنُكَ رشوتي بمائتي جنيه ولا بألفي جنيه يا بلاك؛ فلستُ ممَّن يُشترى، إنني أعتقدُ أنَّك من أخطر الأشخاص الذين يَعرفهم المجتمع. أعتقدُ أنَّك تتبع حيلًا مُلتوية هنا وفي حيِّ المال، ولن يهدأ لي بالٌ حتى أزجَّ بك في السجن.»

فقام بلاك ببطء، وقال: «إذن، فهذا كلُّ ما لديك، أليس كذلك؟» كانت نَبرته تحمل وعيدًا وشرًّا. التقَت نظرةٌ منه مليئة بكراهيةٍ لا يُمكِن استرضاؤها بنظرات فيلو المُحدِّقة الثابتة، وأضاف بنبرةٍ صارمة: «ستندمُ على ذلك. لقد منحتُك فرصةً كان معظم الشبان ليَغتنمها بلهفة. يُمكنني أن أجعل المبلغ ثلاثمائة ...»

قال فرانك بنفاد صبر: «حتى ولو جعلته ثلاثًا وثلاثين مائة أو ثلاثة وثلاثين ألفًا، فلن يكون هناك من عملٍ بينَنا. إنني أعرفك جيدًا جدًّا يا بلاك. أعرف عنك أكثر ممَّا تظنُّ أنني أعرف.

حمل قبعته، وتفحَّص تجويفها الداخلي وقد بدا مُتفكِّرًا.

وبعد ذلك قال متأنيًا: «ثمة رجلٌ مطلوب القبض عليه في فرنسا — رجلٌ داهية قد أنشأ بعضًا من بنوك الثراء السريع في كلِّ أنحاء البلاد، لا سيما في ليون والجنوب — اسمه أولوروف. لقد عَرَضت السلُطات مكافأة كبيرة جدًّا لمن يساعد في القبض عليه. وكان لديه شريكٌ مات فجأة ...»

امتُقع لون وجه بلاك وصار شاحبًا. وراحت يده التي رفَعَها إلى شفتَيه ترتجف قليلًا، قال: «أعتقد أنك تعرف أكثر ممَّا ينبغي.» استدار بسرعة وغادَرَ الغرفة. وعاد فرانك إلى الباب بخطواتٍ واثبة. كان قد اشتمَّ رائحة الغدر، لكن الباب قد انغلَقَ قبل أن يصل إليه وصدرت عنه طقطقةٌ حادَّة. أدار مقبض الباب وسحبه، لكنَّه كان موصَدًا.

نَظَر حوله في أرجاء الغرفة، ورأى بابًا آخر في الطرف الأقصى منها. وبينَما كان في مُنتصَف الطريق نحوه، أطفِئَت كل أنوار الغرفة. صار وسط ظلامٍ حالك. وما كان يَظُن

أنه نافذة عند أحد أطراف الغرفة، اتَّضح أنَّه جدارٌ فارغ كان مُغطًّى، بدهاءٍ شديد، بأستار وشيش حصيرةٍ مُصمَّم ببراعةٍ فائقة ليَخدَع من يراه. أمَّا النافذة الحقيقية التي كانت تُطِلُّ على الشارع في الأسفل، فكانت موصدة بإحكام.

لم يكن غياب الضوء مزعجًا له؛ إذ كان يحمل مصباحًا كهربائيًّا صغيرًا في جيبه، فأخرجه وظلَّ يوجه إضاءته في كلِّ أرجاء الغرفة. كان خطأً تخطيطيًّا منه أن يسمح لبلاك بأن يأخذ حِذْره، لكنَّ إغراء إخافة الرجل الضخم كان أشد من أن يُقاوَم. أدرك أنَّه قد صار في خطر شديد. فباستثناء الشاب الذي رآه في الشارع، والذي عَرف هويته بغرابةٍ شديدة، لم يكن أحدٌ يدري بوجوده في ذلك المنزل.

بحث سريعًا في أرجاء الغرفة، وتنصَّت بانتباهٍ شديد عند كلا البابَين، لكنَّه لم يسمع شيئًا. تذكَّر أنَّه رأى عند ردهة الطابق، خارج الباب الذي دَخَل منه الغرفة، عددًا من الأسلحة الشرقية العتيقة مُعلَّقةً على الحائط، وراوَدَه بصيصٌ من الأمل في أن يكون ذلك النمط من الزينة ممتدًّا إلى داخل الغرفة، لكنه قد أدرك من قبل أن يبدأ بحثه أنَّ مسعاه سيخيب لا محالة. فما كانت هذه الغرفة لتحوي أيَّ أسلحة. تفحَّص الأرضية بدقة، إذ أراد أن يأخذ حذره من أيِّ فخٍّ أو شراك.

لم تكن الأرضية تُشكِّل خطرًا من ذلك النوع. قَعَد فرانك على حافة المكتب وانتظر. وظلَّ منتظرًا على هذا النحو لمدة نصف ساعة قبل أن يُعطيه خصمه أيَّ إشارة. سمع بعد ذلك صوتًا بدا قريبًا من أذنه يقول: «هل ستكون رشيدًا أيُّها الشرطي؟»

وجَّه فرانك نور مصباحَه في الاتجاه الذي جاء منه الصوت؛ فرأى ما بدا له مِشكاةً شرقية مُعلَّقة. كان قد لاحَظ قبل ذلك أنَّ سُمكَ الجذع الذي تتدلَّى منه كان أكبر من العادي، وأدرك الآن أنَّ تلك المشكاة الشبيهة بالجَرس هي طَرَف أنبوب مُوصِّل للصوت. وحينها خمَّن، تخمينًا صحيحًا على الأرجح، أنَّ ذلك الجهاز قد عُلِّق ليُمكِّن بلاك من التنصُّت على مَن في الغرفة وليس التواصُل معهم.

لم يَرُد. وكُرِّر السؤال مرَّةً أخرى؛ فرفَع رأسه وأجاب مُتحديًا: «فلتأتِ وتَرَ بنفسك.»

ظل انتباهُه مُنقسمًا بين البابين طوال الوقت الذي كان يَنتظره وسط الظلام؛ إذ كان متأهِّبًا ليرى خيط الضوء الرفيع الذي كان من المُنتظَر أن يدلَّه على الفتحة الخفية لكنَّه، بغرابةٍ شديدة، قد أغفل أن يضع في حسبانه احتمالية أن تكون الأضواء خارج الغرفة مُطفأةً أيضًا.

وبينما كان يَمشي جيئةً وذهابًا في وسط الغرفة المُغطَّى بالسجاد، الذي كان خاليًا من أيِّ عائق، استرعى انتباهه ضجيج خافت خلفَه. وبينما كان يستدير ليرى مصدر ذاك

الضجيج، انزلَقَ حبلٌ معقودٌ حول جسدِه، وأحاط بساقيه ذراعان عنيفتان، وطُرِح على الأرض بعُنف. ناضَل قدر المستطاع، لكنَّ الأفضلية العددية لم تكن في صالحِه، وكذلك أعجزه الحبل المعقود الذي أوثقه عن استخدام ذراعَيه بحُرِّية. وجد نفسه مُستلقيًا على السجادة ووجهُه نحو الأسفل، ثم حُشِر في فمه وِشاحُ عُنُقٍ أحمر، بينما طوَّق شيءٌ بارد وصلب معصمَيه وربطهما معًا. سمع صوت طقطقةٍ، وأدرك آنذاك أنَّ يديه أصبحتا مُصفَّدتين خلفه.

قال صوت بلاك: «أوقفه على قدميه.»

أضيئت أنوار الغرفة حينئذ. وأُوقِف فرانك على قدميه مترنحًا بمساعدةٍ قاسية من جيكوبس. كان بلاك موجودًا، وسباركس موجودًا، وكذلك الرجل الغريب الذي رآه فرانك يدخل المنزل، لكنَّ ذاك الغريب كان يعقد وشاحَ عُنُقٍ على النصف السُّفلي من وجهه، ولم يستطع فرانك أن يرى سوى النصف العلوي من مُحيًّا مُتورِّد اللون وعينين زرقاوين فاتحتين كانتا تتلألآن بالخبث.

قال بلاك: «ضَعه على تلك الأريكة.» وأضاف حين وُضِع أسيره كيفما أُمَر: «والآن، أعتقد أنك ستُصغي إلى صوت العقل.»

كان من المستحيل على فرانك فيلو أن يرد؛ إذ كان الوشاح المحشور في فمه عائقًا فعَّالًا يُعجزه عن التفوه بأيِّ ردٍّ قد يَخطر بباله، لكنَّ عينَيه الواضحتَين الصارمتَين، تحدثتا بلهجةٍ جلية كالشمس إلى الرجل المُبتسِم الذي كان يُواجهه.

قال بلاك: «اقتراحي بسيطٌ جدًّا، عليك أن تُمسك لسانك وألَّا تتدخَّل في شئوني وتقبل مائتي جنيه تحت الحساب، ولن تتعرَّض حينئذٍ لمزيدٍ من المضايقات. أمَّا إذا رفضت، فسأضعك في المكان الذي أراه مناسبًا لك.» ابتسم ابتسامةً معوجة، ثم أضاف: «يوجد خمسة سراديب في هذا المنزل، وإذا كنتَ مهتمًّا بدراسة التاريخ، مثلي، يا سيد فيلو، فينبغي أن تقرأ تاريخ بارونات الراين وستُدرك حينئذٍ أنني أملك بديلًا ممتازًا لأشدِّ الأبراج المُحصَّنة التي كانت تُشيَّد قديمًا. سوف تُقيَّد هناك بالأغلال من ساقيك، ولن تذوق الطعام إلا وَفق أهواء حارسٍ موثوق به، ويُمكنُني أن أخبرك بأنَّه حارسٌ شارد الذهن للغاية، وسوف تقبع هناك حتى ينتابك الجنون أو السرور؛ إما أن يسرَّك أن تَقبل شروطنا أو تُصاب بالجنون بالقدر الكافي لإيداعك في مصحةٍ للأمراض العقلية، حيث لن يَأخُذ أحدٌ اتهاماتك على محمل الجد.»

التفت بلاك قائلًا: «انزع عنه هذه الكمامة، سنأخذه إلى الغرفة المجاورة. لا أظنُّ أنَّ صوته سيُسمع من هناك مهما علا صراخه.»

شدَّ جيكوبس الوشاح بقسوةٍ من فم فرانك، الذي كان يُدفَع تارةً ويُقتاد تارةً أخرى إلى بابِ غرفة الاجتماعات التي كانت حالِكة الظلام. تقدَّم بلاك وتحسَّس بيده بحثًا عن مِفتاح الإضاءة، بينما كان الآخرون واقفين في مدخل الغرفة. وقد وَجَد مِفتاح الضوء وأشعله أخيرًا، ثم تراجَعَ مُطلقًا صرخةَ ذُعر.

وقد كان ردُّ فعله مُبرَّرًا؛ إذ كانت الغرفة تضمُّ أربعة رجالٍ جالسين إلى الطاولة، بل أربعة مُقنَّعين. كان الباب المؤدِّي إلى غرفة الاجتماعات واسعًا؛ فكان الرجال الثلاثة يَقفون في وسطه مع أسيرهم مُتجمِّعين، ومُتحجِّرين بلا حَراكٍ من فرط الذُّعر. أما الأربعة الجالسون إلى الطاولة، فلم يتفوَّهوا بأيِّ صوت.

كان بلاك أوَّل من استَفاق واستعاد رباطة جأشِه. بدأ يتحرَّك إلى الأمام ثم تَوقَّف. وبالرغم من أنَّ وجهه كان قادرًا على الحركة والتعبير كالمُعتاد، وأنَّ فمَه كان مفتوحًا، فقد عَجز عن صياغة أيِّ كلمات. فقال لاهثًا: «ماذا، ماذا؟»

استدار الرجل المُقنَّع الذي كان قاعدًا إلى رأس الطاولة بعينَيه اللامعتَين إلى مالك المؤسسة، قال بفظاظة: «لم تتوقَّع قدُومي يا سيد أولوروف، أليس كذلك؟»

فقال الآخر بعُنف: «اسمي بلاك. ماذا تَفعل هنا؟»

قال الرجل المُقنَّع: «سوف تَعرف. توجد كراسي.» رأى بلاك آنذاك أنَّ الكراسي مرصوصة عند الجانب المُقابل من الطاوِلة.

أضاف الرجل المقنع: «أولًا، سأُخلِّصك من أسيرك. حُلَّ هذه الأصفاد يا سباركس.»

تحسَّس الرجل داخلَ جيبِه بحثًا عن المفتاح، لكنه لم يكن يبحث داخل جيب صدارِه، بل حرَّك يده أبعد نحو الأسفل؛ فقال الجالس إلى الطاولة بنبرةٍ حادة: «أبقِ يدَكَ في الأعلى.» وأشار إشارةً بسيطة بيدِه، فرأى خادم بلاك بريق انعكاس الضوء على مُسدَّس. أضاف الرجل: «لا داعي إلى أن تخاف؛ فمُهمَّتنا الصغيرة لن تُسفِر عن عاقبةٍ مأساوية الليلة، الليلة!» وقد كرَّر هذه الكلمة الأخيرة بنبرةٍ لافتة ذات مَغزًى، ثم واصل كلامه قائلًا: «لقد تلقيتَ منَّا ثلاثة تحذيرات، وجئنا لنُسلِّم التحذير الأخير شخصيًّا.»

كان بلاك يَستعيد حضوره الذهني سريعًا. فقال مُتهكِّمًا: «ولماذا لا تُبلِغ الشرطة؟»

رَدَّ الرجل بنبرةٍ مُهذَّبة: «سنفعل ذلك في الوقت المناسب، لكنِّي أُحذِّرك شخصيًّا يا بلاك بأنَّ صبرنا كاد ينفد.»

لم يكن بلاك جبانًا من بعض النواحي. لقد أخرج مسدَّسه فجأةً وهو يُطلِق اللعنات والسباب واندفع إلى داخل الغرفة. وحين فعل ذلك، أظلمت الغرفة ووجد فرانك نفسه

وقد أمسكت به يدان قويَّتان وانتزعته من قبضة آسرِه المُرتخية. دُفِع إلى الأمام وأغلِق من خلفه أحد الأبواب بعُنف. ووجد نفسه ينزل فجأة وبسرعةٍ شديدة مترنِّحًا على الدرَج المُغطَّى بالسجاد والمؤدِّي إلى الصالة في الطابق السُّفلي. أيادٍ سريعة قد حلَّت الأصفاد عن يديه، وفَتَح البابَ المؤدِّي إلى الشارع شخصٌ كان من الواضح أنَّه يعرف تصميم المنزل من الداخل ومداخله ومخارجه، ووجد فرانك نفسه يقف في الشارع مرتبكًا بعض الشيء، وبجواره رجلان كانا يَرتديان ثياب المساء الرسمية.

كانا ما يَزالان يرتديان قناعَيهما. ولم يكن فيهما شيءٌ يُميِّز أيًّا منهما عن أيِّ رجلٍ عادي في الشارع. قال أحدهما مُشيرًا إلى اتجاه الشارع المؤدِّي إلى «فكتوريا»: «هذا طريقك يا سيد فيلو.»

تردَّد فرانك؛ إذ كان متحمِّسًا لرؤية نهاية هذه المغامرة. فأين ذهب الاثنان الآخران من هؤلاء الأربعة اليقظين؟ ولماذا تُرِكا في الخلف ولم يأتيا معهم؟ وماذا كانا يفعلان؟ ولا شكَّ أنَّ مُحرِّريه خمَّنا تلك الأفكار التي كانت تجُول بخاطره؛ إذ قال أحدهما: «صديقانا في أمان، لا تَقلق عليهما. سنكون مُمتنِّين لك أيُّها الشرطي إذا غادرتَ بأسرع ما يُمكِن.»

شَكَرهما فرانك فيلو، ثم استدار ومشى سريعًا في الشارع نحو وجهتِه. نظر بعد ذلك إلى الوراء، لكنَّ الرجلين كانا قد اختفَيا وسط الظلام.

(٥) إيرل فيرلوند

لقد استمتع الكولونيل بلاك بما حدث، لكنه قد انزعَج منه أيضًا، وقد أسفر المزيج بين هذَين التعبيرَين عن غضبٍ مُتجدِّد.

كان انزعاجه الحالي ناجمًا عن سببٍ آخر؛ فتلك المحكمة الغامضة، التي تفحَّصت أوراقه وظهرت من العدم ثم تلاشَت فيه مرةً أخرى، قد أزعجتْه، بل الحق أنها قد أخافتْه. غير أنَّ الشجاعة تَعتمِد في أساسها على حالة الضوء مع حالاتٍ مزاجية معيَّنة، أما الآن وقد صار قويًّا في ظلِّ الأمان الذي نثره نور الشمس الصباحي، ومع قناعته بعدم وجود دليلٍ ملموس يَستطيع الرجال الأربعة اكتشافه، فشَعَر بشجاعةٍ كبيرة.

كان يجلس إلى مائدة الإفطار مُرتديًا رداءه المنزلي الصباحي، ومعه السير آيزاك ترامبر. كان الكولونيل بلاك يُحب أطايب الحياة وملذات الطعام ووسائل الرفاهية التي تُوفِّرها الحضارة؛ ومن ثمَّ فقد كان فطوره وافرًا جدًّا. أمَّا النظام الغذائي الذي يتبعه السير آيزاك، فقد كان أبسط؛ إذ لم يكن فطوره يتكوَّن إلا من بعض مشروب البراندي والماء وتفاحة. كان السير قد سهر حتى وقت متأخِّر في الليلة الماضية ولم يكن في أفضل حالاته المزاجية؛ فسأله بصوتٍ هادر أجشَّ: «ما الخَطب؟»

رَمى بلاك برسالةٍ إليه، وسأله: «ما رأيك في هذا؟ هذه رسالة من شركة «تانجيس»، السماسرة، يطالبونني فيها بدفع عشرة آلاف جنيه، ويُلمِّحون إلى أنَّهم سيُعلنونني مُتخلِّفًا عن السداد في حالة عدم الدفع.»

وبهدوء تحدث السير آيزاك قائلًا: «ادفعه إذن.» وضحك الآخر.

قال بمزاح جارح: «لا تتفوَّه بالترهات؛ فأنَّى لي بعشرة آلاف جنيه؟ إنني شبه مُفلس، وأنت تعرف ذلك يا ترامبر؛ فكلانا في مركبٍ واحد. لديَّ مليونا جُنيه على الورق، لكنِّي لا أظنُّ أننا نستطيع معًا أن نجمع مائتي جنيه نقدًا إذا حاولنا.»

فأبعد البارونيت طَبَقه، وقال فجأة: «أنت لا تعني ما قُلته، أليس كذلك؟»

«بشأن النقود؟»

«بشأن النقود، نعم. لقد كِدتَ تُصيبني بنوبةٍ قلبية؛ فسوف نقع في ورطةٍ مُحرجة جدًّا يا صديقي العزيز، إذا نَفِدَت النقود الآن.»

ابتسم الكولونيل بلاك، وقال: «هذا بالضبط ما حدث. سواءٌ أكانت ورطةً أم لا، فقد وقعنا فيها. لقد أنفقتُ مبالغ تتجاوَز رصيدي البنكي وأصبحت مدينًا للبنك، ليس لديَّ في المنزل سوى مائة جنيه تقريبًا، وأعتقد أنَّ لدَيك مثلها.»

فقال الآخر: «إنني لا أملك حتى مائة فِلس.»

أضاف بلاك: «النفقات باهظةٌ للغاية، أنت تعرف كيف تظهر هذه الفرص فجأة. توجد فرصةٌ أو اثنتان تَلُوحان في الأفق، لكنَّنا لا نملك شيئًا سواهما. إذا استطعنا دَمجَ هذه «المسابك الشمالية»، فربما نُوقِّع شيكاتٍ بقيمة مائة ألف جنيه.»

«ماذا عن حيِّ المال؟»

قَطَع الكولونيل شريحةً من رأس بيضته دون أن يَرُد. وكان ترامبر على درايةٍ بالوضعِ في حيِّ المال مثلما كان بلاك يعرفه.

همهم السير آيزاك ثم قال: «علينا الحصول على نقودٍ من مكانٍ ما يا بلاك.»

فسأله الكولونيل بلاك: «ماذا عن صديقك؟» قال السؤال بلامبالاةٍ لكنَّه كان سؤالًا مدروسًا بإمعان.

سأله السير آيزاك بضحكةٍ جشَّاء: «أيُّ صديق؟ وأنا لا أعني أنَّ لديَّ أصدقاء كثيرين لدرجة أنَّك يجب أن تخصَّ أحدهم بالذكر. هل تقصد فيرلوند؟» أومأ بلاك بالإيجاب. فقال البارونيت: «فيرلوند، يا صديقي العزيز، هو الرجل الوحيد في هذه الدُّنيا الذي لا ينبغي أن أذهب إليه للحصول على المال.»

فقال بلاك متأمِّلًا: «إنَّه فاحش الثراء.»

فقال الآخر بجدية: «إنَّه فاحش الثراء، وقد يُضطرُّ إلى ترك أمواله لي.»

فسأله الكولونيل باهتمام: «أليس لديه وريث؟»

قال البارونيت بابتسامةٍ عريضة: «كان لديه ابنُ أخٍ مُفعمٌ بالحيوية والحماس هَرَب من المنزل، ويُعتَقَد أنَّه قُتِل في مزرعة مَواشٍ في تكساس. وعلى أيِّ حال، يَعتزم اللورد فيرلوند التقدُّم بطلبٍ إلى المحكمة لافتراض وفاة ابن أخيه.»

قال بلاك: «لا شكَّ أنَّ ذلك كان صدمةً شديدة للرجل العجوز.»

بدا أنَّ هذه العبارة قد رفَّهت عن السير آيزاك؛ إذ اتَّكأ على ظهر كرسيه وضحك ضحكةً طويلة صاخبة.

تحدث بعد ذلك قائلًا: «صدمة! يا صديقي العزيز، لقد كان يكره الصبيَّ أشد ممَّا يكره السم. إنَّها سُلالة فيرلوند مثلما تعلم، وهو من النسل الفرعي للسلالة. أما الصبي، فقد كان من الفرع الأصلي لسُلالة فيرلوند؛ ولهذا كان العجوز يَكرهه. أعتقد أنَّه جَعل حياته أشبه بالجحيم بعض الشيء؛ إذ كان يدعوه لقضاء عطلات نهاية الأسبوع معه كي يُضايقه، حتى يَئِس الصبي أخيرًا، وجَمع كلَّ مصروفه وهَرَب بعيدًا.

بعد ذلك، تحرَّى بعض أصدقاء العائلة عن مكانه حتى وجدوه، لكنَّ العجوز لم يتحرَّك قيد أنملة ليبحث عنه. وجدوا له عملًا لبضعة أشهُرٍ في محلٍّ طباعةٍ بلندن، ثم سافر خارج البلاد؛ إذ رحل إلى أمريكا بحرًا بتذكرةِ مُهاجِر.

تكبَّد بعض الأناس المهتمين عناء متابعة تحرُّكاته. واتضح أنَّه سافر إلى تكساس وعاش في مزرعة سيئة للغاية. وبعد ذلك، ثمة شخص مُوافقٌ لأوصافه قد أُرديَ قتيلًا بالرصاص في شجارٍ في الشارع. لقد كانت إحدى تلك البلدات الصغيرة القائمة على تربية المواشي، التي تراها مصوَّرةً بتفاصيل واضحة زاهية في دور السينما الكبيرة.»

سأله بلاك: «ومن الوريث؟»

«بخصوص اللقب، لا أحد. أمَّا المال، فمن المنتظر أن ترثَه أختُ الصبي. إنها فتاة جميلة جدًّا.» كان بلاك ينظر إليه بعينين نصف مُغلقتَين من انهماكه في التفكير. بَرَم البارونيت شاربه بإمعان، وكرَّر عبارته، كما لو كان يُحدِّث بها نفسه، قائلًا: «فتاة جميلة جدًّا.»

فسأله بلاك ببطء: «إذن، فأنت — آه — تحمل تطلُّعات مستقبلية؟»

سأله السير آيزاك وقد اعتدل في جلسته متصلبًا: «ما الذي تعنيه يا بلاك بحقِّ الجحيم؟»

قال الآخر: «أقصد ما قلته فقط؛ فالرجل الذي سيتزوَّج السيدة سوف ينال نصيبًا طائلًا من الغنيمة. ذاك هو الموقف، أليس كذلك؟»

قال السير آيزاك بتجهُّم: «شيءٌ من هذا القبيل.»

نهض الكولونيل وطوى منديل المائدة الذي كان يستخدمه بعناية. كان الكولونيل بلاك في أمسِّ الحاجة إلى النقود؛ فما كان ليهتمَّ كثيرًا برأيِ حيٍّ المال. أمَّا إذا اعترض ساندفورد، فستكون تلك مسألة أخرى، غير أنَّ ساندفورد كان رجلًا متعاونًا، وإن كان التعامل معه صعبًا بعض الشيء. وقف الكولونيل لحظةً ينظر إلى الأسفل نحو البارونيت متأمِّلًا إيَّاه.

تحدث قائلًا: «يا آيكي، لاحظتُ فيك مؤخرًا نزعةً إلى التعامل مع مصالحنا المشتركة على أنَّها شيءٌ قد يدعو المرء إلى الخجل منه. لقد اكتشفت فيك مَسحَةً غير متوقعة من الفضيلة، وأعترفُ بأنَّ ذلك يحزنني قليلًا.»

كانت عيناه الثاقبتان تُحدِّقان إلى الآخر بثبات.

فقال البارونيت بارتباك: «آه، ليس ذلك بشيء، لكنَّ الحقيقة أنني يجب أن ألتزم بتوقُّعات المجتمع.»

قال بلاك: «أنت مَدينٌ لي بالقليل.»

فقال الآخر على الفور: «أربعة آلاف، وهذا المبلغ مضمونٌ ببوليصة تأمين على حياتي قيمتها ٥٠ ألف جنيه.»

فصاح الكولونيل بصوتٍ مُتجهِّم غاضب: «تلك التي أدفعُ أقساطها، لكنِّي لم أكن أفكِّر في المال.»

تفرَّست نظراته المُحدِّقة المُستغرِقة في التفكير في البارونيت من رأسه إلى قدمه.

قال بعد ذلك بنبرةٍ فُكاهية: «خمسون ألف جنيه! يا عزيزي آيكي، إنَّ قيمتَكَ مقتولًا تساوي أكثر بكثير من قيمتك حيًّا.»

فارتجف البارونيت، وقال: «كُفَّ عن هذه النكات السخيفة.» وأنهى كأسه من البراندي في جرعةٍ واحدة.

فأومأ الآخر، وقال: «سأتركك لرسائلك.»

كان الكولونيل بلاك شخصيةً منظمة وأنيقة إلى حدٍّ لافت. سار في الشقة، وهو يرتدي رداءه المنزلي الصباحي الأنيق، إلى أن وصل إلى غرفة مكتبه وحده، ثم أغلق الباب خلفه تاركًا إيَّاه يستقر في موضعه إلى أن صدر عنه صوت الطقطقة.

كان منزعجًا من هذا التظاهر المُفاجئ بالفضيلة الذي أبداه شريكه؛ إذ لم يكن ذلك مُقلقًا فحسب، بل كان مُفزعًا. وكان بلاك يعي حقيقة الموقف دون أيِّ أوهام؛ لذا لم يكن يَثق بالسير آيزاك ترامبر أكثر ممَّا يَثق بأيِّ رجلٍ آخر.

كانت أموال بلاك هي التي ردَّت إلى البارونيت جزءًا من اعتباره وسمعته في المجتمع، وكانت أموال بلاك هي التي اشترَت خيول السباق وسدَّدت فواتير التدريب. وتَجدُر الإشارة هنا مرَّة أخرى إلى أنَّ إقدام بلاك على خدمة شخصٍ قد أُغلِقَت في وجهه أبواب المجتمع وأعرضت عنه أيادي الرجال المحترمين، لم يكن بدافع الإيثار وحبِّ الغير.

فرجلٌ منبوذ، أي السير آيزاك ترامبر، لم يكن ذا قيمة للكولونيل؛ حتى إنَّ بلاك قد لخَّص في إحدى المناسبات علاقته بالبارونيت بجملةٍ موجزة بارعة لا تُنسى؛ إذ قال: «كان أكثر المنازل التي تعاملت معها في حياتي خرابًا، لكنِّي أعدت تأثيثه وتزيينه، وها هو اليوم صار مقبولًا حتى وإن لم يكن جميلًا.»

وقد أثبت السير آيزاك أنَّه مُفيد جدًّا؛ إذ برهن أنَّه يستحق الأموال التي أُنفِقَت عليه ويستحق الحصَّة التي كان يتلقَّاها من أرباح العمل الذي تظاهَر بأنَّه يحتقره.

كان السير آيزاك ترامبر يَخشى بلاك. وقد كانت تلك الخشية هي نصف سرِّ السلطة التي كان الرجل الأقوى يُمارسها عليه. وحين كان يسعى أحيانًا إلى الهروب من الاستبداد الذي رسَّخه شريكه عليه، كان النوم يُجافيه لياليَ كاملة. غير أنه خلال الأسابيع القليلة الماضية، حدث شيءٌ قد حتَّم عليه أن ينأى بنفسه عن هذه الشراكة، وقد كان هذا «الشيء» متعلقًا بإشراق آفاقه المستقبلية.

كانت الليدي ماري كاسيليرس تُمثِّل آنذاك واقعًا أهمَّ ممَّا كانت تُمثِّله في أيِّ وقتٍ مضى؛ إذ اقترن بها ما وصفه بلاك بأسلوبه البذيء بأنَّه «غنيمة».

كان الإيرل العجوز قد لمَّح إلى السير آيزاك بأنَّ محاوَلات تودُّده إليها لن تكون مرفوضة. كانت الليدي ماري تعيش تحت وصايته، وربما لأنَّها لم تكن ترتعب من الرجل العجوز ذي الطبع الحاد المتقلِّب ونوبات نكده الحادة، ولأنَّها كانت تتعامل مع عواصف غضبه الفظيعة كما لو أنَّها غير موجودة أو لم توجَد قَط، كان الرجل العجوز الحاد يَحمل في قلبه القاسي والخبيث على ما يبدو، قبسًا من الاحترام تجاهها.

عاد السير آيزاك إلى غرفته منهمكًا في التفكير؛ إذ كان عليه أن يتخلَّص من سطوة بلاك، ولم يكن ضميره يُبدي سوى القليل جدًّا من المطالب بشأن تصرُّفاته، حتى إنَّه شَعَر بوجود مُبرِّرٍ لأن يحيد عن تلك القاعدة في هذه الحالة.

كان يشعر بأنَّه يتمتع بقدر من الفضيلة حين خَرَج من غرفته مرَّةً أخرى، وهو يرتدي ثيابًا مناسبة للتنزه في الحديقة، وكان في أفضل حالاته المزاجية حين التقى باللورد فيرلوند وابنة أخيه الجميلة التي تعيش تحت وصايته.

كان ثمة أناسٌ وَقِحون دائمًا ما كانوا يُشيرون إلى إيرل فيرلوند وابنة أخيه بكلمتي «الجميلة والوحش»، كانت فتاةً طويلة تحمل السمات الإنجليزية المعتادة من قامةٍ مُنتصِبة وبشرة صافية وعينين لامعتين. وكان لوجهها جاذبية خاصة أضفاها عليه شعرها الكستنائي الكثيف وحاجباها المقوَّسان وذقنها الصغير البارز. كانت تتجاوَز قامة الرجل العجوز برأسها وكتفَيها تقريبًا وهي واقفةٌ بجواره. أمَّا فيرلوند، فلم يكن جميلًا قَط. وقد جعل العُمرُ تجاعيده القاسية أشد قسوة، ولم يكن في وجهه تجعيدةٌ واحدة لا تبدو كأنَّها منحوتة من الجرانيت الصلب؛ إذ كانت ثابتةً جدًّا وراسخة وجافة للغاية.

كان فكُّه السُّفلي بارزًا، وكانت عيناه غائرتين. وكان يترك لديك انطباعًا غريبًا حين تلتقيه لأوَّل مرَّة، وهو أنَّ فكه مألوفٌ لك منذ فترةٍ أطول من تلك التي تألَفُ فيها عينَيه.

ألقى تحيَّةً خاطفة على السير آيزاك، ثم قال له مبتسمًا: «اقعد يا آيكي.» كانت الفتاة قد أعطت البارونيت إيماءةً طفيفة للغاية، والتفتَت فورًا إلى الحشد المار بالقرب منهم.

تساءل السير آيزاك قائلًا: «ألن تمتطيَ الخيل اليوم؟»

فقال الرجل النبيل: «بلى، فأنا أمتطي الآن حصانًا حربيًّا رَماديًّا أقود به لواءً في سلاح الفرسان.»

كان حسُّه الفكاهي يتَّخذ هذه الشاكلة الواحدة، وكان يُقدِّم إجاباتٍ على أسئلةٍ غير ضرورية. وفجأةً عَبَس وجهه، وبعدما ألقى حوله نظرةً خاطفة ليرى ما إذا كان انتباه الفتاة ملتفتًا إلى وجهةٍ أخرى، انحنى نحو السير آيزاك وقال بصوت خفيض: «ستُعاني بعض الصعوبة معها يا آيكي.»

فقال السير آيزاك بلا مبالاة: «إنني مُعتاد على الصعوبات.»

قال الإيرل: «لا أقصد هذه الصعوبات التي تتحدث عنها. لا تكن أحمق يا آيكي، لا تتظاهَر بأنَّك ذكي. إنني أعرفُ — هذه الصعوبات — فأنا مضطرٌّ إلى العيش معها في بيتٍ واحد. إنَّها شيطانةٌ عنيدة، لا يوجد وصفٌ آخر أنسب لها من هذا.»

نَظَر السير آيزاك حوله بحذر، وقال: «أيوجد شخصٌ آخر سواي؟»

رأى السير حاجبي الإيرل يَنكمشان وعينَيه تلمعان وهما تنظران وراءه، فاتَّبع اتجاه نظرهما، ليرى قامة شابٍّ يقترب منها بابتسامةٍ تُنيرُ مُحيَّاه كله.

لم تكن هذه الابتسامةُ موجَّهةً إلى الإيرل ولا رفيقه، بل كان جليًّا كالشمس أنَّها تقصد الفتاة، التي أومأت للوافدِ الجديد، بشفتَين قد انفرجتا بعض الشيء ونورٍ جديد في عينيها، مُشجِّعةً إيَّاه على التقدم نحوهم.

وهنا اكفهرَّ وجه السير آيزاك اكفهرارًا مُروِّعًا. وتمتمَ قائلًا بغضب: «الرجل اللعين.»

قال هوريس جريشام للإيرل: «صباح الخير، أتتنزَّه؟»

فزمجر الرجل العجوز قائلًا: «لا، بل أستحم، أصطاد من أعماق البحر، أسافر على متن طائرة. ألا ترى ما أفعله؟ أنا جالس هنا؛ تحت رحمة كلِّ حمارٍ يأتي ليطرح أسئلته المخبولة عليَّ.»

ضحك هوريس. وكان مستمتعًا بهذه الدُّعابة حقًّا. كانت تلك اللمسة من الحسِّ الفكاهي المشاكس لدى الرجل العجوز هي الشيء الوحيد الذي أنقذه من أن يكون بغيضًا تمامًا. ودون مزيدٍ من الشكليات الرسمية التقليدية، التفت الشاب إلى الفتاة، وقال: «كنتُ أتوقَّع أن أجِدَكِ هنا.»

فسألته: «كيف حال مُهرتك الرائعة؟» ألقى نظرة متبسِّمة على ترامبر.

وقال: «آه، ستتمتع باللياقة الكافية في يوم السباق. سوف نجعل «تيمبولينو» يعدو بسرعة.»

قال السير آيزاك بغضب: «حصاني سيَهزم مُهرتك، أينما كان مركزاهما النهائيان في السباق، وأراهن على ذلك بألف جنيه.»

فقال الشاب: «لا أودُّ أن آخذ من مالك. أشعرُ بأنَّ ذلك سيكون ظُلمًا لك، وظُلمًا لـ... صديقك.»

قال الكلمات الأخيرة بلا مبالاة، لكنَّ السير آيزاك أدرك نبرة العداء الكامنة فيها، وقرأ في هذه السكتة القصيرة التي سبقتْها إيحاءً بأنَّ هذا الشاب المُبتهِج يعرف عن شئونه أكثر بكثير ممَّا كان السير راغبًا في الإفصاح عنه آنذاك.

قال البارونيت بغضب: «أنا لا يَعنيني أمر صديقي. كلُّ ما في الأمر أنني عرضتُ عليك عرضًا رياضيًّا عادلًا نزيهًا. وإذا لم تكن ترغب في قبوله بالطبع ...» وحينها هزَّ كتفيه.

فقال الآخر: «آه، سأَقْبله بالتأكيد.» والتفت بتروٍّ إلى الفتاة.

سأل فيرلوند صديقه وقد ارتسمت على شفتَيه ابتسامة عريضة بسبب الإحراج الذي تعرَّض له: «إلام يلمح جريشام؟»

قال السير آيزاك: «لم أكن أعرف أنَّه صديقك، أين تعرفت عليه؟»

ابتسم اللورد فيرلوند كاشفًا عن أسنانه الصفراء، وقال: «حيث يجد المرء معظم معارفه الذين يبغضهم؛ في الباحة المُسيَّجة المخصصة للأعضاء في نادي الخيول. غير أنَّ رياضة السباقات صارت تحظى بالاحترام إلى حدٍّ لعين يا آيكي، حتى إنَّ الالتقاء بشخصٍ

حقيقي من نُخبة البُغَضاء صار صعبًا. أتعلم ماذا وجدتُ في آخر سلسةِ سباقاتٍ ذهبت إليها؟ كانت غرفة احتساء الشاي مكتظةً عن آخرها حتى إنك لا تستطيع الدخول من أبوابها، بينما كانت الحانة فارغة. إنَّ سباقات الخيل تَنحدِر إلى الحضيض يا آيكي.»

كان فيرلوند يُمارس هوايته المُفضَّلة آنذاك، وكان السير مُتململًا؛ إذ كان من الصعب صَرفُ الرجل العجوز إلى شيء آخر حين يَنخرِط في الثرثرة الحافلة بالذكريات.

واصل الإيرل كلامه قائلًا: «لا يُمكن للمرء أن يراهن الآن مثلما كان يراهن في الماضي. لقد راهنتُ ذات مرة على حصان بخمسة آلاف جنيه بنسبة ربحٍ بلغت ٢٠ إلى ١، دون تغيير الثمن. أين يستطيع المرء فعل ذلك الآن؟»

قالت الفتاة للشاب: «هيا نتمشَّى قليلًا.»

كان اللورد فيرلوند شديد الانهماك في تذمُّره من حال سباقات الخيل في المجتمع لدرجة أنَّه لم يلاحظ الشاب والفتاة وهما ينهضان ويتمشَّيان بعيدًا.

غير أنَّ السير آيزاك قد رآهما، وكان سيُقاطع ثرثرة الآخر، لولا خوفه الشديد من فظاعة سوء مزاج الرجل العجوز.

قال هوريس للفتاة: «لا أفهمُ كيف يستطيعُ عمُّكِ تحمُّل هذا الوغد.»

ابتسمت الفتاة. وقالت بشيء من السخرية: «آه، إنه يستطيع «تحمُّله» بالطبع؛ فصبرُ العم على البُغَضاء مضرب للأمثال.»

قال السيد هوريس جريشام: «إنَّه ليس صبورًا عليَّ.»

فضحكت، وقالت: «هذا لأنَّك لستَ بغيضًا بالدرجة الكافية؛ إذ يجب أن يكرهك كل شخصٍ آخر في العالم قبل أن يُحبَّك العم.»

فسألها بلهفة: «وهذا لا ينطبق علي، أليس كذلك؟»

تورَّد وجهها قليلًا، ثم قالت وهي تنظر إليه نظراتٍ خاطفة قد غطَّتْها رموشُها: «بلى، لا أظنُّ أنَّ هذا ينطبق عليك؛ فأنا مُتيقنة تمامًا من أنَّك شابٌّ لطيف وودود جدًّا. لا بد أنَّ لديك أصدقاء كُثُرًا، أمَّا آيكي، فلديه مثل هؤلاء الأصدقاء المريبين. لقد رأيناه منذ بضعة أيام في «بليتز» يتغدَّى مع رجلٍ لا يُطاق بتاتًا، هل تعرفه؟»

فهزَّ برأسه. وقال فورًا: «لا أعرف أيَّ شخصٍ لا يُطاق بتاتًا.»

فسألته: «شخصٌ يُدعى الكولونيل بلاك؟»

أومأ وأجاب قائلًا: «أعرفه.»

سألته: «مَن هذا المدعو بلاك؟»

«إنَّه كولونيل.»

«في الجيش؟»

فقال هوريس بابتسامة: «ليس في جيشنا. إنَّه من ذلك النوع الذي يُسمُّونه في أمريكا «كولونيل مزمار»، وهو، حسنًا، إنَّه صديق السير آيزاك ...» تردَّد هوريس بعدما استهلَّ هذه الجملة الأخيرة.

قالت: «هذا لا يُخبرني بالكثير، باستثناء أنَّه لا يُمكن أن يكون لطيفًا جدًّا.»

فنظر إليها بلهفة، وقال: «أنا في غاية السرور لأنَّك قُلتِ ذلك. كنت خائفًا ...» سَكَت مرَّة أخرى، ورمقته هي بنظرة خاطفة.

كرَّرت كلمته متسائلة: «كنتَ خائفًا؟»

لم تكن رؤية هذا الشاب الرَّزين الرابط الجأش مُحرَجًا مثلما كان آنذاك بالأمر المُعتاد. واصل حديثه بقليلٍ من التلعثُم وقال: «حسنًا، يسمع المرء أشياء، شائعات. إنني أعرفُ حقيقة هذا الوغد وأعرف مدى رقتك، الحقيقة، يا ماري، أنني أحبك أكثر من أيِّ شيءٍ في الحياة.»

وحينئذٍ، شحب لونها وارتجفت يداها؛ إذ لم تكن تتوقع قَط تصريحًا كهذا وسط حشدٍ من الناس. وقد جعلتها هذه المفاجأة عاجزةً عن الرد. نظرت إلى وجهه، وقد كان شاحبًا أيضًا.

تمتمَتْ قائلة: «لا ينبغي أن تفعل ذلك في هذا الوقت من الصباح.»

(٦) الشرطي وآنسة من الطبقة الراقية

كان فرانك فيلو يضرب كرة ملاكمة بعُنفٍ في إحدى الغرف العلوية في بيته الصغير البسيط، وقد كان ذلك لسببٍ وجيه.

لقد كان «يأخذ» من الكرة حقَّه في جميع ما كان لدَيه من مظالم تجاه تلك الأمور الحقيرة التي تُزعجه في الحياة.

فالرقيب جوردن كان يُزعجُه بعشرات الأشكال من الأمور المزعجة التافهة. كان فيلو يُكلَّف بأقلِّ المهام تجانسًا مع طباعه، ويُثقَل بالعمل في نقاط المراقبة إلى حدٍّ أصابه بالكآبة، وبدا أنَّه يُكلَّف بأكثر من نصيبه العادل من العمل الإضافي. ثم إنه كان مُنشغلًا في الوقت نفسه بالهمِّ الإضافي المتمثِّل في مراقبة أعمال منظمة بلاك. وقد كان بوسعه، إذا شاء، أن يُزيل جميع القيود التي كانت تُعيق تحرُّكاته، لكنَّ هذا لم يكن من دأبه. وقد كان إحباط خطط بلاك شغفًا مُستحوذًا على فرانك، وإذا شعر بأي شغفٍ آخر من المُمكن أن يستحوذ عليه بهذا القدر، فإنه كان يَرتئي أن يَكبحه، مؤقتًا.

تعرَّف فرانك إلى ابنة المليونير في مشهدٍ عنيف، والْتقى بها لاحقًا في لقاءاتٍ شهدت خفقان قلب أحد طرفيها وقدرًا غير قليلٍ من الارتباك لدى طرفِها الآخر؛ فقد بدأ امتنانها وإعجابها على متن سيارةٍ مُضطربة جامحة ذات مقعدَين ومكابح مُعطَّلة، وازداد في الطريق عَبر حديقة الحيوانات، التي أرسلت إليه تذكرتها ليلتقيا فيها يوم الأحد إذ كانت مُتلهِّفةً على معرفة شخصه الحقيقي بعيدًا عن عمله الشرطي.

كان يُراودها بعض الخوف من أن يخيب أملها. ذلك أنَّ شُرطيًّا بطلًا في زيِّه الرسمي ذا وجهٍ مُهندَم بإحكامٍ بين حافة الخوذة وحزام الذقن قد يكون أقل بطوليةً في ثيابٍ خاصة من اختياره، فضلًا عن ربطات العنق والأحذية.

غير أنها قد هيأت نفسها للمهانة المتمثِّلة في اكتشاف أنَّ الشخص الذي أنقذ حياتها، يمكن أيضًا أن يكون ممَّن يرتدون رابطة عنق ذات عقدة جاهزة. كانت تَشعُر بخجل شديد، ولازَمت المماشي المهجورة الخاوية في حديقة الحيوانات إلى أن وجدها رجلٌ مُهذَّب ذو مظهرٍ حسنٍ جدًّا وثيابٍ مثالية لا يُمكن انتقادها، ولا تُوحي بأنَّه صبيُّ جزَّار في وليمة احتفالية ولا سبَّاك في جنازة.

لم تكد تُريه الحيوانات الحبيسة في قفصَين بالضبط حتى تولَّى هو إرشادها وأخبرها بأشياء عن حيوانات مُفترسَة برية لم تكن تعرفها من قبل. شرح لها الفارق الدقيق بين خمسة أنواعٍ مُختلِفة من الوَشَق، وسَرَد لها حكاياتٍ مُثيرة قصيرة عن مجموعة حيوانات الغابة خطفت أنفاسها من شدة الإعجاب. وبعد ذلك كله، اصطحبها إلى آخر مكان قد يَخطر ببال المرء؛ إذ أخذها إلى الغُرَف التي تُعالج فيها الحيوانات المريضة والعرجاء حتى تستردَّ عافيتها. واتَّضح أنَّ إرسالها التذكرة إليه لم يكن ضروريًّا؛ إذ كان زميلًا في الجمعية المَلَكية. وكانت الحديقة تضم أكثر بكثيرٍ ممَّا يُمكِن مُشاهدته في يومٍ واحد.

ذهبت الفتاة معه إلى هناك مرارًا وتكرارًا، وكانت تركب معه الخيل على أراضي «هامبستيد هيث» في الساعات الأولى من الصباح. استنتجت أنَّه كان يُؤجِّر حصانه، مع أنَّه لم يكن يَمتطي الحصان نفسه على الدوام.

سألته مازحةً ذات صباح: «كم حصان لديك في حظيرة خيولك؟»

فقال بلا تردُّد «ستة» وأضاف على عَجَل: «أمارس الصيد بالخيول كثيرًا في الموسم ...»

سكَت بعد ذلك إذ أدرك أنَّه قد وقَعَ في ورطة أكبر.

قالت مُتلعثمة: «لكنَّك شرطي، فردٌ من قوات الشرطة! أعني، سامِحني على وقاحتي.»

فاستدار نحوها وهو على سرجه، وكانت عيناه تتلألآن.

قال: «لديَّ قليلٌ من الأموال الخاصة المستقلة عن راتبي. فأنا لم أُصبِح شرطيًّا إلا منذ حوالي اثني عشر شهرًا فقط، وقبل ذلك كنت ... لم أكن شرطيًّا!»

لم يكن لبقًا في التعبير، وقد بدا مُحرَجًا آنذاك، فغيَّرت الفتاة الموضوع، وهي تحمل في داخلها تساؤلات وسرورًا لا يُصدق.

كان تَناقُضًا منها أن تُدرك بعد ركوب الخيل معه أنَّ هذه اللقاءات فعلٌ خاطئ. أولم تكن كذلك حتى قبل ركوب الخيل؟ وهل كان الركوب مع رجلٍ قد أعلن أنه من طبقتها الاجتماعية أسوأ من الركوب مع شرطي؟ كانت تعرف أنَّ لقاءه أمر خاطئ وكانت تفعله

على أيِّ حال، وهذا هو المكان الذي صار فيه الشرطي فيلو والآنسة ساندفورد يُنادي كلٌّ منهما الآخر باسمَي «فرانك» و«ماي». لم يكن هناك من شيء سرِّي في لقاءاتهما.

كان ثيودور ساندفورد رجلًا ديمقراطيًّا للغاية بالرغم من عناده. كان يَمزح مع ماي بشأن شرطيها، ويبدي تعليقاتٍ مُضجِرة على الزيارات المُختَلَسة إلى مطبخه الفخم بحثًا عن فطيرة الأرانب، ومن بين هذه الدعابات التافهة ظهرت مسألة استمرار فرانك في الشرطة. إذا كان فرانك قد اعترف بأنَّه يملك موارد مالية مُستقلة، فلماذا يظلُّ شرطيًّا سخيفًا إذن؟ تطوَّرت المسألة من مجرد دعاباتٍ وتعليقاتٍ مازحة إلى نقاشٍ شديد الجدية، ثم إلى تقديم إنذارٍ أخير كُتِب بغضبٍ شديد، وأرسِل بغضبٍ شديد، ونُدِم عليه أيضًا بغضبٍ شديد.

رَفَع ثيودور ساندفورد ناظرَيه من فوق طاولة الكتابة ناظرًا إلى ابنته بابتسامةٍ تنم عن استمتاعه.

وسألها: «إذن، فأنتِ غاضبةٌ حقًّا من شُرطيِّك، أليس كذلك؟»

غير أنَّ الأمر لم يكن مَزْحة عند الفتاة. وظلَّ وجهها جامدًا بإصرارٍ شديد.

هزَّت كتفيها الجميلتين قائلةً: «يستطيع السيد فيلو أن يفعل ما يشاء بالطبع؛ فليست لديَّ أي سُلطةٍ عليه.» لم يكن هذا صحيحًا «لكنَّ المرء يحقُّ له أن يطلب من أصدقائه ...»

التمعَت دموعُ الإهانة في عينَيها، فكفَّ ساندفورد عن مزاحه. نَظَر إلى الفتاة بتدقيقٍ وقَلق. كانت أمها قد ماتت حين كانت ماي طفلة؛ لذا كان دائمًا ما يبحث عن أيِّ علامةٍ لديها على المرض الفتَّاك الذي ذهب بالمرأة التي كانت هي كل ما لديه.

قال بحنان: «يا أعزَّ ما لديَّ! يجب ألَّا تقلقي من شُرطيِّك أو تنزعجي منه؛ فأنا على يقينٍ من أنَّه سيفعل أيَّ شيء في العالم من أجلك، وإن كان نصف إنسان فحسب.» ثم قال لها بقلق: «لا تبدين بخير.»

فابتسمت. ثم قالت وهي تضع ذراعها حول رقبته: «أنا مُتعبةٌ الليلة يا أبي.»

قال لها: «أنتِ مُتعبةٌ دائمًا هذه الأيام. وهذا ما شعر به بلاك حين رآكِ منذ بضعة أيام. لقد أوصى بطبيبٍ بارع جدًّا، لديَّ عنوانه هنا في مكانٍ ما.»

هزَّت رأسها بقوة. وقالت بنبرةٍ حازمة: «لا أريد زيارة أطباء.»

«لكن ...»

توسَّلت إليه وقد صارت تضحك آنذاك: «أرجوك، أرجوك! كُفَّ عن ذلك!»

سمعا قرعًا على الباب، ودَخَل أحد الخُدَّام، وأعلن قائلًا: «السيد فيلو يا سيدتي.»

نظرت الفتاة حولها بسرعة، وسألته: «أين هو؟» رأى أبوها التورُّد الذي اعتلى وجنتَيها وهزَّ رأسه بارتياب.

فقال الخادم: «إنَّه في غرفة الضيوف.»

فالتفتت إلى أبيها قائلة: «سأنزل يا أبي.»

أومأ بالموافقة، وقال لها: «أظنُّكِ ستَجِدين أنَّه ليِّن العريكة جدًّا، بالمناسبة إنَّه رجلٌ مُهذَّب.»

فأجابت بازدراء متعالٍ: «رجلٌ مُهذَّب يا أبي! بالطبع إنَّه رجلٌ مهذب!»

فقال السيد ثيودور ساندفورد بتواضُع: «آسفٌ على أنني قُلتُ ذلك.»

كان فرانك يقرأ رسالتها — الرسالة التي جعلتْه يأتي إليها — حين دَخَلت عليه. أخذ يدها وأمسكها هُنيهة، ثم تطرَّق إلى صميم الموضوع مباشرة. كان الأمر صعبًا جدًّا؛ إذ إنها لم ترُقْ له قط مثلما راقت له في تلك الليلة.

بعض النساء مَفاتنهن نادرة الوجود وجمالهن استثنائي للغاية في جوهره حتى إنَّه يُعجِز المرء عن إيجاد وصفٍ مناسب له. كانت ماي ساندفورد واحدة من هؤلاء. ولئن كان ثمة ملمح واحد يجعل منها امرأة؛ فهو فمها بلا شك. كان ثمة شيءٌ في توازن رأسها، في طريقة تصفيف شعرها، في نقاء بشرتها وتورُّدها الشبيه بلونِ الخوخ، في وضعية كتفيها، في ليونة جسمها، في مشيتِها الخفيفة الواثقة. لقد أضفت كلٌّ من سماتها المميزة شيئًا على جمالها الكلي.

كانت ماي ساندفورد فتاةً جميلة. وكانت قبل ذلك طفلةً جميلة، ولم تمرَّ بأيِّ انتقالٍ من الجمال إلى المظهر العادي أو من الحُسن إلى الشكل الأخرق. كان يبدو كما لو أنَّ كلًّا من سنين عمرها أسهمت بنصيبٍ في خلق الأنثى المثالية.

قال لها فيلو وهو يمدُّ الرسالة إليها: «أنت لا تقصدين هذا بالطبع؟ هذا ليس رأيك؟» فحَنَت رأسها.

ثم قالت بنبرةٍ خفيضة: «أرى أنَّ ذلك سيكون أفضل؛ فأنا لا أظن أنَّ بينَنا اتفاقًا كبيرًا جدًّا في، في الأمور. لقد كُنتَ بشعًا بعض الشيء مؤخرًا يا سيد فيلو.»

اعتلى وجهه شحوبٌ شديد، وقال بهدوء: «لا أتذكَّرُ أنني كنت بشعًا جدًّا.»

أضافت بنبرةٍ منفعلة مرتجفة: «من المستحيل أن تظل شرطيًّا.» واقتربت منه ووضعت يديها على كتفيه، وقالت: «ألا ترى، فحتى أبي يَمزح ساخرًا من ذلك، وهذا فظيع. أنا متيقنةٌ من أنَّ الخُدَّام يتحدثون، وأنا لستُ متعاليةً في الواقع ...»

أرجَع فرانك رأسه إلى الوراء وضحك.

وقال لها: «ألا ترَين يا عزيزتي أنني لا يُمكن أن أكون شرطيًّا إلَّا إذا كان يوجد سببٌ وجيه لذلك؟ أؤدِّي هذا العمل لأنني وعدتُ رئيسي في العمل بأنني سأُؤدِّيه.»

فقالت وهي مُتحيرةٌ جدًّا: «لكن، لكن إذا تركتَ العمل في الشرطة، فلن يكون لك رئيس.»

قال بصراحة: «لا أستطيع ترك عملي.» فكَّر لحظةً ثم هزَّ رأسه ببطء، وقال: «أنتِ تَطلُبين منِّي أن أخلف وعدي. تطلبين منِّي أن أحدِثَ ضررًا أكبر من ذلك الذي سأبطله. لن تفرضي هذا الطلب عليَّ، ولن تستطيعي ذلك.»

تراجعت قليلًا، ورفعت رأسها، وضمَّت شفتيها ضمَّة عابسة طفيفة للغاية، ثم قالت: «أفهم، لن تُنفِّذ طلبي.» مدَّت يدها وقالت: «لن أطلب منك تقديم أيِّ تضحيةٍ أخرى أبدًا.»

فأخذ يدها، وأمسكها لحظةً بإحكام، ثم أفلتها. ومن دون أيِّ كلمةٍ أخرى، غادرت الفتاة الغرفة. انتظر فرانك لحظةً لعلَّها تندم على تصرفها وتعود، لكنَّ الباب ظلَّ مُغلقًا.

فغادر المنزل وقد غمره شعور طاغٍ بالاكتئاب.

(٧) الطبيب إيسلي يلتقي رجلًا

كان الطبيب إيسلي في غرفة مكتبه يُجري فحصًا دقيقًا جدًّا بالميكروسكوب. كانت الغرفة مُظلمة إلا من الضوء الذي انبعث من مصباحٍ كهربائي قوي موجَّه نحو عاكس الجهاز. ومن الواضح أنه كان قد اكتفى بما اكتشفه على شريحة الميكروسكوب؛ إذ إنه سرعان ما أزال الشريحة الزجاجية ورماها وسط النار وأضاء الأنوار.

أخذ من فوق الطاولة قصاصةً من إحدى الصُّحُف وقرأها. أثارت تلك القصاصة اهتمامه لأنَّها كانت تتضمَّن خبرًا عن وفاة السيد أوجستس فانكس المفاجئة.

ورَد في الخبر: «كان الرجل المُتوفَّى مُنشغلًا مع الكولونيل بلاك، الخبير المالي الشهير، في مناقشة تفاصيل الدمج الجديد لبعض شركات الحديد، حين سَقَط فجأةً وفارق الحياة، قبل أن تصل إليه الإسعافات الطبية. ويُعتقَد بأنَّ الوفاة قد حدثت جراء توقف القلب.»

لم تُجرَ أيُّ تحقيقات بشأن الوفاة؛ إذ كان قلب فانكس ضعيفًا في الواقع، وكان يَتلقَّى رعاية طبية من اختصاصيٍّ كان يَكتشِف أعراض المرض من أهون داعٍ يجعله يشتبه فيها؛ وذلك لتخصُّصه في مشكلات القلب.

كانت هذه هي نهاية فانكس إذن. أومأ الطبيب رويدًا. نعم، كانت هذه نهايته. والآن؟ أخذ رسالةً من جيبه. كانت تلك الرسالة موجَّهةً إليه ومكتوبةً بخط ثيودور ساندفورد الذي كان يبدو مُنحنيًا ومتراميًا بعشوائية.

كان إيسلي قد التقى به في بدايات المعرفة بين ساندفورد وبلاك حين كانا على وفاق؛ إذ كان الخبير المالي قد أوصى رئيس مصنع الحديد به، وكان الطبيب يعالجه من عدة أمراض. كان ساندفورد يصفه بلقب «طبيبي القادم من الضواحي».

قال ساندفورد في رسالته: «مع أنني لا أتَّفق مع صديقنا بلاك، وقد صار بيننا الآن ما صَنَع الحدَّاد، فأنا متيقنٌ من أن ذلك لن يؤثِّر في علاقتي بك، لا سيما وأنَّني أرجو منك أن تفحص ابنتي.»

تذكَّر إيسلي أنَّه رآها ذات مرَّة؛ فتاةً طويلة ذات عينين تتراقَصان بالضحك وبشرةٍ بيضاء كالحليب ووجنتَين حمراوَين كالورود.

وضع الرسالة في جيبه، ودخَل عيادته الصغيرة، ثم أغلق الباب. وحين خرج، كان يرتدي مِعطفَه الطويل ويحمل حقيبة كتف صغيرة. كان لديه من الوقت ما يفي بالكاد ليَلحق بقطارٍ متجه إلى حيِّ المال في لندن، وفي الساعة الحادية عشرة، وجد نفسه في قصر ساندفورد.

قال رئيس مصنع الحديد بابتسامةٍ وهو يُحيِّي زائره: «أنت رجلٌ غريب أيُّها الطبيب. هل تزور معظم مرضاك ليلًا؟»

فأجاب الآخر ببرود: «مرضاي الأرستقراطيون.»

قال الآخر: «يا لَتعاسة ما أصاب فانكس المسكين! كنت أتعشَّى معه منذ بضعة أسابيع. هل أخبَرك بأنَّه الْتقى في أستراليا رجلًا يعرفك؟»

مرَّ ظلٌّ من الانزعاج على وجه الآخر، وقال بفظاظة: «دعنا نتحدث عن ابنتك. ما خطبها؟»

ابتسم رئيس مصنع الحديد بإحراج. وقال: «ما من مشكلة محدَّدة، لكنَّك تعلم، يا إيسلي، أنَّها ابنتي الوحيدة، وأحيانًا أتصوَّرُ أنَّها مريضة. يقول لي طبيبي في نيوكاسل إنَّها لا تُعاني أيَّ مشكلة.»

قال إيسلي: «أفهم ذلك. أين هي؟»

اعترف الأب قائلًا: «إنَّها في المسرح. لا بُدَّ أنَّك تراني أحمق جدًّا لأنَّني أحضرتُك إلى المدينة من أجل الحديث عن صحة فتاةٍ تُوجد في المسرح، لكنَّ شيئًا ما قد أزعجها للغاية في الليلة الماضية، وقد أسعدني أن أراها اليوم تُقبِل على الحياة إقبالًا كافيًا ليجعلها تذهب إلى مسرحيةٍ فكاهية موسيقية.»

فقال الآخر: «معظم الآباء حمقى. سأنتظر حتى تأتي.» تمشَّى إلى النافذة ونَظَر إلى الخارج، ثم سأل فجأة: «لماذا تخاصمت مع بلاك؟»

عَبَس الرجل الأكبر سنًّا، وقال باقتضاب: «العمل. إنَّ بلاك يضعني في مأزق. لقد ساعدته منذ أربع سنوات ...»

فقاطعه الطبيب قائلًا: «لقد ساعدك هو أيضًا.»

فقال الآخر بعناد: «ليس بقدر ما ساعدته. لقد أعطيتُه فرصته. طَرَح أسهم شركتي للبيع في طرحٍ أوَّلي وقد رَبِحت، لكنَّه رَبِح أكثر. والآن توسَّع العَمَل توسُّعًا هائلًا جدًّا لدرجة أنَّ مشاركتي فيه لن تعود عليَّ بالأرباح لا شيءَ سيُغيِّر قراري النهائي.»

قال إيسلي وهو يَمشي مرَّة أخرى نحو النافِذة: «أفهم ذلك.»

كان الطبيب يعتقد أنَّ أمثال هذا الرجل يجب أن تُكسَر شوكتهم. تُكسَر! ولم يكن لذلك سوى سبيل واحد؛ ابنته. لم يكن بوسع الطبيب أن يفعل شيئًا الليلة، وقد كان هذا واضحًا، لا شيء.

قال: «لا أظنُّ أنني سأَنتظِر ابنتك. ربما سأزورك مساء غد.»

فقال الآخر: «آسفٌ جدًّا ...»

لكنَّ الطبيب أسكته قائلًا: «لا داعيَ إلى الأسف. ستجد رسوم زيارتي مُدرجةً في فاتورتي.»

ضحك رئيس مصنع الحديد وهو يوصله إلى الباب. وقال: «أنت بارع في الشئون المالية بقدر براعة صديقك تقريبًا.»

فقال الطبيب باقتضاب: «تقريبًا.»

أنزلته سيارة الأجرة التي كانت تنتظره خارج المنزل في مفترق طرق «تشارينج كروس»، واتجه مباشرةً إلى أقرب مكتب اتصالاتٍ واتصل بفندق «تيمبرانس» في «بلومزبري». كان ثمة ما يدعوه إلى أن يرغب في لقاء شخص يُدعى السيد ويلد كان يعرفه في أستراليا.

لم يجد صعوبةً في إيصال الرسالة؛ إذ كان السيد ويلد في الفندق. انتظر الطبيب على الهاتف ريثما يوصله الخادم به. وبعد وقتٍ قصير، سمع صوتًا عبر الهاتف يقول:

«أنا ويلد، هل تريدني؟»

«نعم، اسمي كول. كنتُ أعرفك في أستراليا. لديَّ رسالةٌ إليك من صديق مشترك. هل تستطيع لقائي الليلة؟»

«نعم، أين؟»

كان الطبيب إيسلي قد قرَّر مكان اللقاء سلفًا. قال: «خارج المدخل الرئيسي للمتحف البريطاني. يوجد القليلُ من الناس هناك في ذلك الوقت من الليل، وبذلك ستقلُّ احتمالية أن تتوه منِّي.»

سكت الطرف الآخر هُنيهةً، ثم قال: «جيد جدًّا، في غضون ربع ساعة؟»

«سيُناسبني ذلك تمامًا، إلى اللقاء.»

أقفل السماعة، وبعدما ترك حقيبته في غرفة الأمانات بمحطة «تشارينج كروس»، انطلق سيرًا إلى شارع «جريت راسل ستريت». لم يكن سيستقل سيارة أجرة؛ إذ كان ينبغي ألَّا يترك خلفه دليلًا من ذلك النوع. فما كان بلاك ليتقبل ذلك. ابتسم حين خَطَرت بباله تلك الفكرة. كان شارع «جريت راسل ستريت» مهجورًا، إلا من تيار مستمر من سيارات الأجرة التي تمر جيئةً وذهابًا، وبعض المشاة الذين يمرُّون من حينٍ إلى آخر. وَجَد الطبيب رجُله منتظرًا. كان طويلًا وهزيلًا بعض الشيء، وكانت تبدو في وجهه سيماء المثقَّفين المُهذَّبين.

قال الرجل وهو يتقدَّم نحو الآخر الذي توقَّف آنذاك: «الطبيب إيسلي؟»

«هذا ...» وحينها سَكَت إيسلي فجأة، وقال بصرامة: «اسمي كول. ما الذي يجعلك تظن أنني إيسلي؟»

قال الآخر بهدوء: «صوتك. ومع ذلك، لا يُهمُّني ما تُسمِّي به نفسك، لقد أردتُ لقاءك.»

قال إيسلي: «وأنا أيضًا.»

سارا متجاورَين حتى وصلا إلى شارعٍ جانبي.

وحينها سأله الطبيب: «ماذا تُريد مني؟»

ضَحِك الآخر.

وقال: «أردتُ رؤيتك. إنك لا تُشبه إيسلي الذي كنت أعرفه إطلاقًا. لقد كان أنحف ولم يكن لديه لون بشرتِك نفسه، ودائمًا ما كان يُراودني ظنٌّ بأنَّ إيسلي الذي ذهب إلى البرية في أستراليا قد مات.»

قال إيسلي بشرود: «هذا مُمكن.» كان يريد أن يكسب وقتًا؛ إذ كان الشارع خاليًا. وعلى بُعد مسافةٍ قصيرة، كان ثمة مَدخلٌ يمكن أن يَرقُدَ فيه رجلٌ دون أن يُلاحظه أحدٌ حتى يأتي شُرطي.

كان يحمل في جيبه ريشةً مُشرَّبة ملفوفةً بعناية بضمادة كتَّانية وحريرٍ مدهونٍ بالزيت؛ فسحبها من جيبه خلسةً، وجرَّدها من غلافها بيديه وهي وراء ظهره.

كان الرجل الآخر في هذه الأثناء يواصل كلامه قائلًا: «الحقُّ أيها الطبيب إيسلي أنني أشعر بأنَّك مُحتال.»

واجَهَه إيسلي، وقال بصوتٍ خفيض: «إنك تُفكِّر في الأمور أكثر من اللازم، لكنني لا أستطيع تمييز هويتك، فلتُدِر وجهك ناحية الضوء.»

أطاعه الشاب، ولم تكد تمرُّ ثانية حتى رَفَع الطبيب الريشة بسرعةٍ كلمح البصر.

قَبَضت يدٌ فولاذية على معصمه، وظَهَر رجلان آخران كما لو أنَّ الأرض انشقَّت عنهما. وضُغِط على وجهه بشيءٍ ناعم ذي رائحة مُثيرة للغثيان كانت تخنقُه. حاول المقاومة باهتياجٍ جنوني، لكنَّ الأفضلية العددية كانت ضده بفارقٍ كبير. دوى بعد ذلك صوت صافرة شُرطيٍّ وسَقَط على الأرض.

استفاق ليجد شرطيًّا منحنيًا تجاهه من فوقه. تحسَّس رأسه بيده في تصرُّفٍ غريزي.

سأله الشرطي: «أيُؤلِمُك يا سيدي؟»

«لا.» حاول النهوض بصعوبةٍ حتى وقف مترنِّحًا، وسأل الشرطي: «هل قبضتم على الرجال؟»

«لا يا سيدي، لقد هربوا. كلُّ ما استطعنا فعله أننا اكتشفناهم بينما كانوا يُسقِطُونك، لكن ليحفظك الرب يا سيدي، يبدو كأنَّ الأرض انشقَّت وابتلعتْهم.»

نَظَر حوله بحثًا عن الريشة، لكنَّها قد اختفت. وببعض التردُّد، ذكر اسمه وعنوانه للشرطي الذي استدعى له سيارة أُجرة.

سأله الشرطي: «أمُتيقِّنٌ من أنَّك لم تفقد شيئًا يا سيدي؟»

قال إيسلي بانزعاج: «لا شيء. لا شيء. أصغِ إليَّ أيها الشرطي، لا تُبلِغ أحدًا بما حدث.» دَس جنيهًا في يد الشرطي خلسةً، وأضاف: «أريد ألَّا يصل الأمر إلى الصُّحُف.»

أعاد الشرطي الجنيه، وقال: «أنا آسفٌ يا سيدي، لا أستطيع أخذ ذلك حتى وإن كنتُ أريده.» نَظَر حوله بسرعة وقال بصوت خفيض: «معي هنا رجل فاضل من مقرِّ «سكوتلانديارد»، وهو أحد المفوضين المُساعِدين.»

فاتَّبع إيسلي اتجاه ناظِري الشرطي، ليجد رجلًا واقفًا في ظلِّ الجدار.

قال الشرطي الذي كان شابًّا شديد الثَّرثرة على نحو فاحش: «إنَّه أوَّل من رآك.»

سار إيسلي نحو الرجل الواقف في الظل مُستجيبًا لدافعٍ داخلي لم يستطع تحديده.

وقال له: «إنني مدين لك بخالص امتناني. وأرجو فقط أن تُتِم صنيعك بكتمان هذه المسألة؛ فأنا أكره رؤية هذا الأمر مذكورًا في الصُّحُف.»

فقال ذلك المجهول: «أتصوَّر بالفعل أنَّك تكره ذلك.» كان يَرتدي ثياب المناسبات الرسمية، وكان الوهج الأحمر لسيجاره يُخفِي من وجهه أكثر ممَّا يُظهِر. «لكنَّ هذه

المسألة، أيُّها الطبيب إيسلي، من نوعية المسائل التي يجب أن تَسمح لنا فيها بالحرية الكاملة في التصرُّف.»

فسأله الطبيب بارتياب: «كيف تعرف اسمي؟» ابتسم الآخر في الظلام وأشاح بوجهه مبتعدًا.

قال إيسلي: «مهلًا!» خطا خطوةً واسعة نحوه وحدَّق إلى وجهه، ثم أضاف: «أعتقد أنني أعرف صوتك.»

قال الآخر: «هذا مُمكن.» ودَفَعه بعيدًا برفقٍ لكن بإحكام؛ فشَهَق إيسلي. لم يكن الطبيب نفسه ضعيفًا لكنَّ هذا الرجل كان لدَيه ذراع كالفولاذ.

تدخَّل الشرطي وقال لإيسلي بقلق: «أظنُّ الأفضل أن ترحل يا سيدي.» ذلك أنه لم يكن يرغب في إغضاب شخصيةٍ عامَّة من الواضح أنها تتمتَّع بنفوذ ولا إغضاب رئيسه؛ ذاك المفوض الغامض الذي كان يظهر ويَختفي في أقسامٍ شُرطية مختلفة والذي خلَّف وراءه قدرًا لا يُحصى من الضحايا بين مختلف أفراد الشرطة.

قال الطبيب: «سأرحل، لكنِّي أودُّ معرفة اسم هذا الرجل.»

فقال الرجل الغريب: «هذا لا يُمكن أن يكون من شأنك.» وهزَّ إيسلي كتفَيه. كان إيسلي مُضطرًّا إلى أن يقنع بذلك؛ فاستقلَّ سيارة الأجرة عائدًا إلى منزله الكائن في حي «فورست هيل» وهو مُنهمِك في التفكير. من هؤلاء الثلاثة الذين اعتدوا عليه يا تُرى وما هذا الشيء الذي كان معهم؟ ومن ذاك الرجل الذي كان واقفًا في الظل؟ أيُمكن أن يكون أولئك الذين اعتدوا عليه متواطئين مع الشرطة؟

وَصَل إلى المنزل دون أن يَقترب قيد أنملة من إجابةٍ عن هذه الأسئلة. فَتَح الباب الموصد ودخل. لم يكن أحدٌ في المنزل سواه هو وتلك المرأة العجوز في الطابق العلوي. كانت مواعيد خروجه من المنزل ورجوعه إليه متقلبة جدًّا لدرجة أنَّه أرسى نظامًا أتاح له حرية تحرُّك مثاليةً للغاية.

توصَّل إلى قرارٍ بضرورة وضع نهايةٍ للطبيب إيسلي. يجب أن يَختفي إيسلي من لندن. ولم يكن يحتاج إلى إخبار بلاك بذلك، فهو سيعرف حتمًا. قرَّر أن يُسوِّي مسألة رئيس مصنع الحديد وابنته ثم يضع النهاية بعد ذلك.

فتح باب غرفة مكتبه الموصَد، ودخل وأضاء الأنوار. وجد رسالة على منضدة الكتابة، رسالة موضوعة في ظرفٍ رمادي رقيق؛ فأخذه وتفحَّصه. رأى أنَّه قد سُلِّم باليد وكان يحمل اسمه مكتوبًا بخطٍّ يدوي مُحكَم. نَظَر إلى منضدة الكتابة، وانتفض إلى الوراء فجأة؛ إذ وجد أنَّ الرسالة قد كُتِبَت في الغرفة ونُشِّفَت على الورق النشَّاف!

لم يكن يوجد شكٌّ إطلاقًا في ذلك؛ إذ كان الورق النشَّاف موضوعًا على المنضدة وكان من الواضح أنه قد استُخدِم حديثًا في ذلك اليوم، وكان الخط اليدوي السميك يبدو باتجاهه العكسي من ظَهرِ الظرف. نَظَر إلى الظرف مجددًا.

كان من المحال أن يكون ذلك من فعل مريض له؛ فهو لم يستقبل مريضًا في بيته قَط، ولم يكن لديه ما يُذكر من المرضى أصلًا. لم تكن مهنة الطب سوى ستارٍ. وفوق ذلك كله، كان الباب موصدًا، وما كان أحدٌ يملك المفتاح سواه. فتح الظرف مُمزِّقًا إيَّاه، وأخرج مُحتوياته التي تمثَّلت في نصف ورقةٍ من وَرَق الرسائل ورد فيها ثلاثة أسطر هي كما يلي:

لقد أفلتَّ الليلة، ولديك سبعة أيام فقط لتُهيِّئ نفسك للمصير الذي ينتظرك.

رجال العدالة الأربعة

غاص في كرسيه محطمًا بما عرفه للتو. لقد كانوا «رجال العدالة الأربعة»، وقَد أفلَت منهم. رجال العدالة! دَفَن وجهه بين يديه وحاول أن يُفكر. لقد أمهلوه سبعة أيام. يُمكن فعل الكثير في سبعة أيام. لقد عاش ذُعرَ الموت وكان على بُعدِ لحظاتٍ منه، وهو ذاك الذي أرسل الكثيرين من قبل إلى مصيرهم المَحتوم دون أدنى شعورٍ بالندم أو وخْز الضمير. أما هذه المرة، فهو نفسه مَن يواجه الموت! أمسك بحُلقومه وأخذ يُحدِّق إلى كلِّ أنحاء الغرفة. إيسلي المُسمِّم — الخبير المتخصِّص في قبض الأرواح — الرجل الذي أعاد إحياء فن آل «مديتشي» المفقود وخَدَع الشرطة. سبعة أيام! حسنًا، سيُسوِّي مسألة صاحب مصنع الحديد. لقد كان ذلك ضروريًّا لبلاك.

بدأ يتَّخذ استعداداتٍ محمومة للمستقبل. لم تكن توجد أوراق ليُتلفَها. دخل العيادة وأفرغ ثلاث زجاجات في الحوض. أمَّا الرابعة فقد كان يُريدها؛ فالرابعة، تلك الزجاجة الخضراء الصغيرة ذات السدادة الزجاجية، كانت مُفيدةً لبلاك؛ لذا وضَعَها في جيبه.

ترك المياه تَنساب من الصنبور لتُزيل كل آثار المادة المُخدِّرة التي سَكَبها، ثم هشَّم الزجاجات ورماها في سلَّة النفايات.

صعد إلى غرفته في الطابق العلوي لكنَّ النوم جافى عينيه. أوصد الباب بالمفتاح وأسند كُرسيًّا إليه. فتَّش داخل الخزانة وتحت السرير وهو يمسك بمسدس في يده، ثم وضع المسدس تحت وسادته وحاول النوم.

طَلَع عليه صباح اليوم التالي وهو مُنهَكٌ ومُتوعِّك، لكنَّه مع ذلك تأنَّق وتزيَّن بعنايةٍ كالمعتاد. وفي الموعد المُحدَّد ظُهرًا، عرَّف نفسه إلى الخادم في «هامبستيد» فأوصله إلى غرفة الجلوس. كانت الفتاة وحدها حين دخل. وقد لاحَظ باستحسانٍ أنَّها كانت شديدة الجمال.

كان يعرف بالفطرة أنَّ مايساندفورد لم تكن تحمل أيَّ مودة تجاهه. رأى الغيمة التي خيَّمت على وجهها الجميل وهو يقترب منها، وقد استمتع بذلك على طريقته الباردة.

قالت: «أبي في الخارج.»

قال إيسلي: «هذا جيد، يمكننا التحدث قليلًا ريثما يعود.» وقَعَد من تلقاء نفسه دون دعوة.

قالت: «يَجدر بي أن أخبرك الآن، أيها الطبيب إيسلي، أنَّ مَخاوف أبي بشأني ليس لها أيُّ أساس.»

دَخَل صاحب مصنع الحديد حينئذٍ وصافَح الطبيب بحرارة، ثم سأله: «حسنًا، كيف تبدو حالتها في رأيك؟»

فقال الآخر: «المظاهر لا تُخبر المرء بشيء.» لم تكن هذه اللحظة المناسبة لاستخدام الريشة؛ فقد كان عليه أن يفعل أشياء أخرى، ولم تكن الريشة هي السبيل إلى تحقيقِها. ظل يتحدَّث لبعض الوقت ثم نهض، وقال لها: «سأبعث إليكِ بدواء.» فارتسمت على وجهها تعابير تهكُّمٍ جاف. فقال بلمسة الحقد التي كانت من السمات التي يتَّصف بها: «لا داعيَ إلى القلق من أن تتناوليه.»

سأله ساندفورد: «هل تستطيع المجيء لتناول العشاء معنا يوم الثلاثاء؟»

فكَّر إيسلي قليلًا. كان هذا اليوم هو السبت؛ أي إنَّ الأيام السبعة كان سيَنقضي منها ثلاثة أيام بحلول يوم الثلاثاء، وقد يطرأ أيُّ شيء جديد في هذه الأثناء، ثم قال: «حسنًا، سوف آتي.»

رحل واستقلَّ سيارة أجرة إلى بعض غرف الإيجار بالقرب من سدِّ التايمز؛ فقد كان لدَيه هناك غرفةٌ مفيدة للغاية.

(٨) صدمة للكولونيل بلاك

كان لدى السيد ساندفورد موعدٌ مع الكولونيل بلاك. وكان ذلك هو اللقاء الأخير قبل فضِّ الشراكة بينهما.

كان حيُّ المال يعجُّ بالشائعات. وانتشر كلامٌ هامس بأنَّ أمور الخبير المالي ليسَت على ما يرام؛ وأنَّ اقتراح الدمج الذين كان يُعوِّل عليه لم يُقبل. جلس بلاك إلى مكتبِه عصر ذلك اليوم يلهو وهو شارد الذهن بأحد سكاكين الورق. كان أشد شحوبًا من المعتاد، وكانت اليد التي تُمسِك السكِّين ترتعش بعصبية. نَظَر إلى ساعة يده. كان هذا وقت مجيء ساندفورد. ضَغَط بلاك جرسًا في جانب مكتبه، فدخل إليه موظف.

سأله: «هل وصل السيد ساندفورد؟»

فقال الرجل: «وصل للتو يا سيدي.»

«أدخِله.»

تبادل الرجلان التحية الرسمية، وأشار بلاك إلى كرسيٍّ، قال باقتضاب: «اقعد يا ساندفورد. والآن، ما موقفنا بالضبط؟»

قال الآخر بصرامة وإصرار: «كما هو.»

«لن تُشاركَ في مُخطَّطي؟»

قال الآخر: «كلا، لن أفعل.»

نقَر الكولونيل بلاك على المكتب بسكينِه، ونَظَر إليه ساندفورد. بدا بلاك أكبر سنًّا مما كان عليه حين رآه آخر مرة؛ فقد كان وجهه الأصفر مُشقَّقًا ومجعَّدًا.

قال فجأة: «إنَّ هذا سيجلب عليَّ الخراب. لديَّ دائنون لا حصر لهم. وإذا تمَّ هذا الدمج، فسيستقرُّ وضعي. معي أناسٌ كُثُر أيضًا في ذلك — آيكي ترامبر — هل تعرف السير آيزاك؟ إنَّه صديق — امم — إيرل فيرلوند.»

غير أنَّ الرجل الأكبر سنًّا لم يتأثر بذلك، قال: «إن كنتَ في مأزق، فهذا خطؤك. لقد تَوليتَ مهمةً أكبر من إمكانياتك، والأدهى من ذلك أنَّك تعامَلت مع الكثير جدًّا من الأمور على أنها من المسلَّمات.»

رَفَع الرجل القاعد إلى المكتب رأسه نحو زائره ناظرًا إليه من أسفل حاجبَيه المستقيمَين، وقال: «من السهل عليك أن تقعد هناك وتُخبرني بما ينبغي فعله.» وأوحى تهدُّج صوته إلى الآخر بشيءٍ من الشعور القوي الذي كان يُخفيه. «لا أريد نصيحةً ولا عِظَة، بل أريد مالًا. شاركني في مخططي ووافِق على الدمج، وإلَّا ...»

فكرَّر رئيس مصنع الحديد بهدوء قائلًا: «وإلَّا ...»

قال بلاك متجهمًا: «أنا لا أُهدِّدك، بل أُحذِّرك. أنت تخاطر بأكثر ممَّا تعرف أنك تُخاطر به.»

قال ساندفورد: «سأخوض المخاطرة إذن.» قام بعد ذلك من كرسيه وقال: «هل لديك شيءٌ آخر تودُّ قوله؟»

«لا شيء.»

«إذن سأُودِّعُك.»

أغلَق الباب خلفه بضربةٍ عنيفة، وظلَّ بلاك بلا حراك. ظل جالسًا هناك حتى حلَّ الظلام، ولم يكن يفعل شيئًا سوى الخربشة بلا هدف على الورق النشَّاف. كانت السماء قد أوشكت على الإظلام حين عاد بسيارة الأجرة إلى الشقة التي كان يَسكُنها في شارع «فكتوريا ستريت» وفتح الباب ثم دخلها.

قال له الرجل الذي أتاه مسرعًا ليُساعدَه في خلع المعطف: «ثمة رجلٌ ينتظرك يا سيدي.»

«أيُّ نوع من الرجال؟»

«لا أعرف بالضبط يا سيدي، لكنِّي أعتقد أنَّه مُحقِّق.»

«محقق؟» وجد يدَيه ترتعشان ولعن حماقته. وقف مُتحيِّرًا وسط الصالة لكنَّه تمكَّن في غضون دقيقة من السيطرة على مخاوِفه، وأدار مقبض الباب.

قام رجلٌ ليُقابلَه. وشعر بلاك بأنَّه قد التقاه من قبل. كان ذلك أحد تلك المشاعر التي يَصعُب شرحها. سأله قائلًا: «أردت لقائي؟»

فقال الرجل بنبرة احترام في صوته: «نعم يا سيدي. أتيتُ لطرحِ بعض الاستفسارات.»

كاد بلاك أن يسأله عمَّا إذا كان ضابطَ شرطة، لكنَّه بطريقةٍ ما، لم يتحلَّ بالشجاعة الكافية لصياغة الكلمات. وكان تكبُّد عناء ذلك غير ضروريٍّ، مثلما ثبت لاحقًا؛ إذ إنَّ كلمات الرجل التالية قد أوضحت مهمَّته.

تحدَّث قائلًا: «لقد كلَّفتني شركةٌ من المحامين باكتشاف مكانِ وجود الطبيب إيسلي.»

فنَظَر بلاك إليه بإمعان، وقال: «من المفترض ألَّا تجد صعوبةً في ذلك. فاسم الطبيب واردٌ في سجل الهواتف والعناوين.»

قال الرجل: «هذا صحيح، لكنِّي واجهتُ صعوبةً كبيرة في إيجاده مع أنني بحثتُ عنه كثيرًا.» وأوضح قائلًا: «الحق أنني كنت مُخطئًا حين قُلتُ إنني أريد معرفة مكانه، بل أريد إثبات صحة هُويَّته.»

قال الخبير المالي: «لا أفهمك.»

فقال الرجل: «حسنًا، لا أعرف كيف أصوغ قصدي بالضبط. ما دُمت تَعرف الطبيب إيسلي، فستتذكر أنَّه مكَثَ في أستراليا بضع سنوات.»

قال بلاك: «هذا صحيح، لقد عُدنا معًا.»

«وقد مكثتُما هناك بضع سنوات، أليس كذلك يا سيدي؟»

«بلى، مكثنا هناك عددًا من السنوات، لكنَّنا لم نكن معًا طوال تلك الفترة.»

قال الرجل: «أفهم. أعتقد أنكما قد سافرتُما معًا، أليس كذلك؟»

أجاب الآخر بحدة: «لا، سافرنا في فترتَين مختلفتَين.»

«هل رأيته مؤخرًا؟»

«كلا، لم أرَه، وإن كنت أبعث له مرارًا بالرسائل بشأن مسائل مختلفة.» كان بلاك يُحاول قدر المستطاع ألَّا يفقد صبره؛ إذ كان عليه ألا يسمح لهذا الرجل برؤية مدى انزعاجه الكبير من هذه الأسئلة.

دوَّن الرجل شيئًا في دفتر ملاحظاته، وأغلقه ووضعه في جيبه، ثم سأله بهدوء: «أيُدهشُك أن تَعرف أنَّ الطبيب إيسلي الحقيقي الذي سافَرَ إلى أستراليا قد مات هناك؟»

أمسَكَت أصابع بلاك بحافة الطاولة وتمالَك توازنه.

قال: «لم أكن أعرف ذلك.» وقال حين انتهى الرجل من أسئلته: «أهذه هي كلُّ الأسئلة التي كنت تودُّ طرحَها؟»

قال المحقق: «أظنُّ أنَّ ذلك سيكفي يا سيدي.»

فسأله الكولونيل: «هل لي أن أسألك عمَّن وكَّلك لإجراء هذا التحقيق؟»

«لا يحقُّ لي الإفصاح عن ذلك.»

بعد رحيله، ظلَّ بلاك يمشي في الشقة منهمكًا في تفكيرٍ عميق.

أنزَل من على الرف دليلَ سفرٍ وخرائط للقارة من إصدار «بيديكر»، ورَسَم بالقلم الرصاص على ورقة خطة لتقاعُده. لقد كان رفضُ ساندفورد للتفاوض معه هو النكبة القصوى.

عَبَر الغرفة متجهًا إلى الخزنة التي كانت موجودة في رُكنها وفتحها. كان دُرجها الداخلي يحوي ثلاث رزمٍ متساوية من الأوراق النقدية. أخرجها ووضعها على الطاولة. كانت أوراقًا نقدية من إصدار بنك فرنسا، وكانت كل ورقةٍ منها بألف فرانك.

كان من الأفضل له ألَّا يُجازف؛ لذا فقد وضع الرزم في جيب مِعطفه الداخلي. إذا فشلت كل الحيل وضاقت به السُّبُل، فستكون هذه النقود طريقه إلى الحرية. أمَّا بخصوص إيسلي، فقَد ابتسم حين خَطر بباله؛ إذ كان يَجب أن يختفي بأيِّ حالٍ من الأحوال. غادر شقته واستقلَّ سيارة أجرة اتجه بها غربًا إلى حيِّ المال. كان ثمة رجلان يَتبعانه، لكنَّه لم يُدرك ذلك.

كان بلاك يَتباهى بأنَّ مؤسسته لا تحفظ أيَّ دفاتر ولا تحتفظ بأيِّ سجلات، وقد تجلَّت هذه الحقيقة في الليلة التي زارَه فيها «الأربعة» بلا دعوة. ذلك أنَّ بحثَهم المنهجي عن الأدلة، التي كانوا يعتزمون استخدامها ضده في محكمة مُعترف بها، لم يكشف عن أيِّ أثَرٍ لأدلة مكتوبةٍ موثَّقة يُمكِن استخدامها. أما الحقيقة، فهي أنَّ بلاك كان يَحتفظ بمجموعةٍ مكتملة الأركان من الدفاتر، لكنه كتبها بشفرةٍ من ابتكاره لم يُدوِّن مفتاحها على أيِّ ورقةٍ قَط، ولم يكن يَفهمها أحد سواه.

وفي مساء اليوم الذي زاره فيه المحقِّق، كان منشغلًا بإبعاد حتى تلك الدفاتر عن متناول «الأربعة». وقد كان لديه سببٌ وجيه يدعو إلى هذا القلق؛ فقد زاد نشاط الأربعة مؤخرًا زيادة كبيرة، وكانوا يرون أنَّه من الملائم تحدِّي الكولونيل بلاك مرَّة أخرى. ظلَّ مشغولًا من الساعة التاسعة إلى الساعة الحادية عشرة في تمزيق رسائل تبدو خاليةً من أيِّ جُرم وإحراقها. وحين دقَّت عقارب الساعة مُعلنةً بلوغ الحادية عشرة، نَظَر إلى ساعة يده وتيقن من الوقت؛ إذ كان لديه عملٌ مُهمٌّ جدًّا في تلك الليلة.

بعث برسالةٍ إلى السير آيزاك ترامبر يطلب فيها لقاءه في تلك الليلة؛ إذ كان يحتاج إلى كلِّ صديق وكلِّ نفوذ وكلِّ جزءٍ بسيط من المساعدة يُمكِن أن يناله.

(٩) مأدبة عشاء لدى اللورد فيرلوند

زار اللورد فيرلوند منزل ساندفورد عصرًا، وقد ذهب لأسبابٍ عديدة لم يتوقَّع أحدٌ أهمها؛ فقد كان يملك حصةً كبيرة في أسهم مسابك «ساندفورد فاوندريس»، ومع انتشار الشائعات عن دمجٍ وشيك، كان يُوجد مبررٌ كافٍ لزيارته. بل إنَّ سبب الزيارة قد بَدَا مُبرَّرًا للغاية حين كان أول من التقاه هناك رجلًا ضخمًا أصفر الوجه ودودًا جدًّا إلى حدٍّ لعين، ولديه استعدادٌ مُبالغٌ فيه للتصادُق من أجل نيل رضا الرجل العجوز.

قال الكولونيل بلاك: «لقد سمعت عنك يا فخامة اللورد.»

فقال الإيرل بصوتٍ حاد مفاجئ: «لا تُنادِني بـ «فخامة اللورد» حبًّا للرب. عَجَبًا، إنَّك تطلب مني أن أكون وقحًا معك.»

غير أنه لم يكن من المُمكن لرجلٍ بمكانة فيرلوند أن يكون وقحًا مع الكولونيل، في ظلِّ وجود ابتسامته التلقائية وعينَيه الساطعتَين.

قال بلاك بتلك النبرة المُلطِّفة التي قد يرى البعض أنها علامة على إجلالهم: «أعرفُ أحد أصدقائك.»

فقال الإيرل: «بل تعرفُ آيكي ترامبر، والأمران ليسا سواء.»

فأحدَث الكولونيل صخبًا يعبر به عن تسليته بما قاله الإيرل. واستهلَّ جملةً قائلًا: «إنَّه دائمًا ...»

فساعَدَه الإيرل في إكمالها وعيناه تتوهَّجان بخُبثٍ جذَّاب، قائلًا: «إنَّه دائمًا ما يتكلَّم عنِّي بالحُسنى، ويقول كَم أنني رفيق رائع، وكيف أنَّ الدنيا تَفقِد طعمها إذا مرَّ يومٌ دون أن يراني، ويصفُ لك كم أنني رياضيٌّ بارع، وكم أنَّ القلب الذي يَنبض وراء ظاهري غير الجذَّاب بعض الشيء، صادقٌ وطيب، وكيف أنَّ الناس سيُحبُّونني إذا عرفوني فحسب، يقول كل هذا، أليس كذلك؟»

أومأ الكولونيل بالإيجاب.

فقال اللورد فيرلوند بفظاظة: «لا أظن!» ونَظَر إلى الآخر لبعض الوقت، وأضاف: «يَجدر بك أن تأتي إلى بيتي لتتعشَّى معي الليلة، فستَلتقي العديد من الأشخاص الذين يَكرهونك بشدة.»

تمتم الكولونيل قائلًا: «سيُسعدني ذلك.»

كان يأمل أن يُدعى إلى المشاركة في الاجتماع الذي خمَّن أنَّه سيُعقَد بين ساندفورد وفخامة اللورد، لكنَّ أمله في ذلك قد خاب. وقد كان بوسعه حينها أن يُغادر من ذلك المكان، لكنَّه اختار البقاء ومناقشة الفن (الذي لم يكن يفهمه تمامًا) مع آنسةٍ راقية شارِدة كانت تُفكِّر في شيءٍ آخر طوال الوقت.

كانت ترغب بشدةٍ في صرف موضوع المحادثة إلى الحديث عن قوة شرطة العاصِمة، على أمل أن يرد ذكر شرطي شاب صاعِد. كانت ستَسأل عن أحواله، لكنَّ كبرياءها قد منعها من ذلك. والكولونيل بلاك نفسه لم يَتطرَّق إلى الموضوع.

كان لا يزال يُناقش صورًا قد عفا عليها الزمن حين خَرَج اللورد فيرلوند من غرفة المكتب مع ساندفورد، كان الإيرل يقول: «فلتدعُ ابنتك تأتي.»

كان ساندفورد مُتردِّدًا، وقال: «لديَّ الكثير من الالتزامات، ولا أودُّ أن تَذهب وحدها.»

وحينها ثمة شيء قد أتى فجأة في مصلحة الكولونيل بلاك. فرصة!

قال مُتظاهرًا باللامبالاة: «إذا كنتما تتحدَّثان عن العشاء الليلة، فسأسعدُ باستدعاء سيارتي لأوصلك.»

لكنَّ ساندفورد ظلَّ غير مُطمئن. وكانت ماي هي مَن ينبغي عليه أن يأخذ القرار.

قالت: «أظن أنني أودُّ ذلك يا أبي.»

لم تكن تستمتع كثيرًا باحتمالية الذهاب إلى أيِّ مكانٍ مع الكولونيل، لكنَّها رأت أنَّها ستكون مجرد رحلةٍ قصيرة.

قال بلاك بنبرةٍ مازحة بعض الشيء: «إذا تسنَّى لي أن أحل محلَّ والد الفتاة الشابة، فسأعدُّ ذلك شرفًا.»

نَظَر حوله فوجد وميضًا غريبًا في عيني اللورد فيرلوند. وكان الإيرل يُحدِّق إليه بتدقيقٍ وشيء من الحدة؛ فاعترى قلب الخبير المالي خوفٌ مُفاجئ لا تفسيرَ له.

تمتم الرجل العجوز وهو ما زال يحدق إليه من أسفل جفنَيه المخفوضين: «ممتاز، ممتاز! ليست مسافة طويلة، وأظنُّك لن تواجه صعوباتٍ في رحلتك.»

ابتسمت الفتاة، لكنَّ حدة النظرة المتجهمة على وجه الإيرل لم تَهدأ.

وقال: «ولأنَّ صحَّتكِ ليست بخير أيتها الآنسة الشابة.» فضحكت ماي ضحكة اعتراضية، لكنَّه واصل قائلًا: «ولأنَّ صحتكِ ليست بخير أيتها الآنسة الشابة، سأجعل السير جيمس باور والسير توماس بيجلاند يلتقيان بكِ — أتعرفُ هذين الطبيبين البارزين أيها الكولونيل؟ سيَعرفهما صديقك الطبيب إيسلي بالتأكيد — كلاهما مُتخصِّصٌ في تأثير أشباه القلويات النباتية.»

تصبَّب وجه بلاك عرقًا غزيرًا، لكنَّه حافظ على تحكمه في تعبيرات وجهه. توهَّج وميضٌ من الخوف والغضب في عينيه، لكنَّه قابل نَظرة الآخر بنظراتٍ متحدية، حتى إنَّه قد ابتسم ابتسامةً بطيئة ببعض الجهد، ثم قال بنبرةٍ شبه مرحة: «هذا يضع نهاية لأي اعتراض.»

غادر الرجل العجوز وكان يَبتسِم لنفسه طوال طريق العودة إلى المدينة.

كان إيرل فيرلوند شديد الالتزام بالنظام والانضباط، كان رجلًا عجوزًا متجهمًا مُحدَّب الجسد. كان المجتمع الراقي يقول عن وجهه إنَّه يَروي قصة حياته ببلاغة، وكان لسانه السليط كافيًا ليضمن له احترام أصدقائه، أو خوفهم الذي يحل محل الاحترام باقتدار إن لم يضمن له احترامهم.

غير أنَّ كلمة «أصدقاء» لا تنطبق على أيٍّ من معارف الإيرل أبدًا بمعناها المعتاد. كان من الواضح أنَّ صديقه الوحيد هو السير آيزاك ترامبر، حتى إنَّه حين سُئل عن صداقاته من شخصٍ كان يعرفه بدرجة تكفي للتطرُّق إلى موضوعٍ شديد الخصوصية كهذا، قال بسخرية: «لديَّ أناسٌ يتعشَّون معي.»

في تلك الليلة، كان ينتظر في المكتبة الكبيرة في منزله بشارع «كارنارفون بليس». كان الإيرل أحد هؤلاء الرجال الذين يلتزمون بجدولٍ زمني صارم في كل يومٍ من أيام حياتهم. ألقى نظرةً خاطفة على ساعته؛ كان من المفترض أن يكون في طريقه إلى غرفة الجلوس في غضون دقيقتَين لاستقبال ضيوفه.

كان هوريس جريشام سيأتي إلى المأدبة. وارتأى السير آيزاك ترامبر أنَّ دعوة ذلك الرجل إلى العشاء كانت تصرُّفًا غريبًا، فغامر بالتعليق على ذلك مُفترضًا أنَّه صديق الإيرل.

فقال الإيرل: «حين أريدُ نصيحتك بشأن قائمة المدعوِّين إلى بيتي يا آيكي، سأبعث إليك ببرقيةٍ مدفوعة مُقدَّمًا.»

قال السير آيزاك متأفِّفًا: «ظننتُ أنَّك تكرهه.»

فقال الإيرل: «أكرهه! بالطبع أكرهه. أكره الجميع. وكان ينبغي أن أكرهك، لكنَّك شيطانٌ تافه. هل صرتَ على وِفاقٍ مع ماري؟»

تذمَّر السير آيزاك قائلًا: «لا أَدري ما تقصد بـ «صرت على وفاق». حاولتُ التودُّدَ إليها، لكنِّي لم أنجح إلَّا في أن أجعل من نفسي أضحوكةً على ما يبدو.»

قال الرجل النبيل بضحكةٍ قصيرة خافتة: «آه، ستكون أكثر إعجابًا بك وأنت على طبيعتك.»

فَرَمق السير آيزك راعيه بنظرةٍ خاطفة عابسة. وقال: «أظنك تعرف أنني أرغب في الزواج من ماري.»

قال الإيرل: «أعرفُ أنَّك تُريد بعض المال دون أن تكدَّ من أجله. لقد حدثتني عن ذلك مرتين. لا يُمكن أن أنسى ذلك؛ فذلك من نوعية الأمور التي أُفكِّر فيها ليلًا.»

فقال البارونيت مزمجرًا: «أتمنَّى أن تكفَّ عن هذا المزاح معي. هل تَنتظِر أيَّ ضيوفٍ آخرين؟»

زمجر الإيرل غاضبًا: «كلا. أنا جالس على قمة مون بلان آكلُ الأرز باللبن.» لم يأت ردٌّ على هذا، ثم قال الإيرل فجأة: «لقد دعوتُ صديقًا قديمًا جدًّا من أصدقائك، ولكن لا يبدو أنَّه سيَحضر.»

قال آيكي مقطبًا حاجبَيه: «صديقٌ قديم؟»

فأومأ الآخر، ثم قال باقتضاب: «رجلٌ عسكري. كولونيل في الجيش، مع أنَّ أحدًا لا يعرف ذلك الجيش.»

فَغَر السير آيزاك فاه، وقال: «لا تقُل إنك تقصد بلاك؟»

أومأ اللورد فيرلوند برأسه. ظل يومئ عدة مرات كطفلٍ مُبتهِج يعترف بخطأٍ وهو فخورٌ به للغاية. وقال: «إنَّه بلاك.» لكنَّه لم يذكر الفتاة.

نَظَر إلى ساعته مرة أخرى ولوى قسمات وجهه قليلًا، ثم أَمَر السير قائلًا: «ابقَ هنا. أنا ذاهبٌ إلى الهاتف.»

«أيُمكنني ...»

فقاطعه الإيرل بنبرة حادة: «لا يُمكنُك!» اختفى لبعض الوقت، وحين عاد إلى المكتبة، كان وجهه متبسِّمًا، وقال: «صديقك لن يأتي.» ولم يذكر أيَّ تفسير لتصرُّف الكولونيل الذي لم يكن له تفسير، ولا للابتسامة التي عَلَت وجهه.

على العشاء، وجد هوريس جريشام نفسه جالسًا بجوار أجمل امرأةٍ في الدنيا، بل كانت ألطفَ النساء أيضًا وأسهَلهن تسليةً. كان مُستعدًّا لنسيان الدُّنيا كلها وما فيها من أمثال أولئك الذين كانوا متجمعين حول الإيرل، لكنَّ اللورد فيرلوند كان لديه رأيٌ آخر.

قال فجأة مُخاطِبًا هوريس: «لقد التقيتُ أحد أصدقائك اليوم.»

فأبدى الشاب اهتمامه بأدب، وقال: «حقًّا يا سيدي؟»

أضاف فيرلوند: «ساندفورد؛ ذاك الرجل الناجح ذو الثراء الفاحش من نيوكاسل.» فأومأ هوريس بحذر. والتفت الرجل العجوز بسرعةٍ إلى السير آيزاك قائلًا: «إنَّه صديقك أيضًا، أليس كذلك؟ لقد طلبتُ من ابنته الحضور لتناول العشاء، أمَّا الأب فلم يكن بوسعه الحضور. إنها ليسَت هنا.»

حدَّق إلى القاعدين حول المائدة بحثًا عن الفتاة الغائبة.

قال السير آيزاك بحذرٍ مُماثل؛ لأنَّه كان مُضطرًّا إلى التحدث علانيةً أمام الحاضرين دون معرفة شعور الرجل العجوز تجاه الضيفين الغائبين بالضبط: «ساندفورد صديقي من منظورٍ ما، أو بالأحرى إنَّه صديق صديقي.»

فصاح اللورد فيرلوند مزمجرًا: «بلاك، محتال شركة المُضاربة غير القانونية، هل تُشارِكه في ذلك؟»

سارَع السير آيزاك إلى الإجابة قائلًا: «لقد قطعتُ كل علاقتي به تقريبًا.»

ابتسم فيرلوند، وقال: «هذا يعني أنَّه مُفلِس.» ثم التفت إلى هوريس قائلًا: «ساندفورد يشيد بالثناء على شرطيٍّ ولهان بابنته، أهو صديقك؟»

أومأ هوريس، وقال بهدوء: «إنَّه من أعزِّ أصدقائي.»

«وما هو؟»

قال هوريس: «آه، إنَّه شُرطي.»

قال الإيرل: «وأظنُّ أنَّ لديه ساقين ورأسًا وذراعين، أنت موسوعةٌ تفيض بالمعلومات، أعرف أنَّه شرطي. يبدو أنَّ الجميع يتحدَّث عنه. والآن، ماذا يفعل، ومن أين أتى، وما معنى كلِّ ذلك بحقِّ الجحيم؟»

قال هوريس: «يُؤسفني أنني لا أستطيعُ إعطاءك أيَّ معلومات. الشيء الوحيد الذي أنا مُتيقنٌ منه تمامًا في قرارةِ نفسي أنَّه رجلٌ نبيل.»

فسأله الإيرل بتشكيك: «رجلٌ نبيل وشُرطي؟» أومأ هوريس بالإيجاب. فعلَّق اللورد مُتهكِّمًا: «أهذه مهنةٌ جديدة للابن الأصغر، هاه؟ لقد ولَّى زمن هروب الأبناء الصغار

وانضمامهم إلى الجيش، وولَّت أيام خدمتهم في الجُندية البحرية، وولَّى زمن قيادتهم قطعان الماشية في براري أمريكا الجنوبية بالعصا ...»

وحينها ظَهَرت نظرة تألُّم في عيني الليدي ماري، ووقعت عينا اللورد العجوز عليها وهو يَلتفِت.

زمجر قائلًا: «آسف. لم أكن أُفكِّر في ذلك الأحمق الصغير. ولَّى زمن فرار الابن الأصغر إلى أقاصي الأرض، وولَّى زمن موته ميتةً خلَّابة مثيرة في وحدات فرسان «كيب مونتد رايفلس» العسكرية، أو ظهوره في اللحظة المناسبة وهو يتأبَّط صرَّةً من العملات السبائكية تحت كلِّ ذراع لإنقاذ الأسرة من الهلاك. إذن، فقد صار الانضمام إلى قوات الشرطة هو الحيلة. يجب أن تكتب روايةً عن ذلك؛ فمَن يستطيع كتابة رسائل إلى الصحف الرياضية يستطيع كتابة أيِّ شيء.»

وأضاف: «بالمناسبة، سأذهب إلى «لنكولن» يوم الثلاثاء لأرى مُهرك ذاك وهو يَخسر.»

قال هوريس: «إذن فستكون رحلتك بلا جدوى. لقد اتخذتُ الترتيبات اللازمة ليَفوز.»

انتظر فرصةً ليُحادث الرجل العجوز مُنفردًا، ولم تسنح تلك الفرصة إلَّا في نهاية العشاء، حين وجد نفسه مع الإيرل وحدهما. قال مُتظاهرًا باللامبالاة: «بالمناسبة، أريد محادثتك بشأن مسألةٍ خاصة عاجلة.»

سأله الإيرل وهو ينظر إليه بارتيابٍ من أسفل حاجبيه الأشعثين: «أتريدُ مالًا؟»

ابتسم هوريس. وقال: «لا، لا أظنُّ أنني سأَقترض مالًا على الأرجح.»

فسأله الرجل العجوز بصراحةٍ وحشية: «أتريدُ أن تتزوج ابنة أخي؟»

فقال هوريس ببرود: «هذا هو ما أريد.» كان يستطيع التكيُّف مع مزاج الرجل العجوز.

فقال الإيرل: «حسنًا، لا يُمكنك ذلك. لقد أعددت الترتيبات ليفوز مهرك، وأنا أعددت الترتيبات ليتزوج آيكي بابنتي.» ثم صحَّح لنفسه قائلًا: «أو بالأحرى، رتَّب آيكي معي لهذه المسألة.»

فسأله هوريس متحدثًا عن ماري: «أتعتقد أنها توافق على هذه الخطة؟»

قال العجوز بابتسامة: «لا أظنُّ ذلك؛ فأنا لا أستطيع تخيُّل أنَّ أيَّ شخصٍ قد يُعجَب بآيكي، أتستطيعُ أنت؟ أظنه شيطانًا بغيضًا. إنَّه لا يُسدِّد ديونه، فهو عديم الشرف وقليلُ الاحتشام. وشركاؤه، وأنا منهم، هُم أسوأ الرجال في لندن.» هزَّ رأسه بارتياب. وأضاف مزمجرًا: «لقد قال لي بسرِّيةٍ شديدة إنَّه قد صار الآن فاضلًا، وأخبرني بأنَّه يَفتح صفحةً

جديدة. يا له من اعترافٍ حقيرٍ أن يُصرِّح به رجل من عيِّنتِه! لا أثقُ به حين يكون في مزاجه التائب.» رَفَع رأسه فجأة، وقال وقد التمع في عينيه بريق شُعلة الخبث الصغيرة، التي كانت تُضفي على وجهه ذاك الطابع الاستثنائي: «فلتذهب وتنتزعها منه. يا لها من فكرةٍ جيدة! اذهب وانتزعها منه؛ لقد لاحظتُ أنَّ ماري مُهتمَّة بك قليلًا. سُحقًا لآيكي! هيا اذهب!»

قال ذلك وهو يَدفع عنه الشاب المشدوه.

وَجَد هوريس الفتاة في المُستنبت الزجاجي المُلحَق بالبيت. كان يفيض بالسعادة؛ إذ لم يكن يتوقع قَط أن ينال موافَقة الرجل العجوز بهذه السهولة الشديدة. لقد نالها بسهولة شديدة حتى إنه كاد أن يشعر بالخوف. لقد بدا الأمرُ كما لو أنَّ إيرل فيرلوند كان يبتكر طريقةً ما لإحراجه بحسِّه الفكاهي الساخر. أخبرها فورًا من دون تفكير بكلِّ ما حدث.

صاح قائلًا: «لا أستطيع تصديق ذلك؛ كان مُستعدًّا وموافقًا جدًّا. صحيحٌ أنَّه كان قاسيًا بالتأكيد، لكنَّ ذلك كان طبيعيًّا.»

نَظرت إليه بوميضٍ طفيف من الاستمتاع في عينيها، وقالت بهدوء: «لا أظنُّك تعرف العم.»

تلجلج قائلًا: «لكن، لكن ...»

أضافت: «نعم، أعرف، فالكلُّ يظنون أنَّهم يعرفونه. يظنون أنَّه أفظع عجوزٍ في الدنيا.»

واعترفت قائلة: «وأحيانًا ما أشاركهم هذا الرأي. لا أستطيعُ أبدًا أن أفهم السبب الذي جعل «كون» المسكين يضطرُّ إلى مُغادَرة البلاد.»

فسألها: «أكان ذلك أخاكِ؟»

أومأت برأسها، واغرورقت عيناها بالدموع، ثم قالت برقة: «صبيٌّ مسكين، لم يفهم العَم. وأنا أيضًا لم أكن أفهمه آنذاك.» وأضافت بابتسامةٍ حزينة طفيفة: «وأحيانًا ما أظنُّ أنَّ العم لا يفهم نفسه جيدًا. فلتتذكر الأشياء الفظيعة التي يقولها عن الناس، وكيف أنه يصنع أعداءً له ...»

قال هوريس بحماسة: «ومع ذلك، فأنا مُستعدٌّ لتصديق أنَّه «ملاكٌ» حقيقي، وأنه فاعلُ خيرٍ للجنس البشري، وملكٌ بين الرجال، ومُوزِّع هباتٍ عظيمة ...»

فقالت له: «لا تكُن سخيفًا.» ووضعت يدها على ذراعه وقادته إلى الطرف المُقابل من البهو الكبير المُزيَّن بأشجار النخيل.

وأيًّا ما كانت السعادة التي أدخلها اللورد العجوز على هوريس، فلم يكن لها أيُّ نظيرٍ في تعامله مع السير آيزاك. ظل يَصفعه على ظهره ويركله حتى تلوَّى البارونيت غاضبًا.

وبدا أنَّ الرجل العجوز كان يجد لذَّةً خبيثة في إثارة غيظِ الآخر. ولم ينزعج اللورد من أنَّ الآراء التي عبَّر عنها في الساعة العاشرة من تلك الليلة كانت تتناقض تناقضًا صارخًا مع تلك التي تَفوَّه بها في الساعة الثامنة من الليلة نفسها، بل كان ليغيرها عشرات المرات في اليوم الواحد، إن وجد أيَّ لذةٍ في ذلك.

كان السير آيزاك في حالةٍ مزاجية سيئة للغاية حين أحضر له أحد الخُدَّام رسالةً قصيرة؛ فنَظَر حوله بحثًا عن مكانٍ هادئ ليقرأها فيه؛ إذ خمَّن هوية مُرسِلها، لكن لمَ ضيَّع بلاك فرصةً ثمينة جدًّا للقاء اللورد فيرلوند؟ ربما ستُفسِّر تلك الرسالة السبب.

عَبر الغرفة واتجه مُتمهِّلًا صوب المستنبت الزجاجي وهو يقرأ الرسالة بعناية. قرأها مرتين ثم طواها ووضعها في جيبه، ثم عاد إلى ذاك الجيب مرَّة أخرى في الحال تقريبًا؛ إذ أخرج ساعته لمعرفة الوقت.

وحين غادر ذلك الملاذ المنعزل الصغير متجهًا إلى الصالة، تَرَك وراءه قصاصةً ورقية مطويةً على الأرض.

وجدها هوريس، الذي كان في أشد حالات النشوة والابتهاج، حين كان عائدًا إلى غرفة ألعاب الورق، وسلَّمها إلى اللورد فيرلوند الذي قرأها بلا أيِّ تردُّد بعد أن اختلى بنفسه في غرفة مكتبه وابتسم بعد قراءتها.

(١٠) مهمة شُرطي

كان يعيشُ في حيٍّ «سومرز تاون» آنذاك رجلٌ ضئيل اسمه جيكوبس.

كان رجلًا طيب الخصال وإن كان تعيس الحظ تُلاحقه «لطخة من الماضي» غير أنَّ تلك اللطخة لم تصل إلى حدِّ الحُكم عليه بالسجن مُددًا طويلة. صحيحٌ أنَّه قد عوقب بالأشغال الشاقة لمدة ثلاثة أشهر في مرات كثيرة، لكنَّه لم يُعاقَب بالسجن قط.

كان رجلًا ضئيلَ الحجم ذابلَ الوجه ذا عينين سوداوين حادتين، يتسم بيقظته الشديدة في التصرف، واعتنائه بأن يكون حسن الهندام. كان يُعطي للمرء انطباعًا بأنَّه يستمتع بأحد أيام العُطلة، لكن إذا ذُكِر العمل بكدٍّ وإخلاص، فيُمكن القول إنَّ يومَ جيكوبس كان أبديًّا.

ظل السيد جيكوبس يتقاضى معاشًا من الكولونيل بلاك على مدار بضع سنوات. وفي أثناء تلك الفترة الزمنية، عاش ويلي جيكوبس حياة النبلاء، ويجب أن نوضح أنَّه قد عاش هذه الحياة على النحو الذي يراه أكثر توافقًا مع الوضع المثالي، وليس تلك الحياة التي تعيشها الطبقات الأغنى في العادة.

كانت تمرُّ به أوقاتٌ يعيش فيها كأنَّه لورد — وتجدر الإشارة هنا مرَّة أخرى إلى أنَّ ذلك كان وفق معاييره الخاصة — لكنَّ هذه الأوقات كانت تأتي على فتراتٍ متقطِّعة نادرة؛ إذ لم يكن الإسراف من طبع ويلي، لكنَّ المؤكَّد أنَّه عاش حياة النبلاء، مثلما اتَّفق على ذلك جميع أهالي «سومرز تاون»، إذ كان يَخلد إلى النوم وقتما يشاء، وينهض من فراشه في الشروق مع تلك الطيور الصدَّاحة التي تُحلِّق خارج أعشاشها آنذاك، أو يبقى في الفراش ويقرأ جريدته المفضَّلة.

وكان رجلًا ثريًّا؛ إذ لم يَفتقر قَط إلى عملةٍ نحاسية يشتري بها نصف باينت من شراب المَزَر، ولم يكن يُبالي بإنفاق شلنٍ على أحد سباقات الخيل بأكثر ممَّا قد أبالي أنا أو أنت، حتى إنَّ البعض كان يعتقد أنَّه يتناول فطوره في الفراش، وتلك علامةٌ حقيقية على الترف والثراء بكلِّ المعايير.

كانت تصل إليه في صباح كلِّ سبت حوالةٌ بريدية بقيمة جنيهين إسترلينيين من فاعل خيرٍ لم يكن يطلب من مُتلقِّي الحوالة إلَّا أن يكون سعيدًا وينسى تمامًا أنَّه قد رأى في حياته تاجرًا موقَّرًا في الأوراق المالية والأسهُم يُفتِّش في جيوب رجلٍ ميت ليسرق ما فيها.

ذلك أنَّ وليام جيكوبس قد رأى ذلك بالفعل.

كان ويلي لصًّا، بل وُلِد لصًّا، ولم يكُن يُخفي فخره بمهارة خفَّة اليد التي توارثتها سلالته أبًا عن جد. ولم يكن هدفه الأبرز من الالتحاق بشركة «بلاك وشركاؤه» هو التأهُّل لتقاضي معاشٍ بعد عشرين عامًا من ذلك الوقت بقدرِ ما كان يأمل في جني أرباحٍ فورية، حتى وإن بدا ذلك مستبعدًا آنذاك. لقد كان يَسترشد بالمبادئ نفسها التي كانت تُحرِّك رئيس شركته.

كان مجلس الإدارة يضمُّ عضوًا بغيضًا — أو بالأحرى بغيضًا للكولونيل بلاك اللطيف — مات فجأة. وتَوصَّل التحقيق القضائي الذي أُجري لاحقًا إلى استنتاجٍ مفادُه أنَّه قد مات بسبب فقدان الوعي نتيجة هبوط حادٍّ في الدورة الدموية، وحتى ويلي لم يكن يعرف أكثر من ذلك. لقد تسلَّل خلسةً ذات مرَّة إلى غرفة مكتب المدير العام في أثناء سير العمل المعتاد، وقد كان السيد جيكوبس معتادًا على أن يَسرق خلسةً؛ وذلك بالمعنيين الحرفي والمجازي. كان يبحث عن طوابع بريدية مهملة وعملاتٍ معدنية مفروطة كتلك التي يُمكِن العثور عليها في مكتب رجلٍ معروف بإهماله ولا مبالاته بفُتات العملات المعدنية القليلة. كان يتوقَّع أن يَجد الغرفة فارغة، لكنَّه شُلَّ لحظيًّا حين رأى بلاك الضخم بنفسه ينحني فوق جسد رجلٍ راقد، ويُفتِّش جيوب جثَّته بهمَّةٍ بحثًا عن رسالة؛ إذ كان الرجل الصامت المُستلقِي على الأرض قد جاء إلى بلاك يَحمل استقالته في جيبه وبمُنتهى الطيش قد أورد في هذه الرسالة أسباب استقالتِه. وقد كان التصرُّف الأكثر رعونة على الإطلاق هو أنَّه كَشَف للكولونيل بلاك عن وجود هذه الرسالة الفاضِحة.

لم يكن ويلي جيكوبس يعرف شيئًا عن الرسالة، ولم يَجِد تفسيرًا دقيقًا للمحفظة التي رآها في حالةٍ فوضوية. وظنَّ بتفكيره الساذج أنَّ الكولونيل بلاك كان يبحث عن مال،

لكنَّه كان يبحث في حقيقة الأمر عن طابعٍ بريدي يمثل له أهمية كبيرة. ومن فرط اهتياجه، أفصح جيكوبس عن ذلك الظن بلا تفكير.

وفي التحقيق الذي أُجريَ لاحقًا، لم يُدلِ السيد جيكوبس بشهادته؛ إذ لم يكن يعرف شيئًا عن المسألة على الصعيد الرسمي. غير أنه قد تقاعَدَ ولزم بيته الواقع بحيٍّ «سومرز تاون»، وصار يتلقَّى معاشًا قد خُصِّص له مدى الحياة شريطةَ استمرار سكوته. وبعد ذلك بعامين، في صبيحة أحد أيام عيد الميلاد، تلقَّى السيد جيكوبس في البريد علبةً جميلة جدًّا من الشوكولاتة، مصحوبة بعبارة «مع أطيب التمنِّيات»، من شخصٍ لم يُكلِّف نفسه عناء إرسال اسمه. ولأنَّ السيد جيكوبس لم يكن من محبِّي رقائق الشوكولاتة، تساءل بينه وبين نفسه عن تكلفة تلك العلبة وتمنَّى لو أنَّ ذلك المُهدِي اللطيف قد أرسل له الجعة بدلًا منها.

قال وهو يَرمي عيِّنةً من تلك الحلوى إلى كلبه الذي كان يحب الحلويات: «هيا يا سبوت، تلقَّف هذه!»

فأكلها الكلب وهو يهزُّ ذيله، ثم توقَّف عن هزِّ ذيله، وخرَّ صريعًا على الأرض بارتجافةٍ في جسده.

مرَّ بعض الوقت قبل أن يُدرك ويلي جيكوبس العلاقة بين جثَّة كلبه الصغير الهامدة وبين تلك الهدية اللطيفة المنمَّقة التي تلقاها في عيد الميلاد اللطيفة.

جرَّب قطعةً من الشوكولاتة على كلب صاحب البيت الذي يسكنه فمات، ثم جرَّب قطعةً أخرى على كناري أحد رفاقه من سُكَّان البيت، فمات هو الآخر، وقد كان من الممكن أن يُهلِك جميع الحيوانات المنزلية الأليفة في «سومرز تاون» لولا التدخُّل في الوقت المناسب من صاحب البيت، الذي اتهمه بالمسئولية عن جريمة القتل الأولى وسلَّمه إلى الشرطة. وظهرت الحقيقة؛ كانت قطع الشوكولاتة مُسمَّمة. وَجَد ويلي جيكوبس صورته منشورة في الصحف العامة على أنَّه بطلُ قضيةِ تسميم غامضة، وقَد سبَّب هذا مأزقًا لويلي؛ إذ تعرف عليه من صورته أحد تجار حيِّ «كانينج تاون»، الذي احتال عليه ويلي ذات مرَّة، واعتُقِل ويلي مرَّة ثانية في أسبوعٍ واحد.

خَرَج ويلي من الإصلاحية (بعدما قضى فيها عقوبة ثلاثة أشهر) متوقعًا أن يجد في انتظاره كومةً من الحوالات البريدية، التي تبلغ قيمة كلٍّ منها جنيهًا. غير أنَّه قد وجد عملة ورقية من فئة خمسة جنيهات ورسالةً مكتوبة بالآلة الكاتبة على ورقةٍ ذات لونٍ واحد لا

تفصح عن أي معلومات وتقول في فحواها إنَّ المُرسِلَ يعرب عن أسفه ويخبر المتلقِّي بألَّا يتوقع أيَّ أموالٍ أخرى بعد ذلك.

فأرسل ويلي رسالةً إلى الكولونيل بلاك، وتلقَّى الردَّ في رسالةٍ قيل فيها إنَّ «الكولونيل بلاك لم يفهم محتوى رسالتك التي بعثت بها في الرابع من الشهر؛ فهو لم يُرسل أموالًا قَط، ولا يفهم السبب في أنَّ مُرسل الرسالة يتوقَّع منه مالًا.» وأشياء من هذا القبيل إلى آخر الرسالة.

غاضبًا ومتألِّمًا من غشِّ راعيه وجحوده الخسيس، أخذ ويلي الرسالة إلى محامٍ وسَرَد له ما حدث، فقال المحامي كلمةً واحدة: «ابتزاز!» وحينئذٍ، اضُطرَّ ويلي، الذي كان ساخطًا، إلى العمل؛ أي إلى الاعتماد على شراء تذاكر اليانصيب والغنائم المنهوبة النفيسة. ومن حسنِ حظِّه أنَّ يُمناه لم تكن قد فقدت براعتها، ولا فقدتها يُسراه في واقع الأمر. كان «ينتقي» أشياء مميزة، ويبيعها لتاجر المسروقات الجديد في شارع «إيفزويل رود» (والذي اعتُقِل وسُجِن في نهاية المطاف لأنَّه كان مجرد هاوٍ وكان يَشتري المسروقات بأكثر مما تستحق). وقد تصرَّف ويلي تصرُّفًا حسنًا، بل ممتازًا في الواقع، بأنَّه مال إلى تبنِّي رأيٍ مُعتدِل عن جرائم بلاك.

وفي أمسية مأدبة العشاء التي أقامها اللورد فيرلوند، خَرَج جيكوبس من مسكنه عازمًا على العمل وكسب رزقه بغنيمةٍ من هنا أو هناك، غير أنَّ الإنصاف يُحتِّم علينا الاعتراف بأنَّه لم يكن يعرف شيئًا عن خطط سيادته. شقَّ طريقه عبر الفناء الصغير والأزقَّة التي كانت تفصله عن شارع «ستيبنجتون ستريت»، ثم اتَّجه من هناك جنوبًا نحو شارع «يوستن رود»، وتمهَّل في طريقه حتى وصل إلى شارع «توتنهام كورت رود»، ومنه إلى شارع «أكسفورد ستريت».

كان شارع «توتنهام كورت رود» في تلك الليلة بالذات مليئًا بأناسٍ مُنشغِلين؛ كانوا منشغلين بنوافذ العرض في المتاجر، أو منشغلين بعضهم ببعضٍ، أو مُنشغلين بالصعود على متن الحافلات أو الترجُّل منها. وقد كان ذلك حشدًا مثاليًّا من وجهة نظر جيكوبس؛ إذ كان يُعجَب بالأشخاص الذين يُركِّزون، الذين يُسلِّطون انتباه عقولهم على شيءٍ واحد ولا ينشغلون بأيِّ شيء سواه. يُمكن القول إنَّه كان أشبه بخبيرٍ نفسي من منظورٍ ما، وقد نَظَر حوله ليعثر على شخصٍ ثريٍّ لعلَّه يَنتفِع من قوى تركيزه.

وفي تلك الأثناء، كان حشدٌ صغير من الناس قد اجتمعوا حول درجات سلم حافلةٍ عمومية ينتظرون بفارغ الصبر نزول الركاب الآخرين، وهناك وقَعت نظرات جيكوبس السريعة الثاقبة على زبونٍ محتمَل.

كان رجلًا بدينًا في منتصف العمر. وكانت قبَّعته موضوعةً على رأسه بزاويةٍ جعلت ساكنَ حيِّ «سومرز تاون» يستنتج أنَّه «ثملٌ». وربما كان مُحِقًّا في تخمينه، لكن يكفيه أنَّ الرجل قد بدا له ثريًّا، وليس ذلك بسبب معطفه المصنوع من خامةٍ جيدة فحسب، بل بدت عليه أيضًا أمارات أخرى تدلُّ على التباهي وتُبرهن على ثرائه الحالي. لم يكن ويلي جيكوبس ينوي ركوب الحافلة إطلاقًا، وأشكُّ بشدة فيما إذا كان قد غيَّر نيته حتى في ذلك الوقت، لكنَّ المؤكَّد أنَّه بدأ يشق طريقه بمرفقه وسط الحشد الصغير الذي كان محيطًا بالحافلة، والذي كان بحلول ذلك الوقت يندفع نحوها من أجل الصعود على متنها.

بدا أنَّ جيكوبس قد حَصَد ثمار شقِّ طريقه وسط الحشد؛ إذ توقَّف فجأة كأنَّه تذكَّر موعدًا أو عملًا شديد الأهمية، ثم بدأ يتراجع. وحالَما وصل إلى أطراف الحشد المتكدِّس الصغير، استدار ليبتعد بسرعة.

وحينئذٍ سَقَطت يدٌ قوية ثابتة على كتفِه بطريقةٍ وُدِّية بعض الشيء. فنَظَر حوله بسرعةٍ ووجد شابًّا طويلًا ذا ثيابٍ مدنية يقف وراءه.

قال الشاب بلُطفٍ كبير: «مرحبًا! ألن تركب؟»

فقال جيكوبس: «كلا يا سيد فيلو. كنتُ على وشك المغادرة، لكنِّي تذكرتُ أنني تركت موقد الغاز مشتعلًا في المنزل.»

قال الشرطي فيلو الذي كان في مهمة خاصةٍ جدًّا في تلك الليلة: «هيا نعود ونُطفئه.»

فقال جيكوبس بنبرةٍ تأمُّلية: «لقد فكرت مجددًا وغيَّرت رأيي، ولا أظنُّ أنَّ الأمر يستحق عناء الرجوع إلى المنزل. ففي كلِّ الأحوال، إنَّه إحدى تلك الآلات التي تعمل بوضعِ بنسٍ في الشقِّ المخصص له، وكل ما سيحدث أنه سينطفئ تلقائيًّا بعد استهلاك كمية الغاز المحددة.»

فقال فرانك بحسٍّ فكاهي: «إذن، فلتأتِ معي وترَ ما إذا كان موقدي مُشتعِلًا.»

أمسك ذراع الآخر برفق، لكن حين حاول جيكوبس تخليص نفسه، وجد أن الضغط على ذراعه قد ازداد؛ فسأله ببراءة: «ما الخطب؟»

قال فرانك بابتسامةٍ صغيرة: «الخطب المُعتاد نفسه. وي! لقد أسقطتَ شيئًا يا ويلي.»

انحنى بسرعة، دون أن يُفلتَه من قبضته، والتقط محفظةً من فوق الأرض.

كانت الحافلة على وشك الانطلاق حين استدار فرانك سريعًا وأوقف مُحصِّل التذاكر بإشارةٍ منه، ثم قال له: «أظنُّ أنَّ أحد الركاب الذين ركبوا حافلتك للتو قد أضاع محفظة. أظنُّه ذلك الرجل السمين الذي دخل للتو.»

فترجَّل الرجل السمين من الحافلة ليُفتِّش ثيابه علانية. واكتشف أنَّه قد فقَدَ العديدَ من الأغراض التي كان يَنبغي أن تكون بحوزتِه وَفْق كلِّ القوانين المتعلقة بحقوق الملكية.

وبعد ذلك أخذت المسألة مجرًى عاديًّا جدًّا. قال ويلي بهدوءٍ بالرغم من ورطته: «اعتقالٌ عادل لأنني أخطأت بالفعل. لم أرك في أرجاء المكان يا سيد فيلو.»

«أجل، أظنُّك لم ترني بالرغم من أنني ضخم جدًّا.»

فأضاف ويلي بحيادية: «وقبيح جدًّا.»

فابتسم فرانك، وسأله مازحًا بينما كانا يشقان طريقهما ببراعةٍ عبر الشوارع التي كانت تَفصلُهما عن أقرب مركز شرطة: «ليست لديك خبرةٌ كبيرة في الجمال، أليس كذلك؟»

قال ويلي: «آه، لا أعرف. الجمالُ جمالُ الأفعال لا المظهر. قُل لي يا سيد فيلو، لماذا لا تلاحق الشرطة رجلًا مثل أولوروف؟ لماذا يشغلون بالهم بنشَّالٍ صغير مثلي، وأنا أكسبُ رزقي بمشقَّةٍ كبيرة، إن جاز هذا التعبير؟ إنَّه رجلٌ يَجني الآلاف ويُبدِّد المئات. هل تستطيعون أن تزجُّوا به في السجن مدَّة طويلة؟»

قال فرانك: «أرجو أن نستطيع ذلك عندما يحين الوقت المناسب.»

فقال ويلي: «ثمة رجل! يُغري الموظَّف المكتبي البسيط المسكين؛ إذ يجعله يدفع ورقةً نقدية بخمسة جنيهات ليشتري مناجم ذهب قيمتها مليون جنيه. فيدفعها الموظَّف المكتبي؛ إذ يسرق النقود من دُرج النقود، ولا يعني ذلك أنَّه محتال، إن صحَّ التعبير من منظورٍ ما، لكنَّه يأمل أن يدخل يومًا ما على رئيسه مكسوًّا بالصيت والألماس، ويقول له: «انظر إلى هوريس الذي لم تره منذ أمدٍ بعيد!» أتفهمُ قصدي؟»

أومأ فرانك برأسه.

واصَل جيكوبس حديثه بلسان ذاك الموظف سارحًا بمخيلته بعيدًا: «انظر إلى أمين الصندوق الذي كان يعمل لديك وصار مترفًا. سَلِّط أنوار مصابيحك على أشيائي اللامعة، مرِّر قبضتيك على ياقتي المصنوعة من فروِ الحُمْلان. يا سيدي، هذا أنا، خادمك.»

ولا عَجَب في أنَّهما تحدَّثا عن بلاك؛ إذ كانت المحكمة قد شهدت في ذلك اليوم قضيةً رَفَع فيها زبونٌ شديد السذاجة من زبائن بلاك، كان قد عانى الأمرَّين جراء سذاجته تلك؛ دعوى على الكولونيل مُطالبًا إيَّاه بردِّ أمواله، ولم تشهد القضية أيَّ دفاعٍ عن المُدَّعى عليه.

قال جيكوبس منهمكًا في الذكريات: «كنتُ أعملُ لديه. مرسالٌ مقابل تسعة وعشرين شلنًا في الأسبوع. كنت كمرسالٍ في مشرحة.» رفع ناظريه نحو فرانك، وسأله: «هل سَبَق لك أن أحصيت عدد أصدقاء بلاك الذين ماتوا فجأة؟ هل سَبَق لك أن حَسبتهم؟ إنَّه شجرة عناب لا تنضب. إنَّه كذلك بالفعل.»

فقال فرانك بلُطف: «أظنك تقصد شجرة أوباس، يا ويلي.»

حذَّره السيد جيكوبس بنبرةٍ مرحة قائلًا: «إنك تنتظرُ حتى يعاقبه الأربعة، لكنهم لن يقضوا عليه إطلاقًا.»

سكت بُرهةً بعدئذٍ، ثم التفت فجأة إلى فرانك.

قال بالأُلفة الصارخة التي يشعر بها شخصٌ قد اعتاد الوقوع في الأسر في التعامل مع آسره: «آه، لقد تذكرتُ بالمناسبة، هذه هي المرة الثالثة التي تَقبض عليَّ فيها.»

فاعترف فرانك بذلك بنبرةٍ مرحة قائلًا: «آه بالمناسبة، هذا صحيح.»

توقَّف السيد جيكوبس فجأة وتفقَّد الآخر بهيئةٍ متحيرة، وقال: «تمهَّل لحظة! لقد قَبَض عليَّ في شارع «توتنهام كورت رود»، وقَبَض عليَّ في شارع «تشارينج كروس رود»، واعتقَلني في شارع «تشيبسايد».»

فابتسم الشاب قائلًا: «لديك ذاكرةٌ رائعة.»

قال السيد جيكوبس لنفسه: «لم يقبض عليَّ قَط في أثناء تأدية خدمته، بل دائمًا ما كان يقبض عليَّ وهو يرتدي الثياب المدنية، وهو عادةً ما يراقبني، فلماذا إذن؟»

فكَّر فرانك لحظةً. ثم قال: «تعالَ معي واحتسِ كوبًا من الشاي يا ويلي، وسأقصُّ عليك قصةً خيالية.»

فقال ويلي بأكثر أساليبه حصافة: «أعتقد أننا سنعرف الحقائق قريبًا جدًّا.»

قال فيلو حين كانا قاعدين في مقهى مجاور: «سأكون صريحًا تمامًا معك يا صديقي.»

فترجَّاه ويلي قائلًا: «أفضِّل أن أناديك باسم عائلتك إذا سمحت لي؛ لا أريد أن يَذيع بين الناس أنني صديقك.»

ابتسم فرانك مجدَّدًا؛ إذ كان دائمًا يجد في ويلي شخصًا مُسلِّيًا، ثم قال: «لقد قبضتُ عليك ثلاث مرات، وهذه هي المرة الأولى التي تذكرُ فيها صديقنا بلاك. وأرى أنَّك لو ذكرته من قبل، لربما أحدَث ذلك فرقًا كبيرًا لك يا ويلي.»

فقال السيد جيكوبس مُخاطبًا السقف: «بالمناسبة، لقد لَمَّح إليَّ بذلك ذات مرة من قبل.»

فقال فرانك: «وها أنا أُلِّح إليه مرة أخرى. هل ستُخبرني لماذا يدفع لك بلاك جنيهَين أسبوعيًّا؟»

فقال ويلي فورًا: «لأنَّه لم يَعُد يدفع؛ لأنَّه لص ماكر حقير، لأنَّه محتال، لأنَّه كاذب ...»

فقال الشرطي فيلو باللهجة العامية: «إذا تبقَّى أيُّ سببٍ لم تَذكرْه، فلتُخبرني به.»

تردَّد ويلي، وسأله: «وماذا سأستفيد إذا أخبرتك؟ لا شكَّ أنَّك ستقول لي إنني لستُ سوى كاذب.»

فقال له فرانك: «جرِّبني.» وظلَّا يتحادثان ساعةً كاملة، شرطيًّا مع لص.

وبعد ذلك، مضى كلٌّ منهما في طريقٍ مختلف؛ ذهب فرانك إلى مركز الشرطة، حيث وجد صاحبَ عَقارٍ حانقًا في انتظاره، واتجه جيكوبس إلى مسكنه في «سومرز تاون» وهو يشعر بالامتنان وتوجَّس القلق في الوقت ذاته.

اكتملت مهمة فرانك في مركز الشرطة، وتناوبَت براثنُ الانزعاج والحيرة على افتراس أحد رُقباء المركز بسبب السلوك الشاذ الذي أبداه شرطيٌّ في ثيابه المدنية كان يُصدِر الأوامر بثقةٍ شديدة كأنَّه مفوض مساعد، ثم استقلَّ فرانك سيارة أجرة، واتَّجه بها أولًا إلى بيت بلاك، ثم إلى «هامبستيد» (وقد أمر السائق بخرقِ كلِّ القواعد الموضوعة لتنظيم المرور).

كانت ماي ساندفورد تنتظر الكولونيل. وقفت أمام مدفأة غرفة الجلوس، بينما كانت تُغلق أزرار قفازها وتحاول جاهدةً إخفاء سعادتها بأنَّ صديقها القديم قد أتى.

كانت أولى تحيَّاته الفظَّة التي قابل بها الفتاة هي أنَّه سألها: «إلى أين أنت ذاهبة؟»

تحكمت الفتاة في مشاعرها، وقالت بهدوء: «لا يحقُّ لك أن تسأل بهذه النَّبرة، لكني سأُخبرك. ذاهبةٌ إلى تناول العشاء.»

«مع من؟»

فبدأ وجهُها يحمر من شدة الانزعاج، وقالت وهي تحاول كبح جماح غضبها المتأجج: «مع الكولونيل بلاك.»

فهزَّ رأسه، وقال ببرود: «يُؤسفني القولُ إنني لا أستطيعُ السماح لكِ بالذهاب.»

حدجته الفتاة بعينيها، وقالت بكبرياء هادئة: «سأقول ذلك قولًا واحدًا قاطعًا لن أكرره أبدًا يا سيد فيلو، عليك أن تفهم أنني سيدة نفسي، ولي أن أفعل ما أشاء. لا يحقُّ لك أن تُمليَ عليَّ أوامرك، لا يحقُّ لك إطلاقًا.» طَرقت الأرض بقدمها بغضبٍ شديد، وتابعت: «لا يحق لك أن تُمليَ عليَّ ما أفعله وما لا أفعله. سأذهب إلى حيث أشاء ومع من أشاء.»

قال فرانك بقسماتٍ مُتجهِّمة جادة: «لن تَخرُجي الليلة بأيِّ حالٍ من الأحوال.»

فتورَّدت وجنتاها تورُّد الغضب، وقالت: «إذا أردتُ أن أخرج الليلة، فسأَخرُج الليلة.»

فقال لها: «لن تفعلي شيئًا كهذا في الواقع.» كان باردًا جدًّا آنذاك — كان سيد نفسه — ورابطَ الجأش تمامًا.

أضاف: «سأَقضي بقية الليلة خارج هذا البيت. وإذا خرجتِ مع ذلك الرجل، فسأَعتقلُك.» فانتفَضَت وتراجَعت خطوةً إلى الوراء، فيما واصل الحديث بإصرار وقال: «سأَعتقلُك. ولا أكترث بما سيحدث لي بعدئذ. سأُلفِّق أيَّ تهمةٍ ضدك. سأقتادكِ إلى مركز الشرطة عبر الشوارع، وأزجُّ بكِ في قفص الاتهام الحديدي كأنَّكِ لصةٌ عادية.» ثم قال بعاطفةٍ ملتهبة: «سأفعل ذلك لأنني أحبك؛ لأنَّك أهم ما لديَّ في هذه الدُّنيا، لأنني أحبك أكثر من حياتي، أكثر ممَّا تُحبِّين نفسك، أكثر ممَّا يُمكن أن يحبك أيُّ رجل.» وأضاف بجدِّية: «هل أُخبركِ بالسبب في أنني سآخذكِ إلى مركز الشرطة؟ لأنَّكِ ستُصبحين في مأمنٍ هناك، والنسوة اللواتي سيَعتنين بكِ هناك لن يَسمحْنَ لأيِّ كلبٍ مثل هذا الرجل بالاقتراب منكِ، لأنَّه لن يجرؤ على ملاحقتكِ هناك، مهما كان ما يجرؤ عليه من أفعالٍ أخرى. أمَّا بخصوصه …»

استدار فرانك بحدةٍ شديدة بينما دَخَل بلاك الغرفة مُتألِّقًا. فتوقَّف بلاك حين رأى وجه فرانك، ودَسَّ يده في جيبه سريعًا.

قال فرانك: «خذ حِذْرك منِّي.» فابيضَّ وجه بلاك من شدة الشحوب.

استعادت الفتاة قدرتها على النُّطق وقالت هامسة: «كيف تجرؤ، كيف تجرؤ؟!» ثم أضافت بحنق: «تقول لي إنَّك ستعتقلني! كيف تجرؤ! وتقُول إنَّك تحبني!»

أومأ ببطء، ثم قال بهدوءٍ كبير: «نعم. أحبك. أحبكِ كثيرًا إلى حدٍّ يجعلكِ تكرهينني. هل يُمكنني أن أحبكِ أكثر من ذلك؟»

كانت نبرته مُفعَمةً بالمرارة، ويشوبها شيءٌ من العجز أيضًا، لكنَّ التصميم الكامن في كلماته كان جليًّا كالشمس. لم يتركها حتى رَحَل بلاك، وفي خِضمِّ اضطرابه، الذي يُمكن أن يُغفَر له، نسي أنَّه كان يعتزم تفتيش الكولونيل بحثًا عن قنينةٍ خضراء ذات سدادةٍ زجاجية.

عاد الكولونيل بلاك إلى شقته تلك الليلة ليجد أدلةً جليَّةً على أنَّها فُتِّشَت تفتيشًا منهجيًّا جدًّا. بيد أنَّه لم يجد دليلًا على كيفية دخول أولئك الزوَّار. كانت أبواب الغرف مفتوحةً مع أنَّه تركها موصدةً بمفتاح ليس له نسخةٌ أخرى وأقفالٍ كان من الواضح أنَّه لا يُمكن فتحها عنوةً بأيِّ أداة. كانت النوافذ سليمة، ولم تظهر أيُّ محاولةٍ لنهب الأموال

والأغراض الثمينة من المكتب الذي فُتِّشَ بدقة. وكان الدليل الوحيد الذي تركه أولئك الزوار على هويتهم هو الختْم الذي وجد بلاك أنَّ لوحَ الورق النشَّاف على مكتبه قد دُمِغ به.

اتَّضح حينئذٍ أنَّهم مارسوا عملهم المنهجي، ثم أسقطوا قطرةً دائرية مُحكَمة من شمع الختم، وضغطوا ختم المنظمة عليها بإحكامٍ مُماثل. لم يتركوا أيَّ رسالةٍ أو معلومة أخرى، لكنَّ هذا الختم البسيط الذي كان يشير إلى الرمز IV، أي الرقم «٤»، كان مُرعبًا بعض الشيء بحدِّ ذاته. لقد بدا أنَّ أعضاء منظمة «الأربعة» تحدَّوا كل جهوده التحصينية، واستهزءوا بأقفاله الممتازة، وكانوا يعرفون عن تحرُّكاته أكثر ممَّا يعرف أقرب أصدقائه، وانتقوا الأوقات المناسبة لهم لإجراء زياراتهم.

كان ذلك ليقلق رجلًا أضعف شخصيةً من بلاك، لكنَّ بلاك كان رجلًا قد تحمل الكثير على مدار عشرين عامًا، وقد تخلَّل كلَّ عامٍ منها أفظعُ التهديدات على فترات منتظمة. لقد عاش طوال حياته الماضية في ظلال الثأر، لكنَّه لم يتعرَّض للعقاب قَط.

كان من أبرز ما يفتخرُ به بحرارةٍ أنَّه لم يفقد أعصابه قَط، وأنَّه لم يفعل أي شيء قَط في نوبة انفعال. والآن، ربما لأولِّ مرة في حياته، كان يعتزم التصرُّف بدافعٍ أكبر من المصلحة الذاتية؛ دافع الانتقام.

وقد جعله ذلك أقلَّ حذرًا ممَّا أراد أن يكون عليه؛ فلم يحترس في تلك الليلة من المُتعقِّبين السريِّين، وقد كان هناك غير واحد منهم.

(١١) إلى سباقات لنكولن

ذهب السير آيزاك ترامبر إلى لنكولن بمزاجٍ عكر. كان قد حَجَز مقصورةً في القطار، ولَعَن حظَّه حين اكتشف أنَّ مقصورته مُلاصِقةٌ لمقصورة هوريس جريشام.

سار جيئةً وذهابًا على رصيف محطة «كينجز كروس» الطويل مُنتظرًا ضيوفه. كان إيرل فيرلوند قَد وعده بالذهاب معه وإحضار الليدي ماري، وقد انزعج السير آيزاك حين رأى على العربة المُجاوِرة مُلصقًا كُتِب عليه: «محجوزةٌ للسيد هوريس جريشام ورفقته.»

أتى هوريس قبل حوالي خمس دقائق من انطلاق القطار، وكان مُبتهجًا مُشرِقًا كشمس الظهيرة، على العكس تمامًا من السير آيزاك، الذي لم يقضِ ليلته الماضية بحكمةٍ. أومأ هوريس بلا مبالاة ردًّا على تحية السير آيزاك التي كانت شِبه غير ملحوظة.

نَظَر البارونيت إلى ساعته، ولَعَن الإيرل العجوز وتقلُّباته المزاجية في سرِّه. لم يكن متبقيًا على موعد انطلاق القطار سوى ثلاث دقائق. وبينما كان لسانه يصوغ اتهامات لاذعة للرجل العجوز، لَمَح قامته الطويلة النحيلة تقطع رصيف المحطة بخُطًى واسعة.

سأله الإيرل وهو يتَّجه إلى المقصورة: «لقد اعتقدتَ أننا لن نأتي، أليس كذلك؟» كرَّر سؤاله بينما كانت الآنسة ماري تدخل المقصورة بمساعدة خرقاء من السير آيزاك: «أقول إنَّك ظننتَ أننا لن نأتي، أليس كذلك؟»

فقال آيزاك: «حسنًا، لم أتوقع أنَّكما ستتأخَّران.»

فقال الإيرل: «لم نتأخر.»

جلس بارتياحٍ على مقعدٍ في رُكن العربة، وهو المقعد الذي كان السير آيزاك قد رتَّبه خصِّيصى للفتاة. مرَّ بالسير والرجل العجوز بعضٌ من أصدقائهما وأومئوا لهما. واقترب منهما بضعة من الفضوليِّين ليتحدَّثوا إليهما.

سأل أحد الشبان المتسكعين: «هل أنت ذاهبٌ إلى «لنكولن» أيُّها اللورد فيرلوند؟»

فقال الإيرل بلُطف: «لا، بل ذاهبٌ إلى الفراش مُصابًا بالنُّكاف.» قال هذه الكلمة الأخيرة مزمجرًا، ففرَّ الشاب السائل عن المعلومة.

ثم قال الرجل العجوز للسير بحدة: «يُمكنك أن تقعد بجواري يا آيكي، دَع ماري وشأنها. أريدُ معرفة كلِّ شيءٍ عن ذلك الحصان. إنني سأراهن بـ ١٥٠ جنيهًا على حصانك الأصيل هذا؛ لذا فهو أهمُّ كثيرًا من تلك الاستِفسارات السخيفة التي تعتزم طرحها عن ابنة أخي.»

قال السير آيزاك مُتذمِّرًا بامتعاض: «استفسارات؟»

فكرَّر الآخر قائلًا: «استفسارات! تريدُ أن تعرف هل نامت الليلة الماضية أم لا، وهل تشعر بدفءٍ كبير في هذه العربة أم لا، وهل تريد القعود على مقعدٍ في رُكن العربة أم وسطها، وهل تريد أن تقعد موجِّهةً ظهرها ناحية القاطرة أم موجِّهةً وجهها ناحية القاطرة. دَعها وشأنها. دَعها وشأنها يا آيكي. ستُقرِّر هي كلَّ ذلك بنفسها. أنا أدرى بها منك.»

حدَّق إلى الفتاة بذلك اللمعان المُسلِّي في عينيه، وقال لها: «الشاب جريشام في العربة المجاورة. اذهبي واقرعي النافذة وأحضريه إلى هنا. هيا اذهبي!»

فقالت الفتاة: «أظنُّ أنَّه بصحبة بعض الأصدقاء هناك أيُّها العم.»

قال فيرلوند بانفعال: «لا تكترثي بأصدقائه. ما الذي قد يكون مُهمًّا في أصدقائه بحقِّ الجحيم؟ ألستِ من أصدقائه؟ اذهبي واقرعي الباب وأحضريه.»

كان السير آيزاك يَستشيط غضبًا.

قال بصوتٍ عال: «لا أريده هنا. يبدو أنَّك نسيت يا فيرلوند أنَّك إذا أردت الحديث عن الخيول، فهذا هو الشاب نفسه الذي ينبغي ألا يعرف شيئًا عن «تيمبولينو».»

فقال الإيرل بانفعال: «وي! ألا تظن أنَّه يعرف كلَّ المعلومات الممكنة. ما فائدة الصُّحُف الرياضية في رأيك؟»

قال السير آيزاك بنبرةٍ تشير إلى أهمية ما يقوله: «لا تستطيع الصحف الرياضية إخبارَ رجلٍ بما يعرفه المالك.»

فقال الإيرل: «بل تُخبرني بأكثر ممَّا يعرف. كان حصانك مُفضَّلًا عند المُراهنين صباح أمس، لكنَّه لم يعُد كذلك يا آيكي.»

قال السير آيزاك متذمِّرًا: «لا يُمكنُني التحكُّم في قرارات الاستثمار التي يتَّخذها الأغبياء السُّخَفاء.»

فقال الإيرل بفظاظة: «ما عدا واحدًا. غير أنَّ هؤلاء الأغبياء السخفاء لا يُبدِّدون أموالهم هباءً؛ تذكَّر ذلك يا آيكي. حين تحضرُ سباقاتٍ بقدرِ ما حضرتُ أنا، وتجني أموالًا بقدرِ ما جنيتُ، لن تكترث برأي أصحاب الخيول عن خيولهم. فمن يطلبُ من صاحبِ حصانٍ معلوماتٍ غير متحيزة عن حصانه كمن يطلب من أمٍّ رأيًا صريحًا عن مفاتن ابنتها.»

كان القطار في تلك الأثناء قد انساب عَبر ضواحي لندن المكسوة بالسُّخام، وصار الآن يشقُّ الحقول الخضراء مسرعًا نحو بلدة «هاتفيلد». وكان ذلك يومًا ربيعيًّا رائعًا زاده ضوء الشمس جمالًا، يومًا يمكن للمرء المتصالح مع الدُّنيا أن يعيشه باستمتاعٍ تام.

غير أنَّ السير آيزاك لم يكن بهذه الحال السعيدة، ولم يكن في مزاجٍ يسمح بالحديث عن نزاهة هواة سباقات الخيول والمهتمِّين بها، ولا عن مسألة الرياضة نفسها عمومًا. لاحظَ الفتاة وهي تقوم وتذهب إلى رواق القطار بلا مبالاةٍ باديةٍ عليها، فأسرَّ باللعنات والسباب في قرارة نفسه. كان بإمكانه آنذاك أن يُقسِم على أنَّه سمع صوت نقرةٍ على نافذة المقصورة المُجاورة، لكنَّه كان مُخطِئًا في ذلك بالطبع؛ فكلُّ ما فعلته الفتاة أنَّها تحرَّكت في مجال بصر الرفقة الصغيرة الذين جلسُوا في تلك المقصورة يَضحكُون ويتحدثون، فخَرَجَ إليها هوريس فورًا.

حيَّته بقليل من التورُّد في وجنتَيها، قائلةً: «أؤكد لك أنَّ هذا ليس خطئي، بل كانت تلك فكرة العم.»

قال هوريس بعاطفةٍ مُلتهبة: «عمك رجلٌ راقٍ رائع. أتراجعُ عن أيِّ مذمَّةٍ ربما أكون قد تفوَّهت بها في حقه.»

قالت بجدِّيةٍ مُصطَنعة: «سأخبره.»

فصاح هوريس قائلًا: «لا، لا، لا أُريدكِ أن تفعلي هذا بالضبط.»

قالت فجأة: «أريد التحدث إليك بشدةٍ بشأن موضوعٍ مهم. تعال إلى مقصورتنا. العم والسير آيزاك منشغلان جدًّا بالحديث عن مزايا «تيمبولينو». أهذا هو اسمه الصحيح؟» فأومأ برأسه، واختلجت شفتاه على نحو يدلُّ على الاستمتاع. بينما اختتمت كلامها قائلة: «لدرجة أنَّهما لن يلاحظا أيَّ شيءٍ ممَّا سنقوله.»

وحين دخل المقصورة، أعطاه الإيرل العجوز إيماءةً مُقتضَبة فظَّة، بينما لم يُعطِه السير آيزاك سوى قَسَماتٍ مكفهرَّة. كان من الصعب أن يحافظ الشاب والفتاة على أيِّ

سرِّيةٍ في كلامهما، لكنَّهما اتَّبعا حيلة مُناوِرة بارعة؛ إذ كانا لا يتحدثان عن الأشياء الأهم إلَّا حين يكون الجدال بين السير آيزاك وضيفه المشاكس مُحتدمًا للغاية، وبذلك استطاعت الفتاة أن تزيح الهمَّ عن بالها.

قالت بنبرةٍ خفيضة: «أنا قلقةٌ بشأن العم.»

فسألها هوريس: «أهو مريض؟»

هزَّت رأسها وقالت: «لا، لا أقصد مَرَضه، وإن كان ذلك محتملًا، لكنَّه شخصٌ شديد التناقض، وأخشى أن يؤذيَنا ذلك. تعرفُ كم كان راغبًا في أن ...» تردَّدت هنا، بينما بحثت يده عن يدها وأمسكتها تحت ستارِ جريدةٍ مفتوحة.

هَمَس قائلًا: «كان ذلك رائعًا، أليس كذلك؟ لم أتوقَّع قَط، ولو لحظةً واحدة، أنَّ الشيط...» وحينها صحَّح لنفسه بسرعةٍ قائلًا: «أنَّ عمَّك العزيز كان سيقتنع بمثل هذه السهولة الكبيرة.»

أومأت برأسها مرَّة أخرى، وقالت وقد استغلَّت جدالًا آخر قد احتدم بين الرجل العجوز والبارونيت المنفعل: «حسنًا، إنَّ ما يفعله باندفاعٍ شديد يُمكن أيضًا أن يُبطله بسهولةٍ مماثلة. أنا خائفة جدًّا من أن ينقلب ويُمزقك.»

قال هوريس: «دعيه يُحاول؛ فأنا لا أمزَّق بسهولة.»

وحينها قوطع كلامهما فجأة بتدخُّل الرجل الذي كانا يتحدَّثان عنه.

صاح الإيرل بنبرةٍ حادة قائلًا: «أصغِ إليَّ يا جريشام. أنت واحدٌ من العالمين ببواطن الأمور، وأظنك تعرف كلَّ شيء؛ فمَن هم رجال العدالة الأربعة الذين أسمع الناس يتحدَّثون عنهم؟»

كان هوريس يُدرك أنَّ عيني السير آيزاك تُحدِّقان إليه بفضول؛ إذ لم يكن بالرجل الذي يُخفي شكوكه.

قال هوريس: «لا أعرف أكثر ممَّا تعرفه. إنني أراهم مجموعةً رائعة تعمل على تقويم الشرور الاجتماعية.»

فصاح الإيرل مزمجرًا وقد عبس من تحت حاجبَيه الكثيفَين: «مَن هم ليُقرِّروا ما الشر وما الذي ليس شرًّا؟ أي سفاهة لعينة تلك! فلماذا إذن ندفع رواتب القضاة والمحلَّفين والمحقِّقين في أسباب الوفيات والشرطيِّين ومثل هؤلاء الناس، هاه؟ لماذا ندفع الضرائب والإيجارات والضرائب المخصصة للشرطة ورسوم استهلاك الغاز ورسوم استهلاك المياه، وكلَّ نوع من أنواع الرسوم اللعينة التي يمكن لمهارة الإنسان أن تبتدعها؟ هل نفعل

ذلك كي يتسنَّى لأولئك الوقحين أن يأتوا ويتدخَّلوا في سير العدالة؟» وصَرَخ بعنفٍ: «هذا سخيف! هذا غير معقول!»

فمَدَّ هوريس يده معترضًا، وقال: «لا تَلُمْني أنا.»

فاتَّهمه الإيرل قائلًا: «لكنَّك تستحسن وجودهم. آيكي يقول ذلك، وآيكي يعرف كلَّ شيء، ألست كذلك يا آيكي؟»

فتململ السير آيزاك في مقعده، وقال بأسلوبٍ واهٍ غير مقنع: «لم أقل إنَّ جريشام يعرف أيَّ شيء عن ذلك.»

فسأله العجوز بانفعال: «لماذا تكذب يا آيكي؟ لماذا تكذب؟ لقد أخبرتني للتو بأنَّك على يقينٍ تام من أنَّ جريشام كان أحد المؤيدين الرئيسيين للعصابة.»

اكتسى وجه السير آيزاك، الذي كان مُعتادًا على تصرُّفات أصدقائه الطائشة الفظَّة، بحُمرةٍ باهتة، وقال بارتباكٍ وقليلٍ من الغضب: «آه، لم أقصد ذلك حرفيًّا. سُحقًا أيُّها اللورد فيرلوند، لا تُحرِج رجلًا بتعريضه لأضرارٍ جسيمة وكلِّ ما شابه.»

لم ينزعج هوريس من شكوك الآخر، وقال ببرود: «لا داعيَ إلى أن تقلق؛ فلن أفكِّر أبدًا في مقاضاتك.»

التفت مرَّة أخرى إلى الفتاة، وطَلَب الإيرل من البارونيت أن يعيره انتباهه. كانت إحدى عادات الرجل العجوز الخاصة أنَّه كان أحيانًا ما يبدأ موضوعًا مختلفًا تمامًا على حين غرة؛ إذ كان يقفز من موضوعٍ إلى آخر كطيفٍ يستحيل إدراكه. فقبل أن يستطيع هوريس صياغة بضع كلمات، كان العجوز يجرُّ ضحيته رغمًا عنه إلى الحديث عن الصيد، وكان السير آيزاك أشبه حينئذٍ برجلٍ يُصارع الغرق بصعوبةٍ بالغة في عُمقٍ يفوق طول قامته — إن جاز استخدام هذه الاستعارة — في أحد مستنقعات صيد أسماك السلَمون أو صيد سمك السلمون المرقَّط صيدًا غير قانوني أو صيد سمك الكراكي؛ ذلك أنَّ السير آيزاك لم يكن يستطيع أن يعتبر نفسه خبيرًا في رياضة الصيد على الإطلاق.

وصل القطار إلى «لنكولن» بعد الغداء بوقتٍ قصير. كان هوريس عادةً ما يستأجر بيتًا خارج البلدة، لكنَّه قد رتَّب سلفًا في هذا العام للذهاب والعودة إلى لندن في الليلة نفسها. افترق عن الفتاة في المحطة.

قال لها قبل الافتراق: «سأَراكِ عند مضمار السباق. ما ترتيباتكِ؟ هل ستعودين إلى المدينة الليلة؟»

أومأتْ برأسها، وسألته ببعض القلق واللهفة: «هل يُهمُّك كثيرًا أن تفوز بهذا السباق؟»

فأومأ برأسه، وقال: «لا أحد يُفرِّط في الاهتمام بسباق «لنكونشير هانديكاب» حقًّا؛ فالموسم لا يزال في مرحلةٍ مبكِّرة للغاية مثلما ترين، حتى إنَّ المُراهنين أنفسهم يجازفون بأموالهم بلا أيِّ ضمانات. فلا يمكن للمرء أن يعرف الكثير، ومن شبه المستحيل أن يُحدِّد الخيول التي تتمتع بلياقة أفضل. أعتقد بيقينٍ تام أنَّ الفَرَس «نيميسيس» ستفوز، لكنَّ كل الظروف ضدها.»

أضاف هوريس بنبرة ارتياب: «حسنًا، نادرًا ما يكون الفوز في سباق لنكولن من نصيب مُهرةٍ، وفضلًا عن ذلك، فهي عدَّاءة أيضًا. أعلمُ أنَّ خيولًا عدَّاءة قد فازت بالسباق من قبل، بل كان فوزها في السباق مجددًا في الأعوام التالية متوقعًا بثقةٍ كبيرة، لكنَّ التقديرات كلها ضد فَرَسٍ مثل «نيميسيس».»

قالت متعجبة: «لكنِّي ظننتكَ كُنتَ واثقًا جدًّا من فوزها.»

فضحك قليلًا، ثم قال: «حسنًا، كما تعلمين، يُمسي المرءُ في أحد الأيام واثقًا للغاية ويُصبح مفعمًا بالشكوك في اليوم التالي. هذا شيءٌ طبيعي معتاد؛ فجاهزية الخيول لتقديم أداء طيِّب متقلِّبةٌ، لكنَّ جاهزية أصحابها أكثر تقلُّبًا منها بكثير. فمن المحتمل أن أقابل رجلًا هذا الصباح يُخبرني بأنَّ أحد الخيول سيفوز بكلِّ تأكيد في السباق الأخير من اليوم. سيُمسكُني من عروة سترتي ويظلُّ يُقنعني بأنَّ المراهنة عليه هي أسهل الطرق التي ابتُدِعَت لجنْي الأموال منذ بداية السباقات وأكثرها استثنائية. وحين ألتقي به بعد السباق الأخير، سيقول لي بكل برود إنَّه لم يُراهن على ذلك الحصان، وإنما تلقَّى نصيحةً سرية في اللحظة الأخيرة من شخصٍ غامض يعرف أخت عمَّة صاحب الحصان. يجب ألَّا تتوقَّعي أن يكون المرء ثابتًا على رأي واحد.»

وأضاف: «ما زلتُ أعتقد أنَّ «نيميسيس» ستفوز، لكنِّي لستُ واثقًا جدًّا مثلما كنت. معظم الطلَّاب الواثقين إلى حدِّ الغرور يُصبحون متجهِّمي الوجوه قليلًا في مواجهة المُمتَحِن.»

انضمَّ إليهما الإيرل وكان ينصت إلى محادثتهما ببعض الاستمتاع المزوج بالتجهم، وقال: «آيكي متيقنٌ من أنَّ «تيمبولينو» سيفوز، حتى في مواجهة المُمتَحِن. لقد أخبرني شخصٌ ما بأنَّ المتحن سيكون رخوًا بعض الشيء أسفل الأقدام.»

فسأله هوريس بشيء من القلق: «أتقصدُ المضمار؟»

فأومأ الإيرل، وقال: «لن يُناسِبَ فَرَسك يا صديقي. فلا شكَّ أنَّ مهرةً عدَّاءة تُنافس في سباق «لنكولنشير» لأولَّ مرة ستحتاج إلى أرضيةٍ جيدة. يُمكنُني تخيُّل نفسي عائدًا إلى لندن اليوم ومعي ١٥٠٠ جنيه.»

«هل راهنتَ على «تيمبولينو»؟»

فقال الإيرل بفظاظة: «لا تسأل أسئلة وقحة.» وأضاف: «وأسئلة غير ضرورية. فأنت تعرف يقينًا لعينًا أنني راهنت على «تيمبولينو». ألا تُصدِّقني؟ لقد راهنتُ عليه، وأنا خائفٌ من ألَّا أفوز.»

«خائف؟» كان هوريس يَعرف أنَّ الرجل العجوز يتقبل الخسارة بصدرٍ رحب، بالرغم من جميع عيوبه.

فأومأ الإيرل. لم يكن مُستمتعًا آنذاك. وأسقَطَ عنه ذلك السلوك المُزعِج والنظرات المُحدِّقة الخبيثة مثلما يُسقط المرء عنه عباءة يتقلَّدها. وهنا رآه هوريس لأولَّ مرة رجلًا عجوزًا ذا مظهرٍ حسنٍ فريدٍ من نوعه، إذ كانت تجاعيد فمِه الراسخة مُستقيمة، وبدا وجهه الشاحب في ارتخائه وسكينتِه، مكسوًّا بمسحة من الحزن.

قال: «نعم، أنا خائف.» كان صوته هادئًا وخاليًا من السخرية العيَّابة اللاذعة التي دائمًا ما كان يُبديها في سلوكه. وأضاف وقد اختلج جانب فمه قليلًا: «هذا السباق سيُحدث فارقًا كبيرًا لدى بعض الناس.» وواصل بجدِّية: «صحيحٌ أنَّه لن يؤثِّر فِيَّ تأثيرًا كبيرًا، لكنَّه سيُحدِث لدى البعض فارقًا بين الحياة والموت.» عاد فجأة إلى أسلوبه الفظِّ المعتاد قائلًا: «صحيح؟ إلى أيِّ مدًى ترى أنَّ ذلك عيِّنة جيدة من الميلودراما يا سيد جريشام؟»

هزَّ هوريس رأسه في حيرة، وقال: «يُؤسفني القول إنني لا أفهمك إطلاقًا أيُّها اللورد فيرلوند.»

فقال الإيرل بفظاظة: «لعلَّك ستفهمُني بطريقةٍ أخرى. ها هي سيارتي. طاب صباحُك.»

ظلَّ هوريس يُشاهده حتى غاب عن ناظرَيه، ثم اتَّجه إلى مضمار السباق. كان الرجل العجوز يُحيِّره بشدة. كان هوريس يعرف أنَّ سُمعة الرجل غير سارَّةٍ على أقل تقدير، هذا إن لم تكن بغيضة. وكان يُعتَقَد أنَّه صاحب اللسان الأخبث في لندن، لكن حين راح هوريس يُفكِّر، مثلَما فعل وهو يمشي على طول ضفَّة النهر في طريقه إلى المضمار، وجد أنَّ ذلك العجوز لم يَجرح أناسًا أبرياء أو يُؤذِهِمْ بكلامه إلَّا نادرًا. لقد كانت سُخريته العيَّابة تُسلَّط في الأساس على بني طبقته أنفسهم. وغالبًا ما كانت وحشيته تتجلَّى ضد المُذنبين السيِّئي السمعة؛ لذا كان أمثال السير آيزاك ترامبر يشعرون بجَلدِ لسانه.

لا شك بأنَّ معاملته لوريثه لم يكن لها من مُبرِّر على الإطلاق، وحتى الإيرل نفسه لم يُبرِّرها قَط، بل دائمًا ما كان يتجنَّب الخوض في الموضوع، حتى إنَّ مَن كان يجرؤ على التطرُّق إلى موضوع مُزعجٍ جدًّا كهذا ضد رغبة الإيرل يُعَدُّ رجلًا شجاعًا.

كان الإيرل معروفًا بثرائه الفاحش؛ لذا كان يحقُّ لهوريس جريشام أن يُهنِّئ نفسه على أنَّه أوتي نصيبًا كبيرًا من متاع الدنيا. ولولا ذلك لما كانت آفاقه المستقبلية مشرقة للغاية. فلما كان هوريس نفسه فاحش الثراء أيضًا، حال ذلك دون أيِّ تلميح إلى أنَّه كان يسعى وراء ثروة السيدة ماري (وقد كان هذا التلميح سيظهر لا محالة). ولم يكن هوريس يكترث إطلاقًا بما إذا كانت ماري سترثُ ملايين فيرلوند أم ستتزوَّجه خاوية الوفاض.

غير أنَّ بعض الآخرين ممَّن كانوا في «لنكولن» في ذلك اليوم لم يَنظُروا إلى ذاك الموقف من منظورٍ فلسفيٍّ كهذا.

كان السير آيزاك قد اتجه بالسيارة مباشرةً إلى المنزل الواقع على التلِّ المؤدِّي إلى الكنيسة الكبرى، والذي كان بلاك يقيم فيه منذ يومين. كان مزاجه عكرًا للغاية حين وصل أخيرًا إلى وجهته. كان بلاك قاعدًا يتناول الغداء؛ فرَفَع ناظريه إلى آيزاك حين دخل عليه، وقال: «أهلًا يا آيكي، تعالَ واقعد.»

نَظَر السير آيزاك إلى أصناف الطعام ببعض الازدراء، وسرعان ما قال بفظاظة: «شكرًا، لقد تغديت في القطار. أريدُ التحدث إليك.»

قال بلاك وهو يأخذ شريحةً أخرى من اللحم: «فلتتحدَّث مباشرة.» كان بلاك أكولًا متذوقًا للطعام، وكان يجد لذَّة عميقة في تناول وجباته.

قال له آيزاك: «أصغِ إليَّ يا بلاك، الوضع سيئ للغاية. إذا لم يفُز حصاني اللعين اليوم، فلا أعرف ماذا سأفعل للحصول على المال.»

فقال بلاك بهدوء: «أعرف شيئًا واحدًا لن تستطيع فعله؛ ألا وهو اللجوء إليَّ؛ فأنا في ضائقةٍ شديدة مثلك.» دَفَع صحنه بعيدًا وأخذ من جيبه علبة سيجار، وقال: «ما الذي قد نجنيه من فوز حصانك هذا المدعو «تيمبولينو»؟»

قال السير آيزاك بنبرةٍ كئيبة: «حوالي ٢٥ ألف جنيه. لا أعرفُ ما إذا كان ذلك الشيء اللعين سيفوز. إن لم يَفُز، فسيكون ذلك بسبب سوء حظِّي ليس إلَّا. أنا خائفٌ من فَرَس جريشام هذه.»

ضحك بلاك بهدوء، وقال: «هذا أحد مخاوفك الجديدة. لا أتذكر أنني سمعتُ عنه من قبل.»

فقال الآخر: «هذه ليست مسألة مُضحِكة. لقد كلَّفت مُدرِّبي، طَبس، بمتابعة أدائها. إنَّها سريعةٌ للغاية. والمشكلة الوحيدة هي ما إذا كانت تستطيع مُواصَلة العدو بالوتيرة السريعة نفسها.»

فسأله بلاك: «ألا يُمكن الوصولُ إليها؟»

فقال الآخر بنفاد صبر: «الوصول إليها! سيُقام السباق في غضون ثلاث ساعات!» وسأله بانفعال: «من أين أتيت بفكرتك عن السباقات؟ لا يُمكنك تسميم خيولٍ في غُضون ثلاث ساعات، بل لا يُمكنك تسميمها في غضون ثلاثة أيام، إلَّا إذا كان مُدرِّبها مشتركًا معك في ذلك. وهذا الصنف من المدربين ليس موجودًا إلَّا في الروايات.»

كان بلاك يقطع طرفَ السيجار بعناية، وقال وهو مُنهمِك في التفكير: «إذن، إن خسر حصانك، فسنُصبِح في شارع «هاي ستريت» الرئيسي في «بلدة قاع الجحيم»؟» وأضاف بنبرةٍ جادة متجهِّمة: «لقد راهنتُ عليه لإنقاذ حياتي.»

قَرَع جرسًا، فدخل عليه الخادم. قال له بلاك: «قُل لهم أن يُحضِروا العربة.» ثم نَظَر إلى ساعته، وقال: «لست مهتمًّا جدًّا بحضور السباق، بل أظن أنني سأَستمتِع بهذا اليوم في الهواء الطلق؛ فهذا يَمنح المرء فرصةً للتفكير.»

(١٢) السباق

كانت حَلْبةُ السباق المُصممة ببراعة والواقعة على طريق «كارهولم» مكتظةً بالحشود؛ إذ كان الوَسَط الرياضي مهتمًّا على غير العادة بسباق «لنكولنشير هانديكاب»، وهذا الاهتمام مصحوبًا بالطقس الرائع، قد اجتذب الرياضيِّين من شمال البلاد وجنوبها ليلتقوا معًا في هذا السباق الإنجليزي الذي كان بمثابة مهرجانٍ كبير. عاد الرحالة إلى موطنهم على متن قطارٍ وباخرة. فقد كان من بين الحشود رجالٌ قد بدت سُمرة مصر على خدودهم، ورجال كانوا قد رحلوا إلى الجنوب هربًا من ابتلاءات الشتاء الإنجليزي الشديدة القارسة، ورجالٌ قد أتوا من «مونت كارلو»، ورجال نحاف ذوو بشرة بُنية كانوا قد قضوا الأيام المُظلِمة من السنة وسط ثلوج جبال الألب.

كان من بين الحشود أيضًا مُتابعُون مُنتظمون للفروسية لم يعرفوا عطلة ولا استراحة، وكانوا قد تابعُوا موسم قفز الحواجز باهتمامٍ بالغ دقيق. كان يوجد رجالٌ أثرياء وآخرون فقراء مقارنةً بهم، وحِرَفيون بسطاء وجدوا هذه العطلة هي الأمتع من بين عطلاتهم، وأعضاء برلمانيون قد اختلسُوا يومًا للراحة من كآبةِ النقاشات البرلمانية، ومُراهنون محتالون يبحثون عن ضحايا محتملين، وكانت عيون هؤلاء المُحتالين، الذين كانوا هادئين مُتوارين عن انتباه الآخرين، تتحرَّك باستمرار بحثًا عن شخصٍ قد يستطيعون الاحتيال عليه. وكان في الحَلْبة قلَّةٌ من الصحفيين، وأناسٌ متفائلون وآخرون مُتشكِّكون، وشبان وشيوخ، وفلَّاحون يَرتدُون الأغطية الواقية للكاحل، وكل تلك الفئات قد جمعها حُبُّ رياضة الملوك في بوتقةِ أخوَّةٍ كبيرة واحدة.

في حقل التدريب المُكتظ الواقع بجوار حظيرة الخيول، كان بعض الصبية الصغار من الساسة يَسوسُون الخيول التي شاركت في السباق الأول، وقد رُبِط على ذراع كل منهم رقم الحصان الذي يَسوسُه.

قال جريشام وهو يتفحَّص الخيول سريعًا من بعيد: «مجموعة رديئة من الخيول الضعيفة المُثيرة للشفقة.» كان معظم الخيول ما زال مكسوًّا بالفراء الشتوي، وكان معظمها بدينًا وغير لائقٍ للسباق. كان جريشام يضع علامةً على بطاقته بجوار كلِّ حصانٍ، وقد شَطَب بعض الخيول فورًا إذ رأى أنها غير مرشَّحة للفوز إطلاقًا، ثم وَجَد الآنسة ماري تتجوَّل هائمةً وحدها في حقل التدريب، وحيَّته كأنَّها بحَّارٌ قد نَجا من تحطم سفينتِه ويُنادي مركبًا شراعيًّا ليُنقذه.

قالت: «أنا في غاية السعادة لأنك أتَيت؛ فأنا لا أفقهُ أي شيءٍ عن السباقات.» نظرت حولها في أرجاء حقل التدريب، وقالت: «ألن تقولَ لي شيئًا؟ أكلُّ هذه الخيول لائقةٌ للسباق حقًّا؟»

فابتسم قائلًا: «من الواضح أنَّكِ على قدرٍ من الدراية بالخيول. لا، ليست كذلك.»

فقالت بدهشة: «لكنَّها بالتأكيد لا تَستطيع الفوز إذا كانت غير لائقة.»

رَدَّ الشاب ضاحكًا: «لا يُمكِن أن تفوز كلها، وليست كُلها مُشارِكةً من أجل الفوز؛ فقد لا يكون المدرِّب مُقتنعًا بأنَّ حصانه ممتاز، لكنَّه يُشركه في السباق ليجسَّ به قدرات الخصوم، إن جاز التعبير؛ فالحصان الأفضل لياقةً سيفوز بهذا السباق على الأرجح، وسيعرف مدرب الحصان الذي ينافسه بلا أملٍ في الفوز، مدى قُرب لياقة الحصان الفائز من حصانه!»

قالت وهي تنظر إلى بطاقتها: «أريدُ العثور على «تيمبولينو». إنه حصان السير آيزاك، أليس كذلك؟»

أومأ برأسه، وقال: «كنتُ أبحث عنه أنا أيضًا. تعالَيْ معي، ولنُحاول العثور عليه.»

وجدا الحصان في أحد أركان حقل التدريب، وقد كان حيوانًا طويلًا مُنتصبًا ومفتول العضلات بقدرِ ما استطاع هوريس أن يحكُم عليه، وهو في كسائه الذي كان لا يزال متشحًا به.

قال منهمكًا في التفكير: «حصانٌ جيد من نوعية مناسبة لسباق «لنكولن». لقد رأيته في سباق «أسكوت» في العام الماضي. أظنُّ أنَّ هذا هو المنافس الذي علينا أن نَهزمه.»

فسألته: «هل يَملك السير آيزاك خيولًا كثيرة؟»

فقال: «بل بضع خيول. إنَّه رجلٌ جديرٌ بالاهتمام.»

سألته قائلة: «لمَ تقول ذلك؟»

هزَّ كتفيه، وقال: «حسنًا، المرءُ يعرف ...» ثم أدرك أنَّ التحدُّث باستخفافٍ عن مُنافسٍ مُحتمَل ليس تصرفًا شريفًا، وقد فَسرت الفتاة سكوتَه المُفاجئ تفسيرًا صائبًا.

سألته فجأة: «من أين يَجني السير آيزاك ماله؟»

فنَظَر إليها، وقال: «لا أعرف. لديه بعض الممتلكات في مكانٍ ما، أليس كذلك؟»

هزَّت رأسها، وقالت: «بلى.» وسرعان ما أضافت: «سؤالي لا يَعني أنني مُهتمةٌ إطلاقًا بثروته أو احتمالات ثرائه المُستقبلية. فكل اهتمامي مُنصبٌّ على ... شخصٍ آخر.» ومنحتْه ابتسامةً صغيرة فاتنة.

وبالرغم من أنَّ حقل التدريب كان مكتظًّا، وأنَّ عيون الكثيرين كانت مُسلَّطة عليه، بذَل صاحب المهرة المرشحة للفوز قصارى جهده كي يمنع نفسه من إمساك يديها، لكنَّه فشل.

غيَّرَت الموضوع فجأة؛ إذ قالت بمرح: «إذن فهيَّا نذهب الآن ونرى مُهرتك الرائعة.»

قادها إلى أحد أكشاك حظيرة الخيول، حيث كانت «نيميسيس» تتلقَّى عنايةً من سائسٍ يعمل بكل اهتمام.

كانت مُهرةً نادِرة؛ إذ كانت صغيرة البُنيان مُتناسِقة الأطراف ذات رأسٍ جميل ورقبةٍ رائعة نادرًا ما تُرى في مُهرةٍ أصيلة صغيرة جدًّا مثلها. كانت قد حلَّت في المركز الرابع في سباق «كامبريدجشير» في العام السابق، وأحرزت تحسُّنًا ثابتًا في أدائها من عامها الثالث إلى عامها الرابع.

تفحَّصها هوريس بنظراتٍ مُدققة، ولم ترَ عينه المتمرِّسة عيبًا في حالها. كانت تبدو في أفضل حال ولائقةً تمامًا للمهمة التي كانت تنتظرها في عصر ذاك اليوم. كان يعرف أنَّ مهمتها شاقة، وكان يعرف أيضًا أنَّه يشعر في قلبه بالقليل جدًّا من الخوف من أن تُخفِق في اجتياز الميل المُستوي السهل في حَلْبة «كارلهولم» بنجاح. كان السباق يضمُّ عدَّة خيول عدَّاءة سريعة أيضًا، وسوف تجعل وتيرة السباق سريعةً للغاية. وإذا كانت القدرة على التحمُّل نقطةَ ضعفٍ لدى مُهرته، فستخونها وتُعرِّضها للخسارة بلا شك.

كانت حظيرة خيوله، في اليوم السابق الذي شهد افتتاح موسم السباقات، قد أشركت حصانًا في سباقٍ لبيع الحصان الفائز في المزاد بعد نهايته، وكان من المُبشِّر أنَّ ذاك الحصان قد تفوق على كلِّ الأحصنة المشاركة الأخرى بسهولةٍ، مع أنَّه كان يحمل الوزن الأثقل. وهذا هو ما جعل المُهرة «نيميسيس» تتمتَّع باحتمالية كبيرة في الفوز وبأرباح مُنخفِضة للمُراهِنين عليها.

جريشام نفسه لم يراهن عليها إلَّا بمبلغٍ زهيد جدًّا؛ إذ لم يكن يُراهن بأموالٍ طائلة، وإن انتشرت أقاويل تعتقد أنَّه كان يَجني أرباحًا طائلة ويتكبَّد خسائر باهظة كلَّ عام.

غير أنَّه لم يكن يستفيد شيئًا من تكذيب تلك الشائعات، وكان لا يبالي بآراء رفاقه بالدرجة التي تكفي لئلا ينزعج من تكرارهم لهذه الشائعات.

غير أنَّ تقليل قيمة الأرباح المتوقَّعة من الرهان على «نيميسيس» كان مسألةً مُقلِقة لفريق «تيمبولينو»؛ إذ لم يكن بوسعِهم تغطية رهاناتهم على «تيمبولينو» بوضع «رهانٍ تأميني احتياطي» على «نيميسيس» دون أن يُنفقُوا مبلغًا طائلًا.

كان هوريس يَتناول الغداء حين أُجريَ السباق الثاني. وكان قد وجد في اللورد فيرلوند لُطفًا مثيرًا للعَجَب؛ إذ دُهِشَ الشاب حين قبل فخامة اللورد دعوته بودٍّ فاتر ليوحي بأنَّه كان يتوقعها. قال اللورد بينما تلألأت عيناه بلمعةٍ بسيطة: «ألم تَدعُ آيكي؟»

أومأ جريشام برأسه مبتسمًا، وقال: «نعم؛ فأنا لا أظن أنَّ السير آيزاك يستسيغني.»

اتَّفق معه الآخر قائلًا: «أجل، أعتقد ذلك. على أيِّ حال، لديه ضيفه الخاص؛ الكولونيل بلاك. أؤكد لك أنَّني غير مسئول إطلاقًا عن ذلك. لقد عرَّفه آيكي إليَّ، دون داعٍ، لكنَّ آيكي دائمًا ما يأتي بأفعالٍ لا داعي لها.»

أضاف الإيرل وهو يُقطِّع الطعام بسكينِه وشوكته: «إنَّه شخصٌ ودود جدًّا. لقد كان يُناديني بـ «فخامة اللورد» و«سيدي اللورد» كأنَّه محامٍ مبتدئ للغاية وكأنني قاضٍ كبير وداهية للغاية في إحدى جلسات محكمة العدل. كان يُعاملُني بذلك الاحترام الذي لا يُمنَح إلا لأولئك الذين يُتوقَّع منهم أن يدفعوا ثمن هذه المنحة الخاصة. كان آيكي ملهوفًا جدًّا على أن يترك لديَّ انطباعًا طيِّبًا.»

يُمكِن القول بكلِّ صدقٍ إنَّ بلاك قد رأى الخناق يَضيق عليه. لم يكن يعرف ماهية القوى الخفية الغامِضة التي تُؤثِّر فيه، لكنَّه، يومًا تلو الآخر وبمائة صورةٍ مختلفة، كان يجد أنه يبوء بالفشل، وكان يرى عراقيل جديدة في طريقه. كان بالخارج آنذاك من أجل إضافةِ ضحية أخيرة إلى قائمة قتلاه.

استعاد بلاك إدراكه للحاضر حين سمع الأصوات الصاخبة لوكلاء المُراهنات من حوله؛ إذ كانت الحَلْبة غارقةً في حالةٍ من الهَرْج والمَرْج. سمع صوتًا يَصيح قائلًا: «سبعةٌ إلى واحد، باستِثناء واحد! سبعةٌ إلى واحد للمُهرة «نيميسيس»!» وكان على درايةٍ كافيةٍ برياضة السباقات ليَعرف من ذلك الإعلان ما حدث للحصان المُفضَّل. اتجه إلى وكيل مراهَناتٍ كان يعرفه معرفةً طفيفة، وسأله: «ما الحصان الذي استثنيته؟»

جاءه الرد: «تيمبولينو.»

وَجَد السير آيزاك بالقرب من الباحة المُسيَّجة. كانت بشرة البارونيت بيضاء باهتة، وكان يقضم أظافره بارتباك.

سأله بلاك: «ما الذي جعل حصانك مُرشَّحًا قويًّا جدًّا هكذا؟»

فقال السير آيزاك: «لقد راهنتُ عليه مرَّةً أخرى.»

«راهنتَ عليه مرة أخرى؟»

فقال الآخر باهتياجٍ عنيف: «كان عليَّ أن أفعل شيئًا. إذا خسرت، حسنًا، سأخسرُ مبلغًا أكثر ممَّا أستطيع دَفعه؛ فلا شيء يمنعني من أن أضيف ديونًا أخرى إلى كاهلي. أؤكِّد لك أنني سأصبح مُفلسًا ومُشرَّدًا إن لم يَفُز هذا الشيء، إلَّا إذا كنت تستطيع أن تفعل شيئًا ما من أجلي.» وسأله بتوسُّل: «تستطيع، أليس كذلك يا بلاك، يا صديقي العزيز؟ لا سبب يجعل أيًّا منَّا مُضطرًّا إلى إخفاء أسرارٍ عن الآخر.»

حدَّق إليه بلاك. إذا خسر الحصان، فقد يستطيعُ استغلالَ هذا الرجل لتحقيق منفعةٍ أكبر.

أوحت كلمات السير آيزاك التالية بأنَّ المُساعدة ستكون جاهزةً عند الضرورة. قال بمرارة: «المشكلة هي ذلك البغيض فيرلوند. لقد قَلَبَ الفتاة عليَّ تمامًا. إنها تُعاملني كما لو كنت حُثالة، وقد كنتُ أظن أنَّ علاقتي بها تسير على ما يُرام. لقد راهنتُ مُعتمدًا على أنَّ الأموال ستُصبح من نصيبي.»

فسأله بلاك: «وما الذي جَدَّ؟»

قال البارونيت: «لقد التقيتُها للتوِّ على انفرادٍ، وأوضحتُ لها غَرضي، لكنَّ الطريق مسدود. لقد قابَلت عرضي بقسماتٍ صارمة جامدة يا بلاك، لقد رفضتني رفضًا قاطعًا.» وأضاف وهو يكاد ينتحب: «هذا فظيع للغاية.»

فأومأ بلاك. وحينئذٍ، شهدت الحَلْبة ضجةً مفاجئة. ومن حيث كانا يقفان، رأيا من فوق رءوس الحشود الغفيرة قُبَّعات الفرسان ذات الألوان الزاهية وهُم يقودون جيادهم ويُسيِّرونها خببًا إلى نقطة الانطلاق.

وعلى عكس السير آيزاك، الذي حرص على تجنُّب حَقل تهيئة الخيول بعدما ألقى نظرةً عابرة على حصانه، كان هوريس يُشرِف بنفسه على إضفاء اللمسات الأخيرة على «نيميسيس»؛ فقد أشرف على أحزمة السرج وهي تُربَط وأعطى الفارس تعليماته الأخيرة. وبعدئذٍ، بينما كانت المُهرَة تُقتاد إلى المضمار، التفتَ وراءه وألقى عليها نظرة استحسان أخيرة، ثم استدار نحو الحَلْبة.

أتى اللورد فيرلوند من ورائه آنذاك، وقال له: «مهلًا يا جريشام!» أومأ الرجل العجوز مشيرًا إلى «نيميسيس»، وسأله: «هل تظنُّ أنَّ مُهرتَكَ ستفوز؟»

فأومأ هوريس. وقال: «أظنُّ ذلك الآن، بل إنني واثقٌ من ذلك بعض الشيء.»

فسأله الآخر ببطء: «وهل تظنُّ أنَّ الفوز سيكون من نصيب «تيمبولينو» إذا لم تَفُز مُهرتك؟»

نَظَر إليه هوريس بفضول، وقال بهدوء: «نعم أيُّها اللورد فيرلوند، أظن ذلك.»

خيَّم سكوت لحظي مرة أخرى، بينما كان الرجل العجوز يحكُّ لحيته الحليقة بأصابعه شاردًا في تفكيرٍ عميق، ثم قال دون أن يرفع صوته: «لتَفترِض يا جريشام، لتفترض أنني طلبت منك أن تَسحب مُهرتك من السباق؟»

فاحمرَّ وجه الشاب فجأة، ورَدَّ بنبرةٍ حادة قائلًا: «أنت تَمزح أيُّها اللورد فيرلوند.»

قال الآخر: «لا أمزح، بل أتحدث إليك من مُنطلَق أنني رجلٌ شريف، وأُعوِّلُ على أنَّك ستحترم ثقتي. فلتفترض أنني طلبتُ منك أن تَسحب «نيميسيس» من السباق، هل ستَسحبها؟»

قال الآخر: «لا، بصراحة، لن أفعل ذلك، لكني لا أستطيع ...»

فقال اللورد فيرلوند بنبرة عادت إليها حدَّتها المُعتادة: «لا تهتم بما لا تستطيع فهمَه. إذا طلبتُ منك ذلك وعَرَضت عليك أن أكافئك بتلبية أحبِّ رغبةٍ إلى قلبك، فهل ستفعل ذلك؟»

قال هوريس بجدية: «لن أفعل ذلك من أجل أيِّ شيء في الدُّنيا.»

فارتسمت ابتسامةٌ صغيرة مَريرة على وجه الرجل العجوز، وقال: «أتفهَّمُ ذلك.»

فقال هوريس الذي كان لا يزال مُتحيِّرًا: «إنني لا أستطيع أن أفهم السبب الذي يجعلك أن تَطلب منِّي ذلك. فلا شك أنك، كما تعرف.»

فقال الإيرل العجوز بابتسامةٍ طفيفةٍ جدًّا على شفتيه النحيفتَين: «لا أعرفُ سوى أنك تظنُّ أنني أريدك أن تسحب مُهرتك لأنني راهنت على الحصان الآخر.» وقال بانزعاج، وإن ظلَّت الابتسامة الطفيفة باقيةً على شفتَيه: «أنصحك ألَّا تُفرِط في الافتخار باستقامتك إلى حدِّ الاستكبار، لأنَّك قد تعض أصابع الندم يومًا ما على أنك لم تُنفِّذ طلبي.»

قال هوريس: «إذا قلت لي ...» ثم سكَتَ فجأة؛ فهذا الطلب المفاجئ من الإيرل، الذي كان يتمتع بالروح الرياضية بالرغم من كل عيوبه، قد جعله شبه عاجزٍ عن الكلام.

قال الإيرل: «لن أقول لك شيئًا.» وأضاف بلباقة: «فلا شيء لديَّ لأقوله لك.»

صَعَد هوريس الدَّرَج المؤدِّي إلى المقصورة الرئيسية مع الإيرل متقدمًا عنه. وأقل ما يُمكن قوله عن شعوره هو أنَّه كان مُنزعجًا من الطلب الاستثنائي الذي طَلَبه الرجل العجوز. كان يَعرفُ أنَّ الإيرل رجلٌ غريب الأطوار، وكان يعرف ممَّا يسمعه عنه أنَّه رجل شرِّير، مع أنَّه لم يكن يملك دليلًا على ذلك. غير أنَّه لم يتصوَّر قَط، في أشدِّ لحظاته جموحًا وقسوة، أنَّ هذا الوغد العجوز — هكذا كان يَصفه — سيطلب منه أن يسحب حصانًا من سباق. كان ذلك غير معقول. لقد كان يتذكر أنَّ اللورد فيرلوند قد أشرف على تنظيم سباقٍ كبير أو اثنين سابقًا، وأنَّه كان عضوًا في أحد أجدر الأندية الرياضية بالاحترام وأعلاها مكانةً في العالم.

شق طريقه بمرفقِه نحو أعلى المقصورة؛ حيث ظهرت الريشة البيضاء التي تُزيِّن قبَّعة الآنسة ماري.

قالت حين وصل إلى جوارها: «تبدو مُنزعجًا، هل ضايقك العم؟»

هزَّ رأسه. وأجاب باقتضابٍ فظٍّ غير معتاد: «لا.»

فسألته مازحةً: «هل أصيبت مُهرتك بصداع؟»

جاءت إجابته غير مترابطة بالسؤال: «كنت مُنشغلًا بشيءٍ تذكَّرته.»

كانت الخيول المشاركة عند خطِّ البداية. قالت له: «لقد جاءت القرعة بأن تكون مُهرتك في مُنتصَف خط البداية.»

وضع منظاره على عينَيه، واستطاع رؤية اللونين البُني الداكن والأخضر بوضوحٍ كبير. واستطاع أيضًا بسهولة أن يرى حصان السير آيزاك، بخطوطه الرأسية الرمادية المُنسدلة على لونه الأبيض، والقبعة الصفراء. كانت القرعة قد أوقعته في الجزء الواقع في الجانب الأيمن الداخلي من خطِّ البداية.

كانت الخيول المشاركة آنذاك تُسبِّب لصاحب إشارة بدء السباق كل المتاعب الممكنة التي قد يُسبِّبها أربعة وعشرون حصانًا من الخيول الأصيلة الجامحة لأيِّ رجل. ظلت طوال عشر دقائق تتراجع إلى الوراء وتنحرف جانبًا وتقفز وترفس وتدور أمام الشريطَين الطويلين. وبصبرٍ مثالي، ظلَّ صاحب إشارة البدء مُنتظرًا وهو يُوجِّهها بل يكاد أن يتوسَّل إليها أحيانًا ويأمرها في أحيان أخرى، ويجب الاعتراف بأنَّه كان يَتفوَّه بألفاظٍ نابية أيضًا؛ لأنَّه كان من شمال البلاد ولم يكن يُراعي أسلوب الحديث في عالم الفرسان.

مَنَح هذا الانتظار هوريس فرصةً لاستجماع أفكاره. كان منزعجًا قليلًا من الطلب الغريب الذي طلبه منه الرجل الذي كان واقفًا بجواره في تلك اللحظة يتحدَّث بهدوء شديد.

أمَّا السير آيزاك، فقد أجَّج هذا الانتظار توتُّره. كانت يداه ترتعشان وكان منظارُه يصعد ويهبط بحركاتٍ متشنجة فجائية، وكان ملتاعًا من شدة القلق. وفجأة رُفع الشريط الأبيض، واحتشدَت الخيول في ثلاث مجموعات، ثم انتشَرت مرةً أخرى بعرض المضمار، وركضت، كأنها خيول في إحدى كتائب سلاح الفرسان، ركضًا مُدويًا كالرعد على المُنحدَر الطفيف في رحلتها صوب خطِّ النهاية.

«لقد انطلقَت!»

ضَجَّت حشود الحاضرين. وكان كل منظارٍ مسلطًا على الخيول الآتية. كانت البداية باهرة، غير أنَّ السباق لم يشهد شيئًا بارزًا في الفرلنجين الأوَّلين. كانت الخيول تركض مُتجاورةً على استقامةٍ واحدة تقريبًا، ثم بدأ أحدها يتقدم سريعًا من عند السياج الداخلي؛ كان ذلك هو «تيمبولينو»، الذي كان يركض بسلاسةٍ باهِرة.

قال هوريس بنبرةٍ هادئة بالرغم من صعوبة موقفه: «يبدو أنَّه سيكون الفائز، فمُهرتي محصورة.»

كان فارسُ «نيميسيس» في وسط المضمار يبحث عن فجوةٍ بين الخيول ليَتجاوزها، لكنَّه قاد المُهرة إلى مسارٍ مسدود.

وجد نفسه محصورًا بين حصانين لم يُبدِ فارساهما أيَّ استعدادٍ لفتح الطريق له. كانت الخيول قد قطعت منتصَف الرحلة حين استطاع الفارس إخراج المهرة من هذا الشرك، «واللحاق بركبِ الخيول الأخرى من جديد».

كان «تيمبولينو» متقدمًا بفارق طولين كاملين عن الحصان «كوليت»، الذي كان متقدمًا بطولٍ كامل عن مجموعةٍ من خمس خيول، بينما كانت «نيميسيس» في المركز الثامن أو التاسع حين انتصَف السباق.

وفي هذه الأثناء، كان هوريس واقفًا في المقصورة وهو يُمسك بساعة توقيفٍ مؤقِّتة. نَقَر على زرِّها ليوقفها حين مرَّت الخيول بالعمود الذي يُعلن مرور أربعة من وحدات الفرلنج، وألقى نظرة على قُرصها بسرعة.

قال برعشةٍ بسيطة في صوته: «إنَّه سباقٌ بطيء.»

ومن على بُعدٍ، كانت «نيميسيس» قد خرجت من وسط زمرة الخيول بخطواتٍ سريعة طليقة، وأصبحت في المركز الثالث متخلِّفةً عن «تيمبولينو» بفارق ثلاثة أطوال.

كان فارس حصان السير آيزاك يخوض السباق بثقة؛ إذ التزم بالركض بجوار السياج الداخلي ولم يكن يتقلقل على حصانه. نَظَر حوله ليرى موضع الخطر الذي يُهدِّد صدارته،

فرأت عينه المتمرِّسة ذلك الخطر يكمن في «نيميسيس»، التي كانت تركض بسلاسة وبوتيرة منتظمة.

وعلى بُعد مائة ياردة من خط النهاية، هزَّ فارس «نيميسيس» لجامها بقوةٍ إلى أعلى، وفي ست خطواتٍ سريعة، صارت بجوار المتصدِّر على استقامةٍ واحدة معه.

رأى فارس «تيمبولينو» ذلك الخطر، فحثَّ حصانه الطيِّع الراكض أسفله على زيادة سرعته، دافعًا إياه بيديه وعقبَيه.

كانا يركضان آنذاك مُتوازيَين على استقامةٍ واحدة لا تفصل بينهما سوى مسافة طفيفة. وبدا أنَّ الأفضلية تكمُن لدى الحصان الراكض بجوار السياج الداخلي، لكنَّ هوريس، الذي كان يشاهد السباق من المقصورة بعينين خبيرتَين، كان يعلم أنَّ الأفضلية الحقيقية تكمن لدى الحصان الراكض في وسط المضمار.

كان قد تمشَّى على المضمار في صباح ذلك اليوم، وكان يعلم أنَّ الأرضية عند وسط المضمار، الذي يُمثِّل أعلى جزء فيه، هي الأنسب للركض. استجاب «تيمبولينو» بنُبلٍ لجهود فارسه، وحالَما تقدَّم برأسه عن «نيميسيس»، رفَع فارسها سوطه لكنَّه لم يستخدمه، وظلَّ يُراقب الآخر. وبعدئذ، حين تبقت عشرون ياردة على خط النهاية، دَفَع «نيميسيس» إلى الأمام بكل ما أوتيت يداه البارعتان من قوة.

حاول «تيمبولينو» محاولةً أخيرة لتَخطِّي «نيميسيس»، وبينما تجاوَزا كُشك الحكم عند خطِّ النهاية، لم يكن من المُمكِن أن يفصل بينهما سوى الحكم نفسه، لشدَّة تقاربهما.

التفت هوريس بابتسامة قلقة نحو الفتاة التي كانت بجواره، والتي قالت له: «يا إلهي! لقد فُزت. لقد فُزت، أليس كذلك؟» كانت عيناها متوهِّجتَين بلهيب الإثارة.

أومأ برأسه مبتسمًا، وقال: «يؤسفني القول إنني لا أستطيع الإجابة عن ذلك. لقد كانا مُتقاربَين للغاية.»

ثم ألقى نظرةً خاطفة على السير آيزاك. كان وجه البارونيت شاحبًا، وكانت يده التي رفعها إلى شفتَيه ترتجف كإحدى أوراق شجرة الحور الرجراجة. قال هوريس في قرارة نفسه: «ثمة مَن هو أشد قلقًا منِّي بشأن النتيجة.»

كانت الحَلْبة بالأسفل تعجُّ بجلبةٍ من الكلام المُهتاج، ووصلت إليهم هذه الجلَبة في الأعلى ضجيجًا غير واضح. كانت حشود الحاضرين تُراهن على النتيجة بسرعةٍ شديدة؛ إذ لم تكن الأرقام قد رُفِعَت بَعد.

كان لكلٍّ من الحصانين أنصارُه. سُمع بعد ذلك ضجيجٌ يكاد يُضاهي الخوار؛ إذ كان الحكم قَد رفع صفرين في لوح إعلان النتيجة. لقد انتهى السباق بالتعادُل!

قال هوريس: «يا إلهي!»

ولم يُزِد عن ذلك كلمة.

عبر إلى الجانب الآخر من الباحة المُسيَّجة بأسرع ما استطاع، وكان السير آيزاك يتبعه عن كثب. وبينما كان البارونيت يشق طريقه بمرفقه وسط الزحام، أمسكه أحدٌ من ذراعه. نَظَر وراءه، فوجده الكولونيل بلاك.

قال بلاك بصوت هامس أجش: «خُض جولةً حاسمة. لقد تعادلتْ هذه المُهرة مع حصانك بالصدفة البحتة. لقد أُخِذَ فارسك على حين غرة؛ فلتخُض جولة حاسمة.»

تردَّد السير آيزاك، وقال: «لكنِّي سأحصل على نصف الرهانات ونصف الجوائز المالية.»

فقال بلاك: «فلتحصل عليها كلها. هيا، لا يوجد ما تخشاه. إنني أعرفُ هذه الرياضة، فلتَخُض جولةً حاسمة. لا شيء يمنعك من الفوز.»

تردَّد السير آيزاك، ثم سار رويدًا إلى حظيرة نزع السروج؛ حيث كانت السروج تُنزَع عن الخيول التي كانت الأبخرة تتصاعَد من أجسادها.

كان جريشام هناك يبدو هادئًا ومبتهجًا. ووقعت عليه عينا السير آيزاك.

قال بنبرةٍ ودية: «حسنًا، ماذا ستفعل أيها السير آيزاك؟»

فسأله السير آيزاك بارتياب: «ماذا تريد أن تفعل؟» كان آيزاك يؤمن في قرارة نفسه بأنَّ الرجال جميعهم محتالون؛ ولهذا فقد ظنَّ أنَّ الحل الأسلَم له هو أن يفعل عكس ما يُريده منافسه. ومثله في ذلك مثل العديد من الرجال الشكَّاكين، كان يُخطئ مرارًا في الحُكم على الآخرين.

قال هوريس: «أرى أنَّ الأفضل هو التقاسُم. لقد خاض الحصانان سباقًا شاقًّا جدًّا، وأظن أنَّ الحظ لم يسعف مهرتي بالفوز.»

وبناءً على هذا، اتخذ السير آيزاك قراره وقال: «سنَخوض جولةً حاسمة.»

فقال هوريس ببرود: «كما تشاء، لكنِّي أظن أنَّ الصواب يَقتضي عليَّ أن أحذرك بأنَّ مُهرتي كانت محصورةً في مُنتصَف السباق، ولولا ذلك لفازت بسهولة. لقد اضطرَّ فارسها إلى التعويض عن نصف دزينةٍ من ...»

فقاطعه الآخر بفظاظة وقال: «أعرفُ كل هذا، لكنِّي سأخوض جولةً حاسمة على أيِّ حال.»

أومأ هوريس برأسه، والتفت للتشاور مع مدرِّبه. إذا قرَّر البارونيت خوض جولةٍ أخرى لحسم التعادل، فلن يوجد ما يمنعه من ذلك؛ إذ تنص قوانين السباق على أنَّ التقاسُم يجب أن يكون بمُوافَقة كلا المالكين.

أعلن السير آيزاك نيَّته للمُنظِّمين، وتَقرَّر إجراء الجولة الحاسمة بعد السباق الأخير في اليوم.

كان يَرتجِف من شدة الاهتياج حين عاد إلى بلاك. وقال له بارتياب: «لستُ متيقنًا من أنَّ قرارك صائب؛ فهذا الشاب جريشام يقول إنَّ مُهرتَه كانت محصورة. لم أرَ تلك المهرة الجامحة في السباق؛ لذا لا أستطيع التيقُّن من ذلك. فلتسألْ شخصًا ما.»

قال بلاك وهو يُربت على ظهره: «لا تقلق، فلا شيء يستدعي القلق، ستفوز بهذا السباق بالسهولة نفسها التي سأمشي بها من هذه الحلبة إلى حقل تدريب الخيول.»

لم يقتنع السير آيزاك. وانتظر حتى رأى صحفيًّا يَعرفه بمظهره، كان عائدًا من مكتب البرقيات.

قال السير: «أصغِ إليَّ يا هذا، هل شاهدت السباق؟»

أومأ الصحفي برأسه، وقال بابتسامة: «نعم أيها السير آيزاك. أظن أنَّ جريشام أصرَّ على خوض جولةٍ حاسمة، أليس كذلك؟»

قال السير آيزاك: «لا، لم يُصرَّ، لكنِّي أظنُّ أنِّي كنت غير محظوظٍ بعدمِ الفوز.»

تجهَّمت قسمات وجه الصحفي قليلًا، وقال: «يؤسفني القول إنني لا أستطيع أن أتفق معك في ذلك. لقد كنت أرى أنَّ مُهرة السيد جريشام ستفوز بسهولة، لكنَّها حُصِرَت في القطاع المستقيم من المضمار.»

أبلغ السير آيزاك الكولونيل بلاك بهذه المحادثة.

فقال بلاك بازدراء: «لا تَكترِث بصحفيِّي السباق هؤلاء؛ فما الذي يعرفونه؟ أليست لديَّ عينان مثلهم؟»

غير أنَّ ذلك لم يُقنع السير آيزاك؛ إذ قال: «هؤلاء الرجال خبراء مُحنَّكون للغاية. يا ليتني رضيتُ بالتقاسم.»

فصفَعَه بلاك على كتفه، وقال: «أنت تفقدُ أعصابك يا آيكي. يا إلهي، ستَشكرني ونحن نتعشَّى الليلة لأنني وفَّرتُ لك آلاف الجنيهات. ألم يكن يُريد خوض جولةٍ حاسمة؟»

فسأله السير آيزاك قائلًا: «مَن؟ جريشام؟»

فقال بلاك: «نعم، أكان يرغب في ذلك؟»

«كلا، لم يكن راغبًا جدًّا في ذلك. قال إنَّه سيكون قاسيًا على الحصانين.»

ضحك بلاك، وقال بازدراء: «هراء! هل تتصوَّر أنَّ رجلًا كهذا يُبالي بما إذا كانت مُهرته قد خاضت سباقًا شاقًّا أم لا؟ كلا! لقد شاهد السباق كما شاهدته أنا. لقد رأى أنَّ فارسك الأحمق كاد يفوز وأُخِذَ على حين غفلةٍ منه؛ ولهذا لم يكن يُريد المجازفة بخوضِ جولةٍ حاسمة بالطبع. أؤكِّد لك أنَّ «تيمبولينو» سيفوز بسهولة.»

اطمأن السير آيزاك بعض الشيء بتفاؤل رفيقه، وانتظر نتيجة الجولة الحاسمة وهو في حالٍ معنوية أفضل. وقد عزَّز اطمئنانه أنَّ الحاضرين في الحلبة تبنَّوا رأيًا مماثلًا لذلك الذي تبنَّاه بلاك. كانوا يسألون عن نسب أرباح الرهان على «تيمبولينو». وكان يُمكن أن تحصل على رهان بقيمة اثنين إلى واحد على خسارة «نيميسيس».

لكنَّ ذلك لم يَستمرَّ سوى وقتٍ قصير؛ إذ كان جريشام قد ذهب قبل ذلك إلى غرفة احتساء الشاي مع الفتاة، وبينما كان واقفًا عند مدخل المقصورة الرئيسية الضيِّق من ناحية الغرفة، رنَّت في أذنه الصيحة القائلة: «اثنان إلى واحد «نيميسيس»».

فصاح مشدوهًا: «إنهم يُراهنون على خسارة مُهرتي!» ثم أومأ بيديه إلى رجلٍ كان يمر بالقرب منه. وسأله: «هل يُراهنون على خسارة «نيميسيس»؟» فأومأ الرجل برأسه. كان ذلك الرجل يعمل وكيلًا بالعمولة، وكان يؤدي أيَّ مهمة يَطلبها منه المالك الشاب. قال جريشام بحزم: «ادخل وراهِن عليها من أجلي. ضَع أكبر قدرٍ يُمكنك أن تحصل عليه من المال. راهن عليها إلى أن تُصبح نسبة الأرباح واحدًا إلى واحد.»

لم يكن جريشام من هواة المراهنة، بل كان رجلًا حصيفًا عَمليًّا في كل معاملاته، وكان يستطيع أن يتنبأ بمآل السباقات. لقد أدرك ما حدث بالضبط. أحدثت أمواله بعضًا من الاضطراب في سوقٍ لم تكن بالغة القوة؛ فخَرَج «تيمبولينو» من تفضيلات المُراهنين، وتقدمت «نيميسيس» قليلًا في قائمة تفضيلات المراهنين.

بعد ذلك، ضُخَّت تلك الأموال في الرهان على حصان السير آيزاك.

لم يكن بلاك قد راهن قبل ذلك إطلاقًا، لكنَّه رأى فُرصةً لجنْي المال بسهولة. كان الرجل يؤمن صدقًا بصحة كل ما قاله للسير آيزاك. كان يرى بكل ثقة أنَّ الفارس قد أدى «أداءً رائعًا في السباق»؛ لذا فقد اكتسب رصيدًا كافيًا فيما بين أفضل الرجال في الحلبة لوضع رهاناتٍ طائلة عليه.

شهدت سوق الرهانات تغيُّرًا استثنائيًّا مرَّة أخرى؛ إذ صار «تيمبولينو» مرشحًا مُفضَّلًا لدى المُراهِنين مجددًا. وتراجع الرهان على «نيميسيس»، فصارت نسبة أرباح الرهان عليها أربعة إلى ستة ثم أصبحت اثنان إلى واحد ثم خمسة إلى اثنين.

غير أنَّ الأموال قد بدأت تتدفَّق آنذاك من أنحاء البلاد؛ إذ كانت نتائج السباق وأحداثه قد نُشرَت في أحدث الطبعات من مئات الصحف المسائية في مختلف أرجاء إنجلترا وأيرلندا واسكتلندا. وسرعان ما اتخذ المُراهنون الصغار في بريطانيا العُظمى قرارتهم، فأقبلوا على إعادة توظيف أموالهم في الرهانات؛ بعضهم لتأمين رهاناته والآخر لتعزيز ما كانوا يَعدُّونه أرباحًا مضمونة بالفعل.

وهنا صُبَّت الأموال في كفة «نيميسيس». ذلك أنَّ المُراسِلين الصحفيِّين كانوا مُحايدين؛ إذ لم تكن لديهم أي مصلحةٍ سوى إيصال الأخبار الدقيقة إلى الجمهور ووصف أحداث السباق كما رأوها. وقد كانت تلك الأحداث كما رأوها هي الأحداث التي لم يُصدِّقها السير آيزاك والتي سخر منها بلاك بكلِّ صراحة.

كان من المقرر إجراء السباق الأخير في الساعة الرابعة والنصف، وبعدما اجتازت الخيول المشاركة فيه خطَّ النهاية، واقتيد الحصان الفائز إلى حظيرة نزع السروج، جاء الحصانان المُتعادِلان في سباق «لنكولنشير هانديكاب» الذي لا يُنسى من حقل التدريب إلى المضمار بخطواتٍ وثَّابة.

لم تكن مسألة إجراء قرعة الاختيار بين أماكن الانطلاق بالمهمَّة؛ إذ لم يكن ثمة الكثير من الاختيارات أمام الفارسين، اللذين كانا خبيرين متمرِّسين في الفروسية. وقع تأخرٌ طفيف عند خط البداية؛ فكَوْنُ السباق بين حصانين عداءين فقط لا يعني بالضرورة أنَّ الانطلاقة ستكون موحَّدة التوقيت، وإن كان يبدو من المُستبعَد آنذاك أن يحدث ما قد يمنع هذه المجموعة الصغيرة من الخيول المُشاركة من الانطلاق معًا في وقتٍ واحد. فحين رُفِعَت الأشرطة، استدارت «نيميسيس» نصف استدارة قبل الانطلاق وتأخَّرت بفارق طولين عن «تيمبولينو».

صاح أحدٌ من الحلبة قائلًا: «سأُراهن على «تيمبولينو».» وجاء صوت يَصيح بنبرةٍ متقطِّعة، قائلًا: «سأراهن بنسبة ثلاثة إلى واحد.»

رَدَّت مجموعة من الحاضرين بموافقةٍ جماعية على هذا العرض كأنَّهم جوقة موسيقية.

كان السير آيزاك يشاهد السباق من المدرج العام، وكان بلاك واقفًا بجواره.

سأله الأخير مُغتبطًا: «ألم أقُل لك؟ الأموال في جيبك يا عزيزي آيكي. انظر، إنه مُتقدِّم بفارق ثلاثة أطوال. ستفوز بكل سهولة.»

كان فارس «نيميسيس» قد استعاد توازنها. لم يُحاول زيادة سرعتها، بل بدا قانعًا بالانتظار في المؤخِّرة بفارق هذه الأطوال الثلاثة. وحينئذٍ أومأ جريشام، الذي كان يُشاهدهما من خلال منظاره، مُستحسنًا هذا التصرُّف.

قال للرجل الذي كان واقفًا جانبه: «إنَّهما لا يَركضان وَفق وتيرةٍ معيَّنة. لقد كانت المهرة أكثر تأخُّرًا عند هذه المرحلة في السباق نفسه.»

كان الحصانان كلاهما يركضان بسلاسة. وعند العمود الذي يشير إلى مرور مسافة قدرها خمس من وحدات الفرلنج، أرخى فارس «نيميسيس» لجامها وحرَّرها قليلًا. فحسَّنت وضعها في السباق دون أي جهدٍ يُذكَر. عرف الفارس آنذاك موارده بالضبط، وكان قانعًا بالانتظار في المؤخِّرة. ولا تحتاج بقية أحداث هذا الشوط من السباق إلى كثيرٍ من الوصف؛ فقد ظلَّا يركضان بهذا الترتيب إلى أن بلغا القطاع الأخير قبل نقطة الفوز، وحينها نَظَر فارس «تيمبولينو» حوله.

قال جريشام وكأنه يتحدث إلى نفسه: «إنَّه مهزوم لا محالة.» كان يعرفُ أنَّ بعض الفرسان ينظر حوله حين يشعر بأنَّ الحصان يَخيبُ من تحته.

وعلى بُعد مائتي ياردة من خط النهاية، صارت «نيميسيس»، بمجهودٍ لا يُذكَر، مُتجاورةً مع الحصان المتصدر على استقامةٍ واحدة؛ فأخرج الفارس الآخر سوطه. وضرب حصانه ضربتَين متتاليتَين، فأسرع الحصان حتى صار متقدمًا برقبته، ثم أسرعت «نيميسيس» بركضةٍ واحدة طويلة لتُصبح على استقامةٍ واحدة مع «تيمبولينو»، الذي توقف بسرعة، ثم تجاوزته وفازت بسهولةٍ تامة بفارق طولٍ ونصف.

لم يستطع السير آيزاك أن يصدق عينيه. شهق فاغرًا فاه، ورمى منظاره، وحدَّق إلى الحصانين مشدوهًا. كان من الجلي أنَّه هُزِم بالفعل قبل بلوغ خط النهاية بمسافةٍ طويلة.

صاح وهو في حالةٍ من الغضب والغمِّ الشديدَين: «لقد كَبَح جماح الحصان ليخسر متعمدًا. انظروا إليه! سأطلب مثوله أمام المنظمين. لم يكن يقود الحصان إلى الأمام!»

فقَبَض بلاك على ذراعه، وتمتَمَ قائلًا: «صه أيها الأحمق. هل ستُشهِر أنَّك مُفلس تمامًا أمام كل هؤلاء الناس؟ لقد هُزِمت هزيمة عادلة جدًّا. وأنا قد خسرتُ قدرَ ما خسرتَه أنت من المال. إيَّاك أن تفعل هذا.»

نَزَل السير آيزاك دَرَج المُدرج الكبير وسط حشدٍ من الناس كانوا كلهم يتحدثون في آنٍ واحد بنبراتٍ مختلفة. كان مذهولًا. كان كأنه رجلٌ في حُلم. لم يستطع آنذاك أن يدرك تأثير ذلك فيه. كان مصعوقًا ومتحيرًا. كل ما كان يعرفه أنَّ «تيمبولينو» قد خسر. كانت

تراوده فكرةٌ ضبابية في قرارة ذهنه بأنَّه هالكٌ لا محالة، ومجرَّد بصيصٍ من الأمل في أنَّ بلاك سيُنقذه من مأزقه بطريقةٍ غامضةٍ ما.

كرَّر بنبرةٍ مكتومة: «لقد كُبِح جماح الحصان كي لا يفوز. لا يُمكن أن يكون قد خسر. ألم يُكبح جماحه يا بلاك؟»

فقال الآخر مزمجرًا: «صهٍ. ستضع نفسك في مأزقٍ شنيع إن لم تُمسك لسانك هذا.» أبعد الرجل المرتعش عن المضمار، ووضَع في يده كوبًا من مشروب البراندي القوي المفعول والماء. فاستفاق البارونيت على ورطته المأساوية.

قال بنبرةٍ مفعمة بالعويل: «لا أستطيع الدفع يا بلاك. لا أستطيع الدفع، يا له من مأزقٍ شنيع لي. يا لحماقتي حين أخذت بنصيحتك، يا لحماقتي! سحقًا لك! لقد كُنتَ متواطئًا مع جريشام. لماذا نصحتني؟ ما الذي جَنَيته من ذلك؟»

قال بلاك بفظاظة: «صه. إنَّك كطفلٍ رضيع يا آيكي. ما الذي يُقلقك؟ لقد أخبرتك بأنني خسرتُ من المال قدرَ ما خسرتَه أنت. علينا الآن أن نجلس ونُفكر في خطة لكسب المال. كم خسرت؟»

هزَّ السير آيزاك رأسه بِوَهن، وقال بفتور: «لا أعرف. ستة آلاف أو سبعة من الجنيهات.» وأضاف بنبرةٍ حزينة: «إنني لا أملكُ حتى ستة آلاف من البنسات أو سبعة. هذا مأزقٌ فاضح لي يا بلاك. لرجلٍ بمكانتي، صار عليَّ أن أبيع خيولي ...»

ضحك بلاك ضحكةً فظَّة عنيفة، وقال: «مكانتك!» ثم أضاف: «يا عزيزي الطيب، ينبغي ألَّا أدَع ذلك يُقلقك. أما عن سُمعتك ...» وأكمل ممازحًا إيَّاه بفظاظة: «أنت تعيش في جنة من وحي أوهامك يا عزيزي. عجبًا، لستَ أفضل سمعةً منِّي. فمن ذا الذي يُبالي بما إذا كنت ستدفع ديونك التي لا تُلزمك بها سوى كلمةِ شرف أم لا؟ بل سيكون الناس أشدَّ ذهولًا إذا سددتَ الدين من ذهولهم إذا لم تُسدِّده. أزِل كل هذا الهراء من رأسك، وفكِّر بعقلانية. ستُعوِّض كل ما خسرته بل أيضًا ستجني أكثر بكثير. عليك أن تتزوَّج، وبسرعة، ثم عليها أن تَرِث أموال سيدي اللورد، بالسرعة نفسها تقريبًا.»

نظر آيكي إليه بذهول ممزوج باليأس. وقال بنبرةٍ نَكِدة: «حتى لو تزوجتني، يجب أن أنتظر سنواتٍ قبل الحصول على الأموال.» فابتسم الكولونيل بلاك.

وبينما كانا يبتعدان عن المضمار، لَحِق بهما رجلٌ لَمَس ذراع البارونيت.

قال له: «معذرة أيها السير آيزاك.» وأعطاه ظَرفًا.

فسأله البارونيت بتعجُّب: «أهو لي؟» وفتح الظرف. لم يكن يَحوي أيَّ رسالة، بل مجرد قصاصةٍ ورقية وأربع أوراق نقدية قيمة كل منها ألف جنيه. شهق السير آيزاك فاغرًا فاه، وقرأ ما فيها:

> ادفع ديونك وعِش بنزاهة، اجتنب بلاك اجتنابك للشيطان، واكسب رزقك بكدٍّ واجتهاد.

كان الخط يُخفي هوية صاحبه، لكن كان واضحًا أنَّ تلك هي لهجة اللورد فيرلوند.

(١٣) مَن هُم الأربعة؟

كان اللورد فيرلوند يجلس إلى مائدة الفطور أمام نسخةٍ مفتوحة من صحيفة «ذا تايمز». ولما كانت وجبة الفطور تتَّسم دومًا بطابعٍ من الانطوائية في بيت فيرلوند؛ فقد قنعت الليدي ماري، التي كانت في ثوبها الصباحي الأنيق، بقراءة رسائلها وصحفها وهي لا تتوقَّع أن يُحادثها الرجل العجوز.

نَظر إليها، وكان وجهه يدلُّ على انهماكه في التفكير. ودائمًا ما كانت الفتاة ترى في وجهه شيئًا من الحُسن حين يكون هادئًا رابط الجأش، وكانت عيناه الرزينتان تنظران إليها في تلك اللحظة نظرةً لم تتذكَّر الفتاة أنَّها رأتها من قبل.

سألها فجأة: «ماري، أأنتِ مُستعدةٌ لصدمة؟»

ابتسمت الفتاة غير أنَّ ابتسامتها لم تخلُ من القلق؛ فدائمًا ما كانت هذه الصدمات حقائق فعلية. قالت: «أظنُّ أنني أستطيع تحمُّلها.»

خيَّم صمت طويل لم تتزحزح فيه عيناه عن وجهها، ثم قال: «أتُدهشين إذا عرفتِ أنَّ ذاك الشيطان الصغير أخاك لا يزال حيًّا؟»

فصاحت وهي تهبُّ واقفةً على قدميها: «حيًّا!» لم يكن الرجل العجوز في حاجة إلى سؤالها عن رأيها في الخبر؛ إذ تورَّد وجهها من السعادة، ولمَعَت عيناها من الفرحة. صاحت قائلة: «أهذا صحيح حقًّا؟»

قال الرجل العجوز بنبرةٍ كئيبة: «صحيح جدًّا. يا لَغرابة مآل الأمور! لقد كنتِ تظنين أن الشحاذ الصغير قد مات، أليس كذلك؟»

«آه، لا تتكلَّم هكذا أيها العم، أظنك لا تقصد ذلك.»

ردَّ الإيرل بنبرةٍ حادَّة مُفاجِئة: «بل أقصده بالطبع. ولمَ عساني ألا أقصده؟ لقد كان وقحًا للغاية في معاملتي. هل تعرفين بِمَ وصفني قبل أن يرحل؟»

قالت الفتاة: «لكنَّ ذلك كان منذ ستة عشر عامًا.»

فقال العجوز: «فلتَحترق الستة عشر اللعينة في الجحيم. لا فارق لديَّ وإن كان ذلك منذ ألف وستمائة عام؛ فهذا لن يُغيِّر من حقيقةِ أنَّه قد قالها. لقد وصفني بأنني عجوز مُمل مُزعج، فما رأيك في ذلك؟» ضحكت الفتاة، وتوهج وجه الرجل العجوز بسنًا يدلُّ على تجاوبه، ثم قال: «من السهل عليكِ أن تضحكي، لكن ليس من الهيِّن أن يصف شابٌّ من بلدة «إيتون» عضوًا في مجلس اللوردات بأنَّه عجوزٌ ممل مزعج. وحين تذكرتُ الكلمات التي قالها لي عند افتراقنا وأنَّه ذهب إلى أمريكا، إضافة إلى الحقيقة الشديدة الأهمية المتمثِّلة في أنني عضوٌ في الكنيسة وأواظب على التبرع لجمعيات الكنيسة، فقد ظننتُ بطبيعة الحال أنه قد مات. فبالرغم من كل شيء، يتوقَّع المرءُ مكافأةً ما من العناية الإلهية الكلية الحكمة.»

سألته: «أين هو؟»

فقال الإيرل: «لا أعرف. لقد تعقَّبتُ أثره حتى عرفت أنَّه وصل إلى تكساس، حيث يبدو أنه استقر في مزرعةٍ حتى بلغ الحادية والعشرين. وبعد ذلك، بدا تتبُّع تحركاته صعبًا بعض الشيء.»

فقالت فجأة وهي تُشيرُ إليه بإصبع اتهام: «عجبًا، كنت تُحاول تعقبه؟!»

بدا الرجل العجوز مرتبكًا للحظة قصيرة وصاح غاضبًا: «لم أفعل شيئًا كهذا. هل تظنِّين أنني قد أنفق أموالي على تتبع ذاك الوغد الذي ...»

فأضافت قائلة: «آه، بل فعلت. أعرف أنَّك فعلت. لماذا تتظاهَر بأنَّك عجوز شنيع؟»

فقال مُتذمِّرًا: «على أيِّ حال، أظن أنَّ أحدهم قد عثر عليه، وهذا يسلبك قدرًا كبيرًا من الثروة التي كانت ستُصبح من نصيبك. لا أظنُّ أنَّ جريشام سيظلُّ راغبًا فيكِ الآن.» ابتسمت الفتاة. ونهض الرجل من أمام المائدة واتجه إلى الباب، ثم قال: «أخبري ذاك الوغد اللعين ...»

«أيُّ واحد؟»

رد قائلًا: «جيمس. أخبريه بأنني لا أريد إزعاجًا. أنا ذاهب إلى غرفة مكتبي، ولا أُريد إزعاجًا لأي سببٍ كان، مفهوم؟»

وإذا كان ذلك الصباح حافلًا لفخامته، فقد كان حافلًا بالقدر نفسه لبلاك وصديقه؛ ذلك أنَّه كان صباح يوم الإثنين، أي يوم سداد ديون الرهانات، وكانت العديد من أندية الرهانات تعجُّ بوكلاء رهانات مُترقِّبين كانوا قد دوَّنوا اسمَي بلاك والسير آيزاك في دفاترهم

مرات كثيرة، وكانوا يَتفقَّدون ساعاتهم في ذلك اليوم بمشاعر كادت أن تصل إلى القلق الشديد.

بالرغم من ذلك، فقد دُهِش جميع مَن يعرف الرجلين بأنَّ الديون قد سُدِّدت. لقد حظيَت «الشركة» بدعمٍ مالي.

قضى السير آيزاك ترامبر عصرَ ذاك اليوم سعيدًا؛ إذ رُفِع من غياهب اليأس إلى قمم البهجة. لقد سُدِّدت الديون التي التزم بها بكلمة شرف، وشعر حينئذٍ بأنَّه قادرٌ على مواجهة الدنيا بكلِّ ثقة. وبينما كانت سيارة الأجرة تقودُه بسرعة إلى مكتب بلاك، راح يُصفِّر بابتهاج، ويبتسم من ذهول وكيل المراهنات الذي كان يشكُّ في أنَّه سيُسدِّد ديونه، والذي حاول إخفاء ذلك الذهول بتأدُّب.

لم يكن الرجل الضخم في مكتبه، وكان السير آيزاك قد أمَرَ سائقه بالانتظار تحسُّبًا لذلك؛ فطلب منه التوجُّه إلى شقة «تشيلسي». كان بلاك يرتدي ثيابه استعدادًا للعشاء حين وصل السير آيزاك.

قال بلاك مُشيرًا إليه بالجلوس: «أهلًا! أنت الرجلُ الذي أُريده. لديَّ معلومة ستُسعدك. أعرفُ أنَّك من ذاك الصنف الذي يخشى رجال العدالة الأربعة هؤلاء. لا داعيَ إلى أن تخشاهم بعد الآن. لقد اكتشفتُ كلَّ شيءٍ عنهم. لقد كلَّفني هذا الاكتشاف ٢٠٠ جنيه، لكنَّه يستحق كل بنس.» نظر إلى ورقةٍ موضوعة أمامه، وأضاف: «هذه قائمة بأسمائهم. مجموعة غريبة، أليس كذلك؟ لن يَخطر ببالك أنَّ أي شخصٍ حتى وإن كان من أتباع مذهب جون ويسلي الميثودي قد يأتي بتلك الأفعال التي فعلها هؤلاء. مدير بنك في جنوب لندن، السيد تشارلز جريمَبرد، أظنُّك قد سمعتَ عنه؛ إنَّه الخبير الفني، شخصٌ غير متوقَّع، أليس كذلك؟ وولكنسون ديسبارد، إنَّه الرجل الذي كنتُ أشكُّ في انتمائه إليهم أكثر ممَّا شككتُ في أيِّ شخصٍ آخر. كنتُ أتابع الصحف بعنايةٍ منذ فترة. ووجدتُ أنَّ مجلة «بوست هيرالد»، التي يكتب فيها، دائمًا ما كانت على درايةٍ تامة بتلك الاعتداءات التي يُنفذها «الأربعة». يبدو أنَّها أدرى بهم من أيِّ صحيفة أخرى، وفوق ذلك، فهذا الرجل المدعو ديسبارد يكتب عن المشكلات الاجتماعية بكل همة. لديه بيتٌ في شارع «جيرمن ستريت». لقد كلَّفتُ رجلًا برشوة خادمه، الذي كان يُراهن وخسر أمواله. لقد ظلَّ رجلي يُلحُّ عليه أسبوعين.» قال بعد ذلك وهو يَرمي بالورقة إليه: «ستجدهم هنا أقلَّ إثارةً للرهبة مما يكونون عليه حين يلتزمون بأقنعتهم وألقابهم المُضحِكة.»

تفحَّص السير آيزاك القائمة باهتمام.

قال: «لكن لا يوجد هنا سوى ثلاثة؛ فمن الرابع إذن؟»

«الرابع هو القائد، ألا تستطيع تخمين هُويته. جريشام بالطبع.»

«جريشام؟»

قال بلاك: «ليس لديَّ أي دليل، هذا مجرد تخمين. غير أنني مُستعدٌّ للرهان بكل ما أملك في الدنيا على أنني مُحِق. إنَّه مطابقٌ تمامًا لصنف الرجال الذي يليقُ به أن يشارك في مثل ذلك العمل، وأن يُنظِّمه ويُرتِّب تفاصيله.»

سأله السير آيزاك مجددًا: «أمتيقنٌ من أنَّ الرابع هو جريشام؟»

قال بلاك: «متيقن جدًّا.» كان قد أنهى ارتداء ثيابه، وشرع في تنظيف معطف السهرة بعناية باستخدام فرشاةٍ صغيرة.

سأله السير آيزاك: «إلى أين أنت ذاهب؟»

أجاب الآخر: «لديَّ مهمة صغيرة يجب أن أقوم بها الليلة. لا أظن أنها تهمُّك كثيرًا.» توقَّف عن التنظيف بالفرشاة. بدا منهمكًا للحظة في تفكيرٍ عميق، ثم قال ببطء: «لقد أعدتُ التفكير في الأمر، وأرى الآن أنَّها قد تُثير اهتمامك. تعالَ معي إلى المكتب. هل تعشيت؟»

«لا، ليس بعد.»

قال بلاك: «يؤسفني أنني لا أستطيع أن أقدم لك العشاء؛ فلديَّ ارتباط مُهم بعد قليل يستحوذ على كل اهتمامي حاليًّا.» وأضاف: «إنك لا تَرتدي الثياب الرسمية، ولكن لا بأس في ذلك؛ فالمكان الذي سنذهب إليه لا يُلزِم الحاضرين بارتداء الثياب الرسمية.»

ارتدى معطفًا طويلًا فوق حُلَّة السهرة التي كان يرتديها، وأغلق أزراره حتى الرقبة. انتقى قبعة لُبادية ناعمة من خزانة الملابس الموجودة في الغرفة، واعتمرها أمام المرآة، ثم قال: «والآن، هيا بنا.»

كان الغسق قد حل، وبدا أنَّ الرياح العاتية، التي كانت تعصف في أرجاء الشارع المهجور بصريرها الشديد، برَّرت الكساء الإضافي الذي الْتحَفَ به. لم يستدعِ سيارة أجرة على الفور، بل سار حتى وصلا إلى طريق جسرِ «فوكسهول بريدج». وبحلول ذلك الوقت، كان صبر السير آيزاك قد نفد تقريبًا وكادت قواه على المشي تخور.

قال بانزعاج: «يا إلهي! ليس ذلك من نوعية الأعمال التي أحبها كثيرًا.»

قال بلاك: «تحلَّ بقليلٍ من الصبر. فأنت لا تنتظر مني بالطبع أن أستدعيَ سيارة أجرة ونحن في تشيلسي، وأُخبر السائق بوجهتي أمام نص دزينةٍ ممَّن يتنصَّتون علينا ليسمعوها. يبدو أنَّك لا تعي يا آيكي أننا مُراقَبان عن كثب.»

تحدَّث السير آيزاك بالحق قائلًا: «حسنًا، ربما يُراقبونَنا الآن أيضًا.»

«ربما، لكن من المُستبعَد أنَّ يكون أيٌّ منهم قريبًا منا بالدرجة الكافية ونحن نُخبر السائق بوجهتنا المحددة.»

كان صوت بلاك وهو يُخبر السائق بوجهتهما خفيضًا جدًّا حتى إنَّ السير آيزاك نفسه لم يسمعه. وعبر اللوح الزجاجي الصغير في مؤخرة سيارة الأجرة، ظلَّ بلاك يتفحَّص المركبات السائرة وراءهما، ثم قال: «لا أعتقد أنَّ أحدًا يُلاحقنا الآن. إنَّها ليست مسألة شديدة الأهمية، لكن إذا عرف «الأربعة» أننا نحاول إحباط خططهم، فقد نقع في مأزقٍ حَرِج.»

قطعت السيارة الطريق المُلتوي المؤدي من حيٍّ «أوفال» إلى «كينينجتون جرين». وشقَّت طريقها ببراعة وسط السيارات الأخرى ووصلت إلى شارع «كامبرِول رود». وفي منتصَف الطريق، أطل بلاك برأسه من النافذة، وانعطفت السيارة بحدَّةٍ إلى اليسار، ثم نَقَر على النافذة وتوقَّفت السيارة. ترجَّل من السيارة، ثم ترجَّل السير آيزاك. قال للسائق: «انتظرني عند نهاية الشارع.»

أعطى الرجل بعض النقود تعبيرًا عن حسن نيته، ثم ابتعد الاثنان. كان الشارع واحدًا من مآوي الحرفيين ذوي الفقر المُدقع، وقد استعان بلاك بالمصباح الكهربائي الذي كان يحمله في جيبه ليرى رقم البيت الذي كان يريده. وأخيرًا وصل إلى منزلٍ صغير أمامه حديقةٌ صغيرة جدًّا، وقَرَع الباب. فتحت الباب فتاةٌ صغيرة. فسألها: «هل السيد فارمر هنا؟»

قالت الفتاة: «نعم يا سيدي، فلتتفضَّل بالصعود إلى الأعلى.»

قادتهما الفتاة وصعدت بهما الدَّرَج الذي كان مفروشًا بالسجاد، وقرعت بابًا صغيرًا على اليسار. جاء صوتٌ أَذِن لهما بالدخول، فدخل الرجلان. كان ثمَّة رجلٌ يجلس إلى الطاولة في غرفة فقيرة التأثيث لا تضيئُها إلَّا النيران. نَهَض ذلك الرجل حين دخلا.

قال بلاك: «يجب أن أوضح أنَّ السيد فارمر قد استأجر هذه الغرفة لأسبوعين فقط؛ فهو لا يأتي إلى هنا إلَّا من حين إلى آخر للقاء أصدقائه.» وأضاف مشيرًا إلى السير آيزاك: «هذا من أقرب أصدقائي.»

أغلق الباب، وانتظر حتى تلاشى وقع خطوات الفتاة على الدرَج.

قال الرجل المدعو فارمر: «إنَّ ميزة الاجتماع في مثل هذه المنازل أنَّ أدنى حركة تهزُّ المبنى كله من السطح إلى أسفل طابق.»

كان الرجل يتكلم بصوتٍ يُمكن وصفه «بالرُّقيِّ المُصطنَع». لقد كان صوت رجلٍ عادي قضى وقتًا طويلًا في صحبة سادة الطبقات الراقية، ويسعى إلى تقليد نبرتهم دون أن يُحاول اكتساب مفرداتهم.

قال له بلاك: «تستطيع التكلم بحرِّية يا سيد فارمر؛ فهذا الرجل مؤتمن على أسراري. وكلانا مهتمٌّ بهذه المنظمة السخيفة. أعرفُ أنَّك تركت العمل لدى السيد ولكنسون ديسبارد، أليس كذلك؟»

أومأ الرجل، قال مع كَحة قصيرة تدلُّ على شعوره بالإحراج: «بلى يا سيدي. لقد تركتُه يوم أمس.»

«حسنًا، وهل اكتشفتَ هوية الرابع؟»

تردَّد الرجل، وقال: «لستُ متيقنًا يا سيدي. من الأمانة أن أقول إنني لستُ متيقنًا تمامًا، لكنِّي أظنُّ أنَّك تستطيع الاعتماد على أنَّ الرجل الرابع هو هوريس جريشام.»

قال بلاك: «إنك لم تَقُل ذلك حتى اقترحتُ الاسم بنفسي.»

لم يرتبك الرجل إطلاقًا من التشكيك الكامن في هذه العبارة. كان صوته هادئًا وهو يردُّ قائلًا: «أعترفُ بذلك يا سيدي، لكنِّي كنتُ أعرف الرجال الثلاثة الآخرين، أما الرابع، فلم أكن أعرف عنه أي شيء. كان يجيء إلى بيت السيد ديسبارد في وقتٍ متأخِّر من الليل، وكنتُ أُبلِّغه إذن سيدي بالدخول، لكنِّي لم أر وجهه ولم أسمع صوته قَط؛ إذ كان يتَّجه إلى غرفة مكتب السيد ديسبارد مباشرة. وإذا عرفت تصميم البيت من الداخل، فستُدرك أنَّ سماع أيِّ شيء يكاد أن يكون مُستحيلًا!»

سأله بلاك: «كيف عرفت أنَّ هؤلاء الرجال هم «الأربعة»؟»

قال الآخر وقد بدا عليه الانزعاج: «حسنًا، الحق يا سيدي أنَّ الخدم عادةً ما يكتشفون بعض الأشياء؛ كنتُ أتنصَّت.»

«ومع ذلك لم تعرف هوية القائد قَط؟»

«لا يا سيدي.»

«هل اكتشفتَ أيَّ شيء آخر لا أعرفه؟»

قال الرجل بلهفة: «نعم يا سيدي. اكتشفتُ قبل تركِ العمل لدى السيد ديسبارد أنَّهم يستهدفونك. هذا مصطلحٌ قديم في الجيش يعني أنَّهم قد أدرجوك ضِمن قائمة مَن سيُعاقبونهم.»

قال بلاك: «آه، يَعتزمون معاقبتي، أحقٌّ هذا؟»

«لقد تنامى ذلك إلى سمعي في الليلة الماضية. حسنًا، تتألَّف الاجتماعات عادةً من أربعة أشخاص، غير أنَّ الرابع نادرًا ما كان يظهر إلَّا إذا كان يوجد شيء يجب أن يفعله. لكنَّه دائمًا ما يكون هو الروح التي تقودهم. هو الذي يُوجِد لهم الأموال عند الحاجة إليها. هو الذي يُوجِّه «الأربعة» إلى مهامِّهم المختلفة. وهو الذي دائمًا ما يختار الأشخاص الذين يستحقون العقاب. وقد اختارك يا سيدي. لقد اجتمعوا الليلة قبل الماضية، وكانوا يتحدَّثون عن أشخاصٍ مختلفين، وسمعتُ اسمك.»

«كيف استطعت أن تسمعهم؟»

«كنتُ في الغرفة المُجاورة يا سيدي. توجد غرفةٌ لتبديل الملابس تؤدي إلى خارج غرفة السيد ديسبارد، حيث كانت تُعقد هذه الاجتماعات، وكانت لديَّ نُسخة من المفتاح.»

قام بلاك كأنه يَهمُّ بالرحيل.

تساءل السير آيزاك الذي كان يُصغي إلى حديثهما: «يبدو مؤسِفًا أنَّك تركت ذلك الرجل. هل تحدثوا عنِّي من قبل؟»

قال الخادم باحترام: «لا أعرفُ اسمك يا سيدي.»

فقال البارونيت فورًا: «لا، ولن تعرفه أبدًا بالتأكيد.»

قال الرجل: «الآن أيها السيدان وقد فقدتُ وظيفتي، فإنني أرجو أن تفعلا كل ما بوسعكما لتُوفِّرا لي وظيفة أخرى. وإذا كان أيٌّ منكما أيها السيدان يُريد خادمًا جديرًا بالثقة.»

قالها وهو ينظر مُستفسرًا إلى السير آيزاك؛ إذ رأى أنه الأقدرُ بين الاثنين على تشغيله لديه.

فقال الآخر بحِدَّة شديدة: «ليس أنا؛ فأنا أصلًا أجدُ صعوبةً في حفظ أسراري دون أن يكون لديَّ أيُّ رجل لعين مُتنصِّت على الأبواب يتجسَّس علي.»

لم يبدُ أنَّ الرجل الذي وُجِّهَت إليه هذه الكلمات قد تألَّم كثيرًا من فظاظة الآخر؛ إذ اكتفى بأن أحنى رأسه ولم يرُد.

أخرج بلاك محفظة مسطَّحة من جيبه الداخلي وفتحها وأخرج منها ورقتين نقديتين.

قال: «هاك عشرين جنيهًا، وبذلك يصبح إجمالي ما أخذته مني ٢٢٠ جنيهًا. والآن، إذا استطعت اكتشاف أيِّ شيءٍ آخر يستحق المعرفة، فلن أمانع في جعل المبلغ يصل إلى ٣٠٠ جنيه، لكنه يجب أن يكون شيئًا قيِّمًا. احفظ الود مع الخُدَّام الآخرين. فأنت تعرف بقيتَهم. هل يوجد أيُّ سبب يمنعك من العودة إلى الشقة؟»

«لا يا سيدي، لقد طُردتُ بسبب الإهمال فقط.»

قال بلاك: «جيد جدًّا. تعرفُ عنواني وتعرف أين تجدني. إذا جَدَّ أيُّ جديد، فأخبرني.»

«حسنًا يا سيدي.»

قال بلاك وهو يهمُّ بالرحيل: «بالمناسبة، هل يفكر «الأربعة» في فعلِ أيِّ شيء قريبًا؟»

قال الرجل بلهفة: «لا يا سيدي. أنا مُتيقنٌ جدًّا من ذلك؛ فقد سمعتهم يناقشون مدى صواب فكرة الافتراق؛ ذلك أنَّ أحدهم يرغب في السفر إلى القارة شهرًا، ويريد آخر الذهاب إلى أمريكا ليتدبر شئون أرضه التي قد يكون في باطنها بعض المعادن. بالمناسبة، لقد اتفقوا على أنه ما من شيء ضروري يستدعي لقاءهم على مدار شهرٍ قادم؛ ولهذا قد استنتجتُ أنَّهم لن يفعلوا شيئًا طوال هذه المدة.»

قال بلاك: «ممتاز!» ثم صافح الخادِم وغادَر.

قال له السير آيزاك وهما عائدان إلى سيارة الأجرة: «ما أبغض أن يكون لدى المرء رجل كهذا في المنزل.»

قال بلاك بحسٍّ فُكاهي: «نعم، لكنه ليس منزلي، بل إنني لا أشعر بأي حرج حيال فعل ذلك.» وأضاف بشيءٍ من الفضيلة: «صحيحٌ أنني لا أَستحسِنُ سؤال الخدَّام عن معلومات بشأن أسيادهم وسيداتهم، لكنَّ هذا السلوك يكون مُبرَّرًا تمامًا في بعض الأحيان.»

(١٤) ويلي جيكوبس يُفصح عما لديه

بعدما صار الرجل الذي كانا يدعوانه «فارمر» بمفرده، انتظر بضع دقائق، ثم أنزل معطفه الذي كان معلَّقًا خلف الباب، واعتمر قبعته وارتدى قفازيه بتروٍّ وعناية، وغادر المنزل. سار في الاتجاه الذي سلَكَه بلاك والسير آيزاك، لكن سيارة الأجرة التي أقلَّتهما كانت تُسرِع باتجاه الشمال قبل وقتٍ طويل من وصوله إلى المكان الذي كانت تنتظر فيه.

واصَل طريقه إلى شارع «كامبرِول رود» واستقلَّ عَربة ترام. بدا من مصابيح إنارة الشوارع وأضواء نوافذ عرض المحلات أنَّه رجلٌ حسن المظهر ذو قامةٍ أطول بقليل من المتوسط، ووجه شاحب مُهذَّب. كان يرتدي ملابس بسيطة، لكنه كان أنيقًا.

ترجَّل من الترام بالقرب من حي «إيليفانت آند كاسل»، ومشى سريعًا في طريق «نيوكِنت رود»، ثم انعطف إلى شارعٍ أفقر يقود إلى متاهةٍ من الشوارع الأصغر والأشد فقرًا الموجودة في تلك المنطقة التي كان يحُدُّها من الغرب سوق «إيست ستريت» ويحُدُّها من الغرب شارع «نيوكِنت رود». وعلى مسافةٍ قصيرة في ذلك الشارع، كانت بعض المنازل القديمة قد هُدِمَت وشُيِّدت مكانها مبانٍ جديدة بالطوب الأصفر. كان يوجد عمود إنارة أحمر كبير خارج أحد المداخل الواسعة يُخطِر أهالي الحي بأنَّ هذا هو المستوصف المجاني، مع أنَّه ما من أحد ممَّن كانوا يعيشون ضمن منطقةٍ يبلغ نصف قطرها خمسة أميال كان يحتاج إلى أي معلوماتٍ عن وجود هذا المستوصف.

كان هذا المدخل يحوي لوحةً تحمل أسماء ثلاثة أطباء، وكان أمامَ كلٍّ من هذه الأسماء لوحٌ منزلق صغير يُتيح للأطباء إبلاغ زوارهم بما إذا كانوا موجودين في المستوصف أم لا. وقف الرجل أمام اللوحة.

كان اللوح المنزلق الصغير الموجود أمام الاسم الأول يشير إلى علامة «في الخارج».

فَرَفع فارمر يده وحرَّك اللوح فأظهر كلمة «موجود»، ثم عَبَر الباب إلى غرفة الانتظار الكبيرة، ثم دخل غرفة صغيرة تحمل اسم «الطبيب ويلسون جريل».

أغلق الباب خلفه وأوصده بمزلاج. خلع قبعته ومِعطَفه، وعلَّقهما، ثم قَرَع جرسًا، فأتى إليه خادم.

سأله الرجل: «هل الطبيب أوهارا موجود؟»

أجاب الخادم قائلًا: «نعم أيها الطبيب.»

«هلا طلبت منه أن يأتي إليَّ من فضلك؟»

وفي غضون دقائق، دخل رجلٌ متوسط القامة، قوي البنيان، وأغلق الباب وراءه.

قال: «حسنًا، كيف أبليت؟» وسحب كرسيًّا نحو المنضدة من تلقاء نفسه.

قال جونزاليس بضحكةٍ طفيفة: «لقد ابتلعا الطُّعم. أظنُّهما ينويان فعل شيءٍ ما. لقد كانا متلهفين للغاية لمعرفة ما إذا كُنَّا نعتزم اتخاذ إجراءٍ في وقت قريب أم لا. فلتُخبِر مانفريد بأننا سنَعقِد اجتماعًا الليلة. ماذا عن ديسبارد؟ هل تظن أنه سيعترض على استخدام اسمه الحقيقي؟»

كان صوته آنذاك قد تجرَّد من الرُّقيِّ المُصطنَع الذي انطلى للغاية على بلاك.

«لا إطلاقًا. لقد اخترته عمدًا لأنني كنتُ أعرف أنَّه سيُسافر الليلة إلى خارج البلاد.»

«والآخرون؟»

«باستثناء الخبير الفني، فهُم غير موجودين.»

«وماذا إن تحرَّى عن الأمر؟»

«إنه ليس بالرجل الذي قد يفعل هذا، بل سيكتفي بمعرفة الأبرز من بين «الأربعة»: ديسبارد؛ وذلك الرجل الآخر الذي نسيتُ اسمه. سيغادر ديسبارد الليلة، وسيرحل الآخر يوم الأربعاء متجهًا إلى أمريكا. ومثلما ترى، فإنَّ هذا يتسقُ مع ما قُلتُه لبلاك.»

أخرج من جيبه الورقتين النقديتين من فئة العشرة جنيهات، ووضعهما على المنضدة. قال وهو يُعطيهما الرجل الآخر: «عشرون جنيهًا. يجدر بك أن تجد شيئًا تستخدمها فيه.»

حشرهما الآخر في جيب صداره.

«سأرسل طفلَي «برادي» هذين إلى شاطئ البحر. صحيحٌ أنَّ ذلك لن يُنقذ حياتهما على الأرجح، لكنَّه سيمنح الشيطانَيْن الصغيرَيْن تصوُّرًا عمَّا تحمله الحياة من متعة، على مدار شهر بأكمله تقريبًا.» بدا أنَّ الفكرة نفسها خَطَرت ببال الاثنين، وضحكا.

قال جريل، أو فارمر، أو جونزاليس — سَمُّوه ما شئتم — وقد التمعت عيناه الزرقاوين: «لن يحبَّ بلاك معرفة المسعى الحقير الذي أُنفِقَت فيه أمواله الطيبة.»

قال بويكارت: «هل كانا مُهتمَّين بمعرفة هوية الرجل الرابع؟»

فقال الآخر: «كانا مُتلهفَيْن للغاية، لكنِّي تساءلتُ عمَّا إذا كانا سيُصدقانني لو كنت قد اعترفتُ لهما بأنني شخصيًّا واحدٌ من الأربعة، واعترفتُ في الوقت نفسه بأنني أجهلُ هوية الرابع مثلهما تمامًا.»

قام بويكارت، ووقف ينظر إلى نيران المدفأة وقد بدت عليه الحيرة وهو يضع يديه في جيبي بنطاله.

قال: «كثيرًا ما أتساءل عن هويته. ألا تتساءل؟»

قال جونزاليس: «لقد تجاوزتُ مشاعر الفضول تلك؛ فأيًّا ما كانت هويته. أنا متيقنٌ من أنه رجلٌ طيب القلب يعمل من أجل غرضٍ واحد.»

أومأ الآخر بالموافقة.

قال جريل بحماسة: «أنا ميتقنٌ من أنه قد أدى عملًا رائعًا وشريفًا وله ما يُبرِّره.»

أومأ بويكارت بجِديةٍ رزينة.

قال الآخر: «بالمناسبة، لقد ذهبتُ إلى اللورد فيرلوند العجوز، تتذكرُ أنَّ الرابع قد اقترح علينا أن نُحاول الحصول على أموالٍ منه. إنَّه شخصٌ ساخر ذو لسانٍ سليط.»

ابتسم بويكارت، وقال: «ماذا فعل؟ هل قال لك أن تَغرُب عن وجهه إلى الجحيم؟»

قال د. جونزاليس: «شيءٌ من هذا القبيل. لم آخذ منه سوى نصف جِنِي، وكان ذلك على مضض منه، وظلَّ يُسلِّيني طوال الوقت بأكثر مما يستحق هذا النصف جِنِي.»

قال الآخر: «لكنَّ ذلك لم يكن من أجل هذا العمل.»

هزَّ جونزاليس رأسه، وقال مبتسمًا: «لا، بل من أجل قِسمٍ آخر.»

لم يكن لديهما متَّسعٌ إضافي كبير من الوقت للمحادثة؛ إذ بدأ توافد المرضى. وفي غضون ربع ساعة، أولى الرجلان كامل اهتمامهما لتدبُّر أمر إصابات أهالي هذا الحي المكتظ وأمراضهم وشكاواهم.

يعود الفضلُ في إقامة هذا المُستوصَف العظيم واستمرار عمله إلى سخاء ثلاثة أطباء قد ظهرُوا فجأة. أما عن هوية ذلك الرجل الذي تَبرَّع بمبلغ خمسة آلاف جنيه لصيانة المُستوصَف وإبقائه في حالٍ طيبة، والذي ظهر بنفسه بعد ذلك مُلثمًا ومتَّشحًا بعباءة وأعرب لثلاثة رجال مُخلصين يعملون من أجل الإنسانية عن رغبته في الانضمام إلى المنظمة، فلا أحد يعرفها سوى مانفريد. فقد كان مانفريد هو الحكيم الذي لم يَكتفِ بقبول العرض، بل تَقبَّل كذلك حُسن نية ذلك الغريب؛ أي كان مانفريد هو الذي قَبِلَه شريكًا معهم.

كان بعضٌ ممَّن يلاحظون الأطباء الثلاثة المخلصين ملاحظة عابرة لا يصفونهم بأنَّهم مهووسون فحسب، بل متعصِّبون أيضًا. لم يكونوا مُنتسِبِين إلى أيٍّ مؤسسة، ولم تكن هناك أي دلالة قد يُستنتَج منها انتسابهم بأي شكلٍ من الأشكال إلى المنظمات الدينية العاملة في المجال الطبي. ومن الحقائق التي لا تقبل الجدل أنَّهم كانوا يتمتعون بالمؤهلات اللازمة لممارسة الطب، وأنَّ أحدهم، وهو ليون جونزاليس، كان صيدلانيًّا بارعًا أيضًا.

لم يكن أحد يتذكَّر أنه رآهم يذهبون إلى الكنيسة، أو يحثُّون على الذهاب إلى أيٍّ من أماكن العبادة، بل إنَّ الهيئات الدينية في الحي، كانت هي نفسها مَشدوهة. وكانوا، واحدًا تلو الآخر، قد أبدوا تحفظًا عند سؤالهم عن طائفتهم. وقد سألهم البعض مباشرةً عن ماهية المنظمة الدينية التي ينتسبون إليها، لكنَّ السائلين لم يتلقوا إجابةً مُقنعة قَط.

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة تقريبًا حين أنهى الطبيبان عملهما. كان آخر مريضٍ قد غادر، وكان آخر تأوُّه مُنزعِج صادر من طفلٍ سقيم قد تلاشى، كان الباب مُقفلًا وكان عمال التنظيف منهمكين في تنظيف غرفة الانتظار الكبيرة وترتيبها.

جلس الرجلان في غرفة المكتب، مُنهكَين لكنَّهما كانا مبتهجين. كانت الغرفة جيدة الأثاث، وقد كانت هي الغرفة العامة المشتركة للثلاثة. كانت جذوةٌ من نيران مشتعلة تتوهج في المدفأة، وكانت الغرفة تحوي كراسي ذات أذرعٍ وأرائك كبيرة فسيحة. كانت الأرضية مُغطَّاة بسجاد سميك، وكانت توجد لوحتان نادِرتان أو ثلاث مُعلقة على الجدران المطلية بالطلاء الجيري.

كانا جالسين يُناقشان أحداث أمسيتهما؛ إذ كانا يقارنان بين المذكرات التي كتباها للمرضى، ويتبادلان التفاصيل المهمَّة المُتعلِّقة بالحالات التي حظيت بعنايتهما. كان مانفريد قد خرج في وقتٍ مبكر من المساء ولم يعُد. وبينما كانا جالسين، رنَّ أحد الأجراس بصوتٍ حاد. نَظر ليون إلى الأعلى نحو مؤشِّر الأجراس، ثم قال بالإسبانية: «هذا جرس باب المستوصَف. أظن الأفضل أن نرى هوية ذاك القارع.»

قال بويكارت: «سيكون فتاة صغيرة تقول: «أرجو أن تأتي إلى أبي، فهو إمَّا ميت أو ثمل».» ضحكا ضحكةً طفيفة على ذكرى هذه الحادثة التي وقعت بالفعل.

فتح بويكارت الباب، فوجد رجلًا يقف في المدخل. قال الرجل: «وقع حادث سيئ على مقربةٍ كبيرة من هنا. هل أستطيع إحضاره إلى هنا أيها الطبيب؟»

فقال بويكارت: «حادثٌ من أيٍّ نوع؟»

«طُعِن رجل بسكين.»

فقال بويكارت: «أحضره.» وذهب بسرعة إلى الغرفة المشتركة، قال: «إنها حالة طعن. هل ستُدخله عيادتك يا ليون؟»

فقام الشاب بسرعة، وقال: «نعم. سأُجهِّز السرير.»

وفي غضون بضع دقائق، دخل ستة رجال يحملون ضحيةً فاقد الوعي. كان وجه الضحية مألوفًا للاثنين. وضعاه برفقٍ على سرير الجراحة، ومزَّقا الملابس من فوق الجرح بأيادٍ بارعة، بينما كان الشرطي، الذي كان قد رافق الرجال الذين أتوا به إلى المستوصَف، يُبعد الحشد المتكدِّس عن باب العيادة.

أصبح الرجلان وحدهما مع الرجلِ الفاقد الوعي. تبادلا النظرات.

قال أحدهما بحذر: «ما لم أكن مُخطئًا فهذه جثة السيد ويلي جيكوبس.»

كانت ماي ساندفورد في ذلك المساء جالسة وحدها في غرفتها تقرأ. وحين دخل والدها الغرفة ليُودِّعَها قبل ذهابه إلى إحدى ولائم عشاء مديري المصانع والشركات، تركها وهي تقرأ كتابًا تثقيفيًّا، حسب ما بدا، لكنَّ الكتاب قد صار الآن مُلقًى بجانبها دون أن تلقي له بالًا.

كانت قد تلقَّت في عصر ذلك اليوم رسالة موجزة مُلِحَّة من بلاك، يطلب فيها لقاءها «بشأن مسألة بالغة الأهمية». وقال إنَّ تلك المسألة متعلِّقة بوالدها، وسرِّية للغاية. وقد كانت الفتاة تشعر بالانزعاج وبقدر غير هين من الحيرة؛ فإلحاحُ الرسالة وتكتُّمها قد أصاباها بقلقٍ لا تفسير له. وللمرة العشرين، بدأت تقرأ مسرحيات «مسيو موليير» التثقيفية، حين جعلتها قَرعةٌ على الباب تُخفي الرسالة بسرعة.

أذنت ماي للطارق بالدخول؛ فدخلت خادمة شابة، وقالت: «ثمة رجلٌ يرغب في لقائك.»

«أيُّ نوعٍ من الرجال؟»

قالت الخادمة: «رجلٌ عادي المظهر.»

تردَّدت ماي، لكنَّها اطمأنت بوجود كبير الخَدم في المنزل، وإلَّا لما قابلت هذا الزائر.

قالت: «أدخليه غرفة مكتب أبي. وأخبري توماس بأنَّ ذاك الرجل موجود هنا، واطلبي منه أن يكون مستعدًّا تحسبًا لأي لحظةٍ قد أستدعيه فيها بالجرس.

لم يَسبقْ لها أن رأت ذاك الرجل الذي وجدته في انتظارها. اعتراها ارتيابٌ غريزيٌّ تجاه وجهه، غير أنَّ ثمة شيئًا بشأنه قد انتزع شفقتها. كان شاحبًا مُنهكًا تُحيط بعينيه هالتان سوداوان، وكانت يداه، اللتان لم تكونا نظيفتَين إطلاقًا، ترتعشان.

قال: «آسفٌ على إزعاجكِ يا آنسة، لكنَّ الأمر مهم.»

قالت: «إنَّ الوقت متأخِّر بعض الشيء. ماذا تريد؟»

تحسَّس قبعته بلمساتٍ مرتبكة ونظر إلى الخادمة التي كانت تنتظر؛ فغادرت الغرفة بإيماءةٍ من ماي.

قال الرجل مجددًا: «الأمر مهمٌّ لكِ يا آنسة. لقد عامَلَني بلاك أسوأ معاملة.»

وحينها خَطَر ببالها شكٌّ وضيع للحظة. فهل أرسل فرانك رجله لزعزعة ثقتها ببلاك؟ خالجها شعورٌ بالاستياء من زائرها والرجل الذي ظنَّت أنَّه مَن كلفه بالذهاب إليها.

قالت ببرود: «يُمكن أن تُوفِّر كلامك لنفسك، وتستطيعُ أن تعود إلى الرجل الذي أرسلك وتُخبره ...»

فقال بلهفة: «لم يُرسلني أحدٌ يا آنسة. لقد جئت من تلقاء نفسي. أقولُ لكِ إنَّهم آذوني. لقد كتمت أسرار بلاك من أجل مصلحته طوال سنوات، وها هو يَنبذني الآن.» ثم أضاف وهو يمُدُّ ذراعَيه يائسًا: «إنني مريض يا آنسة، تستطيعين رؤية ذلك بنفسك. أكاد أتضور جوعًا ولم يُعطوني حبَّة فولٍ حتى. ذهبت إلى منزل بلاك اليوم ورفض مقابلتي.» كان يكاد يئن في نبرته الغاضبة اليائسة. قال بعُنفٍ بالغ: «لقد آذاني وسأردُّ له الأذى. هل تعرفين حيلته السرية؟»

قالت مجددًا وارتيابها القديم يُعمي عينيها: «لا أريدُ أن أعرف. لن تستفيد شيئًا من انتقاد الكولونيل بلاك.»

قال متوسلًا: «لا تكوني مغفَّلة يا آنسة، لا تظنِّي أنني أتيتُ من أجل المال. لا أنتظر مالًا، ولا أريده. أظنُّ أنني أستطيع نَيل مساعدةٍ من السيد فيلو.»

فقالت: «آه! إذن، فأنت تعرف السيد فيلو؛ أي إنه هو الذي أرسلك. لن أسمع أي كلمةٍ أخرى. أعرفُ الآن من أين أتيت؛ لقد سمعت كلَّ هذا من قبل.»

سارت عبر الغرفة بخُطًى عازمة وقَرَعت الجرس؛ فدَخَل كبير الخدم. قالت ماي: «أخرِج هذا الرجل.»

نَظَر الرجل إليها بأسًى.

وقال بنبرةٍ تُنذر بالسوء: «لقد سنحت لكِ فرصتكِ يا آنسة. بلاك هو إيسلي، هذا كلُّ شيء!»

وبعد هذه العبارة الوداعية المؤثِّرة، مشى مُتثاقلًا عبر الصالة ونَزَل الدرجات الخارجية، ليختفيَ بعد ذلك في ظلام الليل.

حين صارت الفتاة بمفردها، قعدت مُنكمشةً في كرسيها. كانت ترتجف من رأسها إلى أخمص قدمها من شدة السخط والحيرة. لا بُد أنَّ فرانك هو من أرسل ذاك الرجل. يا له من وضيع! يا له من وضيع إلى حدٍّ لا يوصَف!

تساءلت: «كيف يجرؤ؟ كيف يجرؤ؟»

جال بخاطرها أنَّ شخصية الشُّرطي في فرانك هي التي جعلته فظيعًا للغاية؛ إذ كان دائمًا ما يعتقد أشياء بشعة عن الجميع. غير أنَّ هذا طبيعي جدًّا؛ إذ عاش حياته وسط المجرمين؛ ولهذا لم يكن يشغل باله سوى انتهاكات القانون. نَظَرت إلى الساعة، كانت العاشرة إلَّا ربع. لقد ضيَّع مساءها هذا الزائر. لم تكن تعرف ماذا ستفعل بالضبط. لم تستطع القراءة، وكان الوقت ما يزال مبكرًا جدًّا على الخلود إلى النوم. كانت تتمنَّى أن تخرج في نزهة قصيرة، غير أنه لم يكن يوجد مَن يصطحبها. وكانت فكرة سخيفة أن تطلب من كبير الخدم أن يَمشيَ وراءها، حتى إنها قد ابتسمت حين راودتها تلك الفكرة.

ارتجفت فجأة إذ سمعت جرس الباب الأمامي البعيد؛ فمَن علَّه أن يكون هذا القارع؟

لم يَطُل انتظارها إلى أن عرفت مَن يكون. فبعد ذلك بدقائق قليلة، أعلنت الخادمة قدوم الكولونيل بلاك. كان يرتدي ثياب السهرة وكان في غاية الابتهاج.

قال بنبرةٍ دافئة رقيقة تؤكد صدقه: «سامحيني على هذه الزيارة. كنتُ مارًّا بالقرب من هنا مصادفة، وارتأيتُ أن آتي في زيارة قصيرة.»

غير أنَّ ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا؛ إذ كان بلاك قد خطَّط لهذه الزيارة بعناية. كان يعلم أن والدها خارج المنزل، وكان يعلمُ أيضًا، بعدما خاض نقاشًا حادًّا للغاية معه عصر ذلك اليوم، أنَّه لم يكن ليسمح بهذه الزيارة. قدمت له ماي يدها، فقَبَض عليها بحرارة.

تطرَّقت إلى صميم الموضوع مباشرة، وقالت: «أنا سعيدة للغاية بقدومك. كنت مُنزعِجة للغاية.» فأومأ برأسه متعاطفًا، وإن كان متحيرًا بعض الشيء. أضافت: «حسنًا، لقد جاء ذلك الرجل.»

سألها بحدة: «ذلك الرجل؟ أيُّ رجل؟»

«نسيتُ اسمه، لقد جاء هذا المساء، بل إنه رحل منذ بضع لحظات فقط. وقد بدا سقيمًا جدًّا. أظنك تعرفه، أليس كذلك؟»

قال بانفعال: «لا تقولي إنَّه جيكوبس؟»

أومأت قائلة: «أظنُّ أنَّ هذا هو اسمه.»

كرَّر سؤاله وقد صار وجهه شاحبًا قليلًا: «جيكوبس؟» ثم سألها بسرعة: «ماذا قال؟»

أخبرته بما استطاعت تذكُّره من المحادثة. وحين انتهت، قام. سألته في دهشة: «هل ستُغادر حقًّا؟»

قال: «يؤسفني القول إنني مضطرٌّ إلى المغادرة. لديَّ موعد مهم و... لقد أتيتُ إلى هنا إذ كنت مارًّا بالصدفة فحسب. في أيِّ طريق ذهب هذا الرجل؟ هل أعطاكِ أي فكرةٍ عن وجهته؟»

هزَّت رأسها، وقالت: «لا. كل ما قاله إنَّ بعض الأشخاص سيسعدون بالمعلومات التي يستطيع الإدلاء بها عنك.»

قال بلاك وهو يُحاول الابتسام بصعوبةٍ بالغة: «أقال هذا حقًّا؟ لم أكن أظنُّ قَط أنَّ جيكوبس من ذلك الصنف من الرجال. ليس لديَّ ما أُخفيه بالطبع، لكن ثمة أسرار تتعلَّق بالعمل كما تعلمين. يا آنسة ساندفورد. لقد كان موظفًا عندي وطردته بعدما سرق بعض العقود. لا داعيَ إلى أن تقلقي حيال ذلك الأمر.»

ابتسم لها بثقةٍ وهو يُغادر الغرفة.

قاد سيارته مباشرةً من المنزل إلى مكتبه. كان المكتب حالك الظلام، لكنَّه كان يعرف طريقه داخل المكتب دون الحاجة إلى إضاءة الأنوار. صعد الدَّرَج راكضًا إلى غرفة الاجتماعات.

كان ثمة بابٌ صغير في أحد أركان الغرفة، وتخفيه عن الأنظار ستارة مُعلقة.

أغلق مصاريع النوافذ وأنزل ستائرها قبل أن يُضيء النور، ثم أزاح الستارة وتفحَّص وجه الباب. لم تكُن توجد علامة على أنَّه قد فُتِح عنوة. لقد كان جيكوبس على درايةٍ بوجود هذا الملاذ السرِّي الصغير، وكان، في إحدى لحظات طيشه، قد ذَكَره في إحدى الرسائل التي كان يطلب فيها المال من بلاك.

أخرج بلاك من جيبه مجموعة من المفاتيح معلَّقة في سلسلةٍ فضية. فتح باب الغرفة بسهولة؛ فكشف عن غرفةٍ أصغر ذات مساحةٍ لا تتجاوَز مساحة خزانةٍ كبيرة. تدلى من السقف مصباح كهربائي واحد وكان يكفي لتوفير القدر اللازم من الإضاءة. كانت الغرفة تحوي منضدة للتزيين وكرسيًّا ومرآة كبيرة وعددًا من المشاجب التي كانت تحمل العشرات من قطع الملابس. وكان الهواء يدخل الغرفة بمروحتين مُثبَّتتين في الجدار ومتصلتين بماسورة التهوية الرئيسية للمبنى.

فتح باب منضدة التزيين وأخرج عددًا من قِطَع الشعر المستعار. كانت بجودة تلك القِطع التي لا يُمكن أن يوفرها سوى مصنع «فيسو» الشهير. كانت قد صُمِمت تصميمًا مثاليًّا، وكان الشعرُ فيها كلها بدرجةِ لونٍ واحدة، وإن كان تصفيفه مختلفًا.

ألقى بها على المنضدة بفارغ الصبر، وتلمَّس بيديه باحثًا عن شيءٍ كان يعرف أنه من المفترض أن يكون هناك، وسيكون هناك إلا أن يأخذه لصٌّ يتمتع بالمهارة في استخدام المفاتيح الهيكلية، ويعرف المكتب بعض الشيء. أوقف البحث فجأة وتفحَّص حزمة من الورق كانت موضوعة على المنضدة. كانت حزمةً قد أبقاها جاهزةً في المتناول لتدوين ملاحظات سريعة عن الاتفاقات التي تُبرَم بصورة رسمية بعد. كان وجه الورقة الأبيض يحمل علامة إبهامٍ بُنية كبيرة، ومع أنَّ الكولونيل بلاك لم يكن يعرف إلا القليل عن علم الأنثروبولوجيا، فقد كان على درايةٍ كافية بتلك العلامة ليعلم أنَّها بصمة إبهام لم يكن من المفترض أبدًا أن تكون في مكتبه السري هذا.

إذن، فقَد كان ويلي! ويلي جيكوبس الوضيع، الذي كان يتودَّد إليه وخصَّص له معاشًا، هو الذي أخذ قنينة زجاجية خضراء معينة كان بلاك يحمل نسخةً طبق الأصل منها في جيبه في تلك اللحظة.

لم يفقد بلاك أعصابه. اتجه إلى دُرجٍ في مكتبه الخارجي وأخرَج منه مسدسًا من طراز براوننج. كان المسدس مُذخرًا. حمله وشعر بتوازنه على راحة يده اليُمنى، ونظر إليه متأمِّلًا، ثم أعاده إلى الدرج. كان يكره الأسلحة النارية؛ إذ كانت تُحدِث قدرًا كبيرًا من الضوضاء بلا داعٍ، وتترك وراءها دليلًا قاطعًا على هوية مُستخدمها؛ فالرصاص دليل يقود إلى صاحبه عند تعقبه.

ثمَّة وسائل أخرى. استلَّ من الدرج سكينًا رفيعًا طويلًا. كان خنجرًا إيطاليًّا من القرن السادس عشر أشبه بسكينٍ غير حقيقي كالذي قد يستخدمه أيُّ رجل في أيامه العادية لفتح الرسائل. وقد كان هذا هو السبب الظاهري الذي كان بلاك يَتذرَّع به لإبقاء ذلك السلاح في متناول يده.

سحبه من غمده الجلدي المُزخرَف واختبر صلابته، لمس حافته المسنونة وضغط بإصبعه على رأسه المُدبب بحذرٍ شديد، ثم وضع الخنجر في غمده ودَسَّه في جيب معطفه، وأطفأ الأنوار وخرج. لم تكن هذه المسألة تتطلب استخدام القنينة الزجاجية الصغيرة؛ إذ لم يكن مُتبقيًا من مادتها الثمينة سوى أقل القليل، وكان يحتاج إليها من أجل أغراضٍ أخرى.

كان أمامه مكانان أو ثلاثة يُمكن أن يعثر فيها على هذا الرجل؛ أحدها كان حانةً تقع قبالة شارع «ريجنت ستريت». استقلَّ سيارة أجرة إلى هناك، وأوقفها على بُعد خطواتٍ قليلة من المكان. دخل الحانة، حيث كان يُمكِن العثور على رجالٍ من أمثال جيكوبس، لكنه لم يجد فيها بغيته. فلم يكن الرجل الذي كان يبحث عنه هناك.

تفقَّد أماكن محتملة أخرى دون أن يفوز بنتيجةٍ أفضل. إذن، فويلي سيكون في مسكنه. ذهب بلاك إلى بعض المساكن الموجودة على الضفة الجنوبية من نهر التايمز.

وبينما كان عائدًا من حانة صغيرة قبالة شارع «نيوكِنت رود»، عثر على رجله. كان ويلي قد قضى المساء يُفكر في مَظلمته، وكان في طريقه إلى مسكنه للاستعداد لمغامرته الكبرى حين صَفَعه بلاك على كتفه من الخلف.

قال: «مرحبًا يا ويلي.»

فاستدار الرجل وقد جفل، وقال على عَجَلٍ وهو يتعثر مرتطمًا بالحائط: «أبعد يديك عنِّي.»

قال بلاك: «أصغِ إليَّ، لا تكن سخيفًا، ودعنا نناقش هذه المسألة بعقلانية؛ فأنت رجلٌ عقلاني، ألست كذلك؟ لديَّ سيارة أجرة تنتظر على مقربةٍ من هنا.»

قال جيكوبس: «لن تُقِلَّني في أيٍّ من سيارات الأجرة. لقد مللتُ منك يا بلاك. لقد انقلبتَ عليَّ. لقد طردتني كالكلب. هل هذه المعاملة تليقُ بصديق؟»

قال بلاك ببعض اللين: «إنك قد ارتكبت خطأً يا صديقي. وكلنا عُرضة لارتكاب الأخطاء. أنا نفسي قد ارتكبتُ العديد من الأخطاء، وأرى أنك ارتكبت بضعةً منها. والآن، لنتحدَّث عن العمل.»

لم يَقُل ويلي شيئًا؛ إذ كان الشك لا يزال يُساوره. وحالَما خَال أنه رأى يد الآخر تتسلَّل خلسةً إلى جيب صدره، خمَّن الدافع وراء ذلك التصرف. لقد كان هذا هو مكان القنينة الزجاجية إذن.

كان بلاك بارعًا في فن التملُّق؛ إذ كان يعرف مواطن ضعف كل مَن كانوا على صلةٍ به. فرويدًا رويدًا، ظل يقود الآخر من شارعٍ إلى آخر بلا هدفٍ محدَّد ظاهر، حتى وصلا إلى طريقٍ مسدود صغير. كانت حظائر الخيل تشغل أحد جانبي الطريق الصغير، وكانت بيوت الحرفيين تشغل الجانب الآخر. وكان أحد أعمدة الإنارة في منتصف الطريق يبثُّ ضوءًا خافتًا.

تردَّد ويلي. وقال: «لا يوجد طريق هنا.»

قال بلاك بثقة: «كلا، بل يوجد طريق؛ فأنا أعرفُ هذا الحي جيدًا. والآن، يوجد شيءٌ واحد أريد أن أسألك عنه يا ويلي. أنا متيقِّنٌ من أنك تشعر بودٍّ أكبر تجاهي الآن، أليس كذلك؟»

استقرَّت يده بشيءٍ من الحنان على كتف الآخر.

أصر الآخر على كلامه قائلًا: «إنك لم تتصرَّفْ بنزاهة.»

قال بلاك: «عفا الرب عمَّا سَلف. ما أريد معرفته يا ويلي هو: لماذا أخذت القنينة؟» طَرَح السؤال بنبرةٍ واقعية. لم يرفع صوته. ولم يُشدِّد نُطق نهاية السؤال بنبرةٍ غير عادية.

بوغِت الرجل الآخر بالسؤال. قال: «حسنًا، لقد شعرتُ بغصَّةٍ من الألم.»

قال بلاك بتوبيخٍ لطيف: «وهل تَنتظِر تسليم هذه القنينة إلى صديقنا فيلو؟»

قال ويلي: «لم أُسلِّمها إلى أيِّ شخصٍ حتى الآن، لكنَّ الحقيقة ...»

لم يزد على ذلك كلمة؛ إذ التفَّت يد الرجل الضخم حول حلقه فجأة بقبضةٍ صلبة كالفولاذ. ناضل ويلي لإفلات نفسه، لكنَّه كان كطفلٍ في قبضة الآخر.

قال بلاك بحدة: «أنت كلب.»

ظل يهز الرجل العاجز بين قبضته بعُنف، ثم استلَّ القنينة، التي كانت دليلًا فاضحًا عليه، بيده الطليقة من جيب الآخر، ودفعه ليَرتطم بالحائط. «وسأُعلِّمك أنَّ هذا عقابٌ هيِّنٌ جدًّا مقارنةً بما ستناله مني إذا وجدتك في طريقي مجددًا.»

ارتطم جيكوبس بالحائط وهو شاحبٌ وفي حالٍ يُرثَى لها. قال: «لديك الزجاجة يا بلاك، لكنِّي أعرفُ كلَّ ما فعلته بها.»

«أتعرفُ حقًّا؟»

قال الآخر بيأس: «نعم، كل شيء. لن تتخلَّص مني كالنفاية، أتسمعني؟ يجب أن تمنحني معاش تقاعُد، مثلما منحتَ أناسًا آخرين. إنني أعرفُ ما يكفي لسجنك مدة طويلة دون ...»

قال بلاك: «كنتُ أظنُّ أنك تعرف بالفعل.»

تلألأ شيءٌ ما في ضوء المصباح، وخرَّ جيكوبس مُتكوِّمًا على الأرض دون صرخةٍ واحدة.

نظر بلاك حوله. ومسح نصل الخنجر بعناية بمعطف الرجل المطعون، وأعاد وضع السلاح بعناية في غمده الجلدي، وتفحَّص يديه بعنايةٍ بالغة بحثًا عن أيِّ آثار دماء، لكنَّ هذه الأسلحة الإيطالية لا تُحدِث سوى جروح صغيرة.

استدار، وبعدما ارتدى قفازيه، عاد إلى حيث كانت سيارة الأجرة ما تزال تنتظره.

(١٥) مخاوف السير آيزاك

تحت ضوء مصباحٍ برونزي ساطع، كان كل ما هو فانٍ لدى جيكوبس ممدَّدًا على سرير العمليات. وكانت قامتا الطبيبين، اللذَين لم يكونا يرتديان المعاطف، تتحركان حول جسمه بسرعة.

قال جونزاليس: «لا أظن أننا نستطيع أن نفعل له الكثير. لقد تعرَّض لثقبٍ في أحد الشرايين. ويبدو لي أنه يعاني نزيفًا داخليًّا.»

فحصا الجرح فحصًا سطحيًّا، وكان بويكارت يرى أنَّ حالة الرجل خطيرة للغاية حتى إنه قد بعث برسولٍ إلى أحد القضاة. كان ويلي واعيًا في أثناء الفحص لكنَّه كان ضعيفًا جدًّا ومُنهكًا جدًّا إلى حدٍّ أعجزه عن سرد أي شيءٍ عمَّا حدث.

قال جونزاليس: «الفرصة الوحيدة أمامنا هي أن يَحضُر قاضي الصُّلح في الموعد المناسب ونمنح المصاب قدرًا كافيًا من الاستركنين لنُمكِّنَه من إخبارنا بهُوية مَن فعل به ذلك.»

أكمل جونزاليس: «أعتقد أنها جريمة قتل، لقد أُحدِثَ الجرح بأداةٍ حادة جدًّا. انظر، إنَّ مساحة الجرح لا تزيد عن نصف بوصة. أظنُّ أنَّ الفاعل استخدم خنجرًا، وقد استخدمه ببراعة. إنها لمعجزةٌ أنه لم يُقتَل فورًا.»

حَضَر قاضي الصُّلح الذي استُدعي للحضور على عجل في وقتٍ أبكر بكثير ممَّا كانا يتوقعان، وشرح له جونزاليس حالة الرجل.

قال: «لقد حاول أن يُخبرني، بعدما وضعناه على السرير، بهوية الفاعل، لكنِّي لم أستطع سماع الاسم.»

سأله القاضي: «هل تعرفه؟»

فقال: «أعرفه، ولديَّ ظنون بشأن هوية من فعل ذلك، لكني لا أستطيع تبرير شكوكي.»

كان جيكوبس فاقد الوعي، واغتنمَ جونزاليس أول فرصةٍ أتيحت له للتشاور مع زميله.

قال على عجل: «أظنُّ أنَّ هذا من صُنعِ بلاك. لماذا لا نستدعيه؟ فنحن نعرف أنَّ جيكوبس كان يعمل لديه وكان يتقاضى معاشه منه، وهذا مُبررٌ كافٍ. وربما نستطيع أن نعرف شيئًا إذا استطعنا إحضاره قبل أن يموت هذا الرجل المسكين.»

قال الآخر: «سأُجري مكالمةً هاتفية.»

أخرج من جيبه دفتر مُذكرات وراجَع صفحاته. كانت تحركات بلاك والأماكن التي يتردَّد عليها مُدرجةً بترتيب مُحكَم في ذلك الدفتر، لكنَّ الهاتف لم يوصلهما بالرجل الذي كانا يريدانه.

وفي الساعة الثانية إلَّا ربع صباحًا، فارق جيكوبس الحياة دون أن يَستعيد وعيه، وبدا أنَّ لغزًا آخر قد أضيف إلى قائمةٍ كانت طويلة بالفعل إلى حدٍّ مُرعِب.

وَصَل الخبر إلى ماي ساندفورد في عصر ذلك اليوم. كانت المأساة قد وقعت في وقتٍ متأخر جدًّا من تلك الليلة فلم تَستطِع أن تحجز لتفاصيلها مكانًا في الصحف الصباحية، لكنَّ الفتاة قرأت تفاصيلها من أولى طبعات المجلات المسائية، وقد صدمها ذلك المصير الرهيب الذي لاقاه الرجل.

وهي لم تَعلم بالحادث من ذلك المصدر إلا مصادفة؛ إذ كانت ما تزال تقرأ خبر وفاته في الجريدة حين زارها بلاك، مُتظاهرًا بالاهتياج، وقال لها: «أليس هذا مُروِّعًا يا آنسة ساندفورد؟»

ظنت الفتاة أن قلبه كان مفطورًا من الحزن. قال بصراحة: «سأُدلي بالشهادة بالطبع، لكني سأحرص بشدة على عدم ذكر اسمِكِ فيها. أظن أنَّ الرجل المسكين كان له شركاء سيئون جدًّا بالفعل. لقد اضطررتُ إلى تسريحه بسبب ذلك. لا داعيَ إلى أن يعرف أحد أنه جاء هنا إطلاقًا؛ فلن يكون من الجيد أن تُقحَمي في قضية قذرةٍ كهذه.»

فقالت: «آه، كلا كلا. لا أريد أن أقحَم فيها إطلاقًا. وأنا آسفةٌ للغاية، لكنِّي لا أرى أيَّ مساعدة قد تقدمها شهادتي.»

اتفق معها بلاك قائلًا: «بالطبع.» لم يخطر بباله إلا في صباح ذلك اليوم مدى الأذى الذي قد يلحق به من الشهادة التي يُمكن أن تُدلي بها هذه الفتاة، وكان قد جاء إليها

مذعورًا خشية أن تكون قد عَرَضت الإدلاء بها طواعيةً بالفعل. رأت أنه بدا مريضًا وقلقًا، وقد كان كذلك بالفعل؛ إذ إنه لم ينم في الليلة السابقة إلا قليلًا. كان يعلم أنَّه في مأمن من أن يكتشف أحدٌ أنه الفاعل؛ إذ لم يكن أحدٌ قد رآه يقابل الرجل، وصحيحٌ أنَّه زار الأماكن التي يرتادها الرجل، لكنَّه لم يستفسر عنه.

ومع ذلك، كان بلاك مهووسًا بمعرفته أنَّ أناسًا يُضيِّقون الخناق عليه. لم يستطع تخمين هوية مطارديه. راوَدَه في لحظاتٍ غريبة شعورٌ غريب بالذُّعر؛ إذ لم يكن أي من شئونه يسير على ما يرام. وحتى السير آيزاك كان قد أبدى أمارات تمرُّد عليه.

وقبل أن يَنقضيَ اليوم، اكتشف أنَّ لديه ما يكفي من الأمور المزعجة من دون المخاوف التي يحملها له المجهول. ذلك أنَّ الشرطة قد أجرت تحقيقاتٍ مكثَّفة عن مكان وجوده في الليلة التي وقع فيها القتل، حتى إنَّهم جاءوا إليه واستجوبوه بإصرارٍ شديد حتى بدأ يشُك في وجود قوةٍ تُوجِّهُهم. لم يُغالِ في الاهتمام برجال العدالة الأربعة؛ إذ كان يُصدِّق كلام مُخبره الذي قال له إنَّ «الأربعة» مفترقون في الوقت الراهن، وأكَّدت له حقيقة سفر ولكنسون ديسبارد إلى أمريكا صحَّة كل ما أخبره به الرجل.

كان يُعاني شُحًّا في الأموال مرة أخرى؛ فتسديدُ ديون مراهناته قد تركه دون أموالٍ كافية؛ ولهذا كان لا بُدَّ من «إقناع» ساندفورد. وكانت ضرورة ذلك تزداد يومًا تلو الآخر. وفي صباح أحد الأيام، اتصل به السير آيزاك بالهاتف وطلب منه أن يلقاه في الحديقة العامة.

فسأله بلاك: «لِمَ لا تأتي إلى هنا؟»

قال صوت البارونيت: «كلا، أحبِّذ لقاءك في الحديقة.»

حدَّد له الموقع بالضبط، وفي الموعد المُحدَّد، قابله بلاك الذي انزعج قليلًا من اضطرارِه إلى قطع برنامج يومه بسبب هذا التصرُّف الغريب من السير آيزاك ترامبر. أمَّا البارونيت نفسه، فلم يتطرَّق إلى صميم الموضوع فورًا؛ فقد ظل يُلمِّح ويُهمهِم ويُتهته إلى أن نطق فجأة بالحقيقة أخيرًا. قال: «أصغِ إليَّ يا بلاك، لقد كُنَّا صديقين رائعين، وخضنا بعض المغامرات الغريبة معًا، لكنِّي الآن سوف ... أريد ...» ثم راح يتلعثَم ويتنحنَح.

سأله بلاك بوجهٍ عابس: «ماذا تريد؟»

قال السير في محاولة يائسة لأن يكون حازمًا: «حسنًا، في الحقيقة، أرى أن الوقت قد حان لنفضِّ الشراكة القائمة بيننا.»

سأله بلاك: «ماذا تعني؟»

قال الآخر متلجلجًا: «حسنًا، أنت تعرف أنَّ البعض يتحدثون عنِّي. الناس ينشرون أكاذيب عنِّي. ومؤخرًا، سألني رجلٌ أو اثنان عن طبيعة العمل الذي أُشاركك فيه، و... هذا يُقلقني.» ثم قال بحنق مفاجئ من رجلٍ ضعيف: «يا بلاك، أعتقد أنني قد فقدتُ فرصة تَقرُّبي إلى فيرلوند بسبب علاقتي بك.»

قال بلاك: «أفهمُ.» كانت تلك الكلمة مفضَّلة لديه. وكانت تعني الكثير، بل إنها كانت تعني في تلك اللحظة أكثر ممَّا تعنيه عادةً. قال: «أفهمُ أنك تظن أن السفينة تَغرق، وتتصوَّر، كالفئران، أنَّ الوقت قد حان للقفز منها والسباحة إلى البر.»

اعترض الآخر قائلًا: «لا تكن سخيفًا يا صديقي القديم العزيز، ولا تكن غير عقلاني. إنك تفهم الموقف. حين انضممتُ إليك، كنتَ ستُحقِّق إنجازاتٍ كبيرة؛ عمليات دمجٍ كبيرة واتحادات كبيرة من الشركات الاحتكارية، وبيع سنداتٍ مالية غير مرغوبٍ فيها، وكلُّ ما إلى ذلك.» واعترف معتذرًا: «بالطبع كنتُ أعرف كل شيء عن محل المضاربة غير القانوني، لكنَّه كان مجرد نشاطٍ جانبي إضافي.»

ابتسم بلاك ابتسامةً متجهمة. وقال بواقعية ممزوجة بحسٍّ ساخر: «نشاطٌ إضافي مُربح جدًّا لك.»

قال آيكي الذي كان صبورًا إلى حدٍّ مُستفِز: «أعرف أعرف، لكنَّ الأمر لم يكن يتعلَّق بملايين وغير ذلك، أليس هذا صحيحًا؟»

كان بلاك مستغرقًا في تفكير عميق، وكان يقضم أظافره ويُحدِّق إلى العشب عند قدميه.

أضاف آيكي: «الناس يتحدثون يا صديقي القديم العزيز، يقولون أفظع الأشياء البغيضة. أنت تَعِدُ منذ فترة بهذا الدمج المنتظر مع مسابك ساندفورد، وقد أصدرت أسهُمًا في «مسابك أوروبا المُدمَجة» دون أن يكون لديك ما تبيعُه.»

قال بلاك: «لن يُشاركني ساندفورد، إلَّا إذا دفعت له ربع مليون نقدًا، سيأخذ الباقي أسهُمًا. وأنا أريده أن يأخذ الثمن كله أسهُمًا.»

قال البارونيت بفظاظة: «إنَّه ليس مغفلًا. ساندفورد العجوز ليس مغفلًا، وأراهنُ على أنَّ فيرلوند يدعمه، وهو ليس بمغفل أيضًا.» خيَّم صمتٌ طويل مُحرِج؛ مُحرِج للسير آيزاك الذي كان يشعر برغبةٍ لا تفسير لها في الفرار مسرعًا.

قال بلاك وهو يُواجه عينيه بابتسامةٍ باردة: «إذن، فأنت تريد التسلُّل من الشراكة، أليس كذلك؟»

قال السير آيزاك على عجل: «أصغِ إليَّ يا صديقي العزيز، لا تتبنَّ هذا الرأي القاسي.» ثم قال محاولًا الممازحة: «إنَّ الشراكات تنفضُّ على الدوام؛ فذلك جزء من صميم طبيعتها. ويجب أن أعترفَ بأنني لا أحب بعض مخططاتك.»

فانقلب عليه بلاك بغضبٍ وحشي قائلًا: «لا تحب! هل تحب المال الذي حصلت عليه مقابلها؟ المال الذي كان يُدفَع مقدمًا لإقناع الزبائن الجدد؟ المال الذي مُنحتَ إيَّاه لتسديد ديون رهاناتك في نادي سباقات الخيول؟ عليك أن تستمر في الشراكة يا آيكي، وإلَّا فسأقول الحقيقة كاملةً لفيرلوند وكل صديق لديك.»

قال السير آيزاك بهدوء: «لن يُصدِّقوك؛ فسُمعتُك شنيعة للغاية مثلما تعرف يا عزيزي، وأسوأ ما في السُّمعة السيئة أن لا أحد يصدقك. إذا خُيِّر الوسط الراقي بين تصديقي وتصديقك، فمن سيُصدِّق في رأيك؛ رجلٌ يتمتَّع بالوجاهة ويَنتسِب إلى قائمة بارونيتات بريطانيا العظمى، أم رجلٌ — حسنًا، لنقُل الصراحة بلا تجميل — مثلك؟»

حدَّق بلاك إليه مُطوَّلًا، ثم قال ببطء: «مهما يكن الرأي الذي ستتبنَّاه، فعليك أن تدافع عنه بكلِّ ما أوتيت من قوة. إذا قُبِضَ عليَّ بسبب أيٍّ من الأعمال التي نتشارك فيها الآن، فسأُخبِر الشرطة بمعلوماتٍ عنك. كلانا في مركبٍ واحد؛ إما أن نَغرق معًا أو نسبح معًا.»

لاحَظ القلق الذي بدأ يعتري وجه السير آيزاك ببطء. قال السير: «أصغِ إليَّ، سأُرتِّب لأردَّ لك المال الذي أخذتُه. سأُعطيك كمبيالات ...»

ضحك بلاك، وقال: «يا لك من شيطان مُسلٍّ. أنت وكمبيالاتك! أستطيع كتابة كمبيالاتٍ بنفسي، أليس كذلك؟ يُمكنُني في الحال أن آخذ كمبيالات كنَّاسٍ عابر ككمبيالاتك تمامًا. يا إلهي، لديك من العملات الورقية في لندن ما يكفي لتغذية نيران أفران ساندفورد طوال أسبوع.» أوحت هذه الكلمات بفكرةٍ ما «دعنا لا نتطرَّق إلى هذه المسألة مجددًا إلى أن يتمَّ الدمج. من المقرر أن يتم الأسبوع المقبل.» ثم قال بنبرةٍ ألطف: «قد يُحسِّن ذلك من وضعنا كثيرًا يا آيكي. ما عليك سوى أن تنسى فكرة الهروب.»

قال الآخر معترضًا: «لا أهرب. كلُّ ما في الأمر أنني ...»

قال بلاك: «أعرف. كل ما في الأمر أنَّك تتَّخذ احتياطات، حسنًا، هذا كل ما يفعله الهاربون. أنت منغمس في ذلك حتى النخاع، فلا تخدع نفسك. لن تستطيع أن تخرج منه، حتى أقول لك: «اخرج».»

فقال السير آيزاك وهو يَقضم أظافره: «سأقعُ في حَرَجٍ إذا فُضِحَت الحيلة. سأقع في مأزق بشع لعين إذا كُشِفَ أنني مُتعاون معك.»

فأجاب بلاك مُنذِرًا إياه بسوء: «بل ستقع في حرجٍ أشد إذا لم تتعاوَن معي في هذه اللحظة المواتية.»

حَشَر ثيودود ساندفورد، وهو رجل لديه الكثير من المشاغل، رأسه الرمادي الأشعث في فتحة باب غرفة جلوس ابنتِه، وقال لها: «يا ماي، لا تنسي أنني سأقيم الليلة مَأدُبة عشاء على شرفك؛ لأنك، إذا لم تَخُني الذاكرة وإذا لم يكن الشيك الذي وجدتِه في صينية فطورك اليوم قد وصل إليكِ بالخطأ، تُتمِّين عامك الثاني والعشرين اليوم.»

أرسلت إليه قبلة في الهواء، وسألته: «من سيأتي؟ كان عليَّ حقًّا أن أدعو الجميع بنفسي.»

فقال والدها مُبتسمًا: «لا وقت لديَّ لإخبارك. أنا آسفٌ على أنَّك تشاجَرتِ مع الشاب فيلو. كنتُ أود أن أدعوه.»

ابتسمت بابتهاج قائلة: «يجب أن أُحضِر شرطيًّا آخر.»

حدَّق إليها مطولًا، وقال بهدوء: «فيلو ليس شرطيًّا عاديًّا. أتعرفين أنني قد رأيته يتعشَّى مع وزير الداخلية منذ بضعة أيام؟»

رفعت حاجبيها، وسألته: «بزيِّه الرسمي؟»

ضحك، ثم قال كاتمًا ضحكته: «كلا أيتها الحمقاء، بل بردائه المنزلي.»

تبعته إلى أسفل الرواق، وقالت بعتاب: «لقد تعلمتَ ذلك من اللورد فيرلوند.» انتظرت حتى حملت السيارة والدها بعيدًا عن ناظرَيها، ثم عادت إلى غرفتها وهي تشعر بسعادةٍ تُبشِّر بسعادة.

كانت الليلة السابقة بائسةً حتى أطاعت الفتاة رغبةً مفاجئة راودتها في إذلال نفسها، ووجدت لذة غريبة في ذلك الإذلال. كان يقينها من أنَّ هذا الشاب لا يزال مثاليًّا لها، ولا يزال يُجسِّد كل ما كانت تُريده فيه، مُستحوذًا على تفكيرها حتى إنها قد غفلت آنذاك عن كل ما سواه. لقد تذكرت، بقشعريرةٍ طفيفة، لقاءهما الأول وافتراقهما، وقد جعلتها هذه الذكرى بائسة للغاية من جديد؛ فوثبَت من على كرسيها وفتحت مكتبها الصغير، وكتبت بخط سريع عشوائي رسالةً موجزة عاجلة تجمع بين الندم والاستبداد، تأمره فيها وتتوسَّل إليه أن يأتي إليها حالَما يتلقى تلك الرسالة.

أتى فرانك على الفور؛ إذ أنبأتها الخادمة بوصوله في غضون عشر دقائق من مغادرة السيد ساندفورد.

نَزلت ماي الدَّرَج راكضةً بخِفة، وانتابتها نوبة خجلٍ مُفاجئة حين وصلت إلى باب المكتبة. كانت ستتوقف، لكنَّ الخادمة، التي كانت تتبعها، كانت تنظر إليها باهتمامٍ مُتعاطِف للغاية، حتى إنَّ ماي قد اضطرَّت إلى التظاهر بفتور هو أبعد ما يكون عما كانت تشعر به، ودخول الغرفة.

كان فرانك واقفًا وظهره إلى الباب، لكنَّه استدار سريعًا حين سمع حفيف ثوبها الخافت. أغلقت ماي الباب، لكنَّها لم تُحاول إطلاقًا الابتعاد عنه. استهلَّت الكلام قائلة: «كيف حالك؟» ومن شدَّة الجهد الذي كانت تبذله لتهدئة نبضات قلبها العنيفة، بدت نبرتها باردة رسمية.

قال لها بنبرةٍ كانت صدًى لنبرتها: «أنا بخير حال. أشكرك.»

واصلت كلامها وهي تُحاوِل أن تبدو طبيعية: «لقد ... لقد أردتُ أن أراك.»

رَدَّ قائلًا: «هذا ما استنتجتُه من رسالتِك.»

قالت بأسلوبٍ رسمي تقليدي: «لفتةٌ طيبة منك أنك أتيت. آملُ ألَّا أكونَ قد تسبَّبت لك في أي إزعاج.»

قال: «لا إطلاقًا.» ومرة أخرى كانت نبرة فرانك أشبه بصدًى لنبرتها يعبر به عن كلماته. «كنتُ على وشك الخروج على أيِّ حال؛ ولهذا جئت فورًا.»

قالت: «آه، أنا آسفة، ألَا تلتزم بموعدك الآخر أولًا؟ فأيُّ وقتٍ سيكون مناسبًا لي. الأمر، الأمر ليس مهمًّا.»

وحينها جاء دورُ الشاب في التلعثُم؛ إذ قال: «حسنًا، لم يكن لديَّ موعدٌ بالضبط. في الحقيقة، كنتُ قادمًا إلى هنا.»

«يا إلهي! فرانك، أكنتَ قادمًا حقًّا؟»

«نعم، حقًّا وصدقًا أيتها الفتاة الصغيرة.» لم ترُدَّ ماي، لكنَّ فرانك رأى في مُحيَّاها ما هو أفصح ممَّا تستطيع أن تعبر عنه الكلمات.

عاد السيد ساندفورد إلى البيت عصر ذلك اليوم ليجد شخصَين سعيدَين قاعدَين في غرفة الجلوس شبه المُظلِمة، بينما كان عشرة أعضاء من قسم التحقيقات الجنائية ينتظرون في سكوتلانديارد وهُم يتفوهون باللعنات أحيانًا ويَعتصرُون أياديهم أحيانًا أخرى.

(١٦) لقاء الكولونيل بلاك بأحد رجال العدالة

صار منزل د. إيسلي في حيِّ «فورست هيل» غير مسكون. كان المصباح الأحمر أمام الباب مُطفأً، ومع أنَّ قطع الأثاث القليلة كانت ما تزال موجودة فيه، فقد اتشح المنزل بأستاره المُسدَلة ودرجات عتبته الخارجية القذرة المكسوة بالسخام، بمظهر الخلاء الخَرِب.

كان ثمَّة شائعة تتهامس بها الأفواه قد أثارت حفيظة أهالي تلك الضاحية المحترمة. كانت شائعة صادمة، إن صحَّت فقد تجعل أهالي «فورست هيل» كلهم يفغرون أفواههم في سَخَطٍ مُبرَّر. كان «الطبيب» إيسلي يمارس الطبَّ بلا تصريح، وكان محتالًا تَنطبق عليه أسوأ الأوصاف؛ إذ كان قد انتحل اسم رجل ميِّت ولقبَه القانوني.

أوضح الكولونيل بلاك، الذي وجده مُراسلٌ صحفي في مكتبه، قائلًا: «كلُّ ما أعرفه أنني التقيت الطبيب إيسلي في أستراليا، وأنني بُهِرتُ ببراعته.» وأضاف في نوبة صراحةٍ مفاجئة: «ربما يُمكنني القول إنَّني مسئول، من منظورٍ ما، عن مكانته في إنجلترا؛ ذلك أنني لم أُقدِّم له المال ليشتري عيادته فحسب، بل أوصيت به جميع أصدقائي أيضًا، وأنا مُستاء بالطبع من ذلك الاكتشاف الصادم.»

كلا، لم يكن لديه فكرةٌ عن مكان «الطبيب» في الوقت الحالي. فآخر مرة قد رآه فيها كانت قبل شهر، حين تحدَّث «الطبيب» عن سفره إلى القارة.

كان الكولونيل بلاك يعرف قدرًا أكبر من المعلومات، لكنه لم يكن لديه شيء ليقوله للمُحقِّقين الذين زاروه من «سكوتلانديارد». كانوا يأتون إليه بإصرارٍ مُزعِج، ولم يَبدُ قَط أنَّهم كَلُّوا من المجيء. كانوا ينتظرونه على عتبة الباب وفي مكتبه. وكانوا يَنتظرونه في دهاليز المسارح وعند مداخل البنوك. كانوا يأتون مرارًا كمبعوثِي الشركات التي كان الكولونيل بلاك مدينًا لها بالمال.

بعد مرور أسبوع على الأحداث التي دُوِّنت في الفصل الأخير، كان الكولونيل بلاك يجلس بمفرده في شقته بقلبٍ خالٍ من الهموم. كان قد جمع مبلغًا طائلًا من المال. أما حقيقة أنه اكتسب هذا المال بغير حق قانوني، فلم تُزعِج انسياب تيار أفكاره السلس. كان يكفيه أنَّه مال، وأنَّ ثمة سيارة يُمكن أن تنقله بسرعة إلى «فولكستون» موجودة تحت إمرته ليلًا ونهارًا رهنَ مُكالمةٍ تليفونية منه. والأهم من ذلك، أنَّه كان حيًّا.

لم يكن الكولونيل بلاك يفهم سبب الانتقام الذي توعَّدت به إحدى المنظمات الطبيب إيسلي؛ فقد يكون له عذره إذ ظن أنَّ قطعة شعرٍ مُستعار رمادي وحاجبَين أشعثين، إضافة إلى بعض الدراية بالطب؛ قَد خَدَعت الرجال الأذكياء المتبصِّرين الذين أتوا إلى إنجلترا لملاحقته.

كان هذا الرجل الجهنمي فيلو، الذي كان يظهر ويختفي وكأنما يفعل ذلك بتعويذة سحرية، يُحيِّره، بل يكاد يُقلقه. لم يكن فيلو أحد رجال العدالة الأربعة، بل كان حدسه هو الذي يُخبِّره بهذا الكمِّ من الأشياء. كان فيلو موظفًا حكوميًّا.

نُقِل الرقيب المدعو جوردن، الذي كان نافعًا جدًّا لبلاك، إلى قِسمٍ شُرطيٍّ بعيد فجأة، ولم يعرف أحدٌ السبب في ذلك. واختفى معه من نطاق خدمته القديم شرطيٌّ شاب كان قد شوهد وهو يتناول العشاء مع وزراء الحكومة البريطانية. كان جليًّا جدًّا أن ثمة سببًا يدعو إلى القلق، لكنَّ الكولونيل بلاك، بتفرُّده الشديد، كان مبتهجًا، وإن كان ابتهاجه يحمل شيئًا من الخبث. انشغل بإتلاف تلك الأوراق التي كان يحتفظ بها لديه، والتي كانت قليلة على أي حال.

أخرج محفظة قديمة وعَبَس حين رأى محتوياتها. كانت تحوي قسيمة عَرَبةِ نومٍ في قطار متجه من باريس إلى مدريد، وكانت مُخصَّصة باسم الطبيب إيسلي؛ زلَّةٌ جنونية ربما كانت ستؤدي إلى عواقب وخيمة، مثلما قال لنفسه. أحرق تلك الورقة التي تدينه بالإجرام، وسحق الرماد ثم رمى به إلى المدفأة.

خيَّم الظلام قبل أن يُنهيَ استعداداته، لكنه لم يُحاول إنارة الغرفة. كانت حُلَّته الرسمية موضوعةً خارج الخزانة في غرفة مجاورة؛ إذ كانت خزاناته مكتظَّة بالثياب. نَظر إلى ساعته. كان من المفترض أن يكون في طريقه إلى بيت آل ساندفورد في غضون نصف ساعة. كانت تلك مخاطرة أخرى لا يخوضها سوى رجل مجنون، هكذا قال لنفسه، لكنَّه كان يفكر في عاقبة زيارته برباطة جأش.

ذهب إلى غرفة نومه وبدأ استعداداته، ثم تذكر أنَّه ترك حزمة من النقود على منضدة الكتابة، فعاد إلى الغرفة. وجد النقود في مكانها، وبينما كان عائدًا، سمع نقرةً وغَمَر الضوء الغرفة.

استدار فجأة متفوهًا بلفظٍ نابٍ، ودَسَّ يده بسرعة في جيب بنطاله الخلفي.

قيل له بهدوء: «لا تتحرَّك من فضلك.»

فقال بلاك فاغرًا فاه: «أنت!»

أومأ الرجل الطويل ذو اللحية الصغيرة المدببة برأسه. قال: «أبعِد يدك عن جيبك أيها الكولونيل، فما من خَطَر وشيك يُهدِّدك.»

كان الرجل أعزل. وكان السيجار الرقيق الذي كان يحمله بين أسنانه البيضاء يُبرهن على هدوئه وسكينته. قال بلاك متلعثمًا: «دي لا مونت!»

فأومأ الرجل الملتحي مرة أخرى، ثم قال: «كان آخر لقاء لنا في قرطبة، لكنَّك تغيرت منذ ذلك الحين.»

تكلَّف بلاك الابتسام.

وقال: «أنت تخلطُ بيني وبين الطبيب إيسلي.»

صدَّق الآخر على كلامه قائلًا: «أخلطُ بينك وبين الطبيب إيسلي، لكنِّي أظن أنَّ هذا الخَلط مُبرَّر.»

لم يُزل سيجاره من بين أسنانه، وبدا مرتاحًا تمامًا، حتى إنه قد ألقى نظرةً على أحد الكراسي، منتظرًا من بلاك أن يدعوه إلى القعود. قال: «سواءٌ أكنت إيسلي أم بلاك، فقد خيَّم الغسق على نهارك بالفعل، وصار ليلُك قريبًا جدًّا.»

سَرَت قشعريرةٌ باردة من الرعب في جسد الكولونيل. حاول أن يتحدث، لكنَّ حلقه وفمه كانا جافين، ولم يستطع إلا أن يتفوه بهمهماتٍ عاجزة عن التعبير. قال بصوتٍ أجش وهو يرفع يديه المرتعشتين إلى فمه: «الليلة، الآن؟» بالرغم من ذلك، فقد كان مسلَّحًا بينما كان الرجل الواقف أمامه أعزل؛ أي إنَّه بحركةٍ سريعة واحدة بيده كان سيُردي ذلك الشبح الذي كان يُرهِب أوروبا فيما سبق قتيلًا. لم يشكَّ في أنه كان يقف وجهًا لوجه أمام أحد «الأربعة» المُرعِبين، ووجد نفسه يحاول جاهدًا أن يحفظ قسمات وجه الرجل الواقف أمامه ليستخدمها في المستقبل. ومع ذلك، لم يلمس المسدس الذي كان يَقبع مستقرًّا في جيب بنطاله الخلفي. كان بلاك منوَّمًا ومشلولًا بثقة الآخر الهادئة. كلُّ ما كان يعرفه أنَّه كان يريد الارتياح، الذي لم يكن من الممكن أن يتحقق إلَّا إذا رحل هذا الرجل الهادئ. شعر بأنه محصورٌ في مأزق مُروِّع، ولم يرَ أي سبيلٍ إلى الفرار في وجود هذه القوة.

خمَّن الآخر ما كان يجول في خاطر بلاك.

قال له: «لديَّ نصيحة واحدة فقط سأُسديها إليك؛ ألا وهي أن تجتنب عشاء ساندفورد.»

قال بلاك مُتلعثمًا: «لماذا، لماذا؟»

مشى الآخر إلى المدفأة ونَفَض رماد سيجاره من شبكتها الحديدية.

قال دون أن يلتفت: «لأنَّك في عشاء ساندفورد ستُصبح ضمن نطاق سُلطة رجال العدالة الأربعة، الذين، كما قد تعلم، يُمثِّلون قوةً واقية. أمَّا في أي مكان آخر ...»

«نعم، ماذا سيحدث في أي مكان آخر؟»

«تُصبح ضمن نطاق سلطة الشرطة. أيهُّا الكولونيل بلاك؛ ففي هذه اللحظة، يَتقدم مُساعِد شاب متحمِّس إلى أحد مُفوضي الشرطة بطلبٍ للحصول على مذكرة لاعتقالك بتهمة القتل.» وبإيماءةٍ بسيطة، أدار مانفريد ظهره ومشى نحو الباب على مهل.

قال بلاك بصوت بدا وكأنه هسيسٌ: «قف!» كان في تلك اللحظة يُمسك المسدس وهو يستشيطُ غضبًا وخوفًا.

ضحك مانفريد بهدوء. لم يُوقِف مِشيته، بل نظر إلى الوراء من فوق كتفه، وقال مقتبسًا المثل الشهير: «فليلتزم كل حِرَفيٍّ بالأداة التي يبرع في استخدامها. والسُّمُّ، يا عزيزي الكولونيل، هو الأداة التي تَبرعُ في استخدامها، أو السكين في حالة موت جيكوبس. أمَّا الدَّويُّ، حتى وإن كان دَويَّ مسدسٍ من طراز «ويبلي»، فسيُحطِّم أعصابك.»

فتح الباب، وخَرج ثم أغلقه خلفه بعناية. ارتمى بلاك على أقرب كرسيٍّ له، وقد فغر فاه وصار وجهه يتصبب عرقًا. كانت هذه هي النهاية. لقد صار قوة بالية. مشى عبر الغرفة إلى الهاتف، وأعطى رقمًا، ثم تلقَّى ردًّا بعد بعض الوقت.

نعم، كانت السيارة جاهزة، ولم تُطرَح أيُّ استفسارات. أغلق الهاتف ثم رفع السماعة مجددًا، واتصل بستةٍ من مستودعات تأجير السيارات. أعطى كلَّ مُستودَعٍ منها التعليمات نفسها. كان من المقرر أن تنتظره سيارتان، وقد غيَّر المكان في كلِّ طلب. سيارتان سريعتان تستطيعُ كلتاهما قطع الأميال الثمانين إلى بلدة «دوفر» دون خوفٍ من أن تتعطل.

قال: «سأستقلُّ واحدة، على أن تتبعها الأخرى مباشرة، نعم أريد الأخرى فارغة. أنا ذاهبٌ إلى «دوفر» لأَلتقي بعض الأشخاص.» لم يكن يُريد المجازفة بأن يتعطل في وسط الطريق؛ لذا يجب أن تكون السيارة الثانية جاهزة في متناوله تحسبًا لأي حادثٍ طارئ قد يُصيب الأولى.

كان يتمتَّع بدرجة جيدة من القدرة على التنظيم؛ ففي الوقت القصير الذي قضاه في استخدام الهاتف، رتَّب السيارات المُستأجَرة ترتيبًا يُتيح له أن يجد سيارتين تنتظرانه أيًّا كان الطريق الذي سيضطر إلى الهرب منه. وبعد ذلك، أكمل ارتداء ثيابه. كان ردُّ فعله النابع من الخوف قد ظهر. كان مُفعمًا بكراهيةٍ خبيثة تجاه الرجال الذين وضعوا نهايةً لمسيرته في الجريمة. وكان أشدَّ كرهًا لساندفورد، الرجل الذي كان يستطيع إنقاذه. قرَّر أن يُجازف بمواجهة «الأربعة»، وأن يجرب حظَّه في الإفلات بفعلته من الشرطة. والغريب أنَّ الشرطة هي أقل ما كان يخشاه. عقد العزم على أن يضرب ضربةً أخيرة ويكسر الرجل الذي كسره عنادُه.

كان يَستشيط غضبًا، ولم يَعُد يرى شيئًا سوى تحقيق خطته الانتقامية. دخل غرفته، وفتح خزانة وأخرج منها القنينة الزجاجية الخضراء. لم يكن يحتاج إلى الريشة؛ إذ قرَّر تنفيذ المهمة على أتم وجه.

أتمَّ ارتداء ثيابه، ووضع نقوده الورقية في جيبه، ودَسَّ القنينة الخضراء الصغيرة في جيب صداره. ألقى نظرةً أخيرة حوله. ارتدى قبعته وقد شعر بشيءٍ من البهجة القديمة التي كانت تغمره قبل قدوم مانفريد، ثم ألقى معطفًا على ذراعه وخَرَج.

كانت رفقةً صغيرة راقية تلك التي اجتمعت على العشاء في فندق «جريت ساوث سنترال»؛ إذ كانت ماي ساندفورد قد دَعَت إحدى صديقاتها، وأحضَر السيد ساندفورد شريكه الأصغر في إحدى شركات حي المال، والذي كان يُجري بعض الأعمال معه. تأخَّر بلاك ولم يصل إلَّا بعد رُبع ساعةٍ من الوقت المُحدَّد لبدء تناول العشاء. أمر ساندفورد الخُدام بتقديم الوجبة حين دخل الكولونيل.

قال ساندفورد: «اقعد يا بلاك.» فارتمى الكولونيل على كرسي بين صاحب مصنع الحديد وابنته. ارتجفت يدُه وهو يَرفع الملعقة ليضعها في صحن الحساء؛ فأنزل الملعقة وفتح منديل المائدة الموضوع أمامه. وقعت من المنديل رسالةٌ على الأرض. كان إيسلي قد صار آنذاك على درايةٍ بتلك الأظرف الرمادية، وكمشَ الرسالة بيديه واضعًا إيَّاها في جيبه دون أن يُحاوِل قراءتها.

ابتسم ساندفورد قائلًا: «تبدو مشغولًا يا بلاك، هاه؟» كان رجلًا مُتورِّد البشرة يتمتع بالحيوية، ولديه سالفتان بيضاوان على جانبَي وجهه المُحمر، وكان، في لحظات سروره، يُصبح رجلًا محبَّبًا للغاية. «يجب أن تكون ممتنًّا لأنني لم أوافق على الدمج، وإلا صرتَ تعمل حتى الموت.»

قال الكولونيل باقتضاب فظ: «نعم.» كان يبدو عليه العزم والإصرار، وقد كانت تلك عادة تظهر لديه حين يكون قلقًا.

قال الرجل العجوز مازحًا: «أنت رجل مُثير للإعجاب من منظور ما. ولو كنت أكثر عقلانية بقليل، كنت ستصبح أنجح.»

«ألا تراني ناجحًا؟»

ضمَّ ساندفورد شفتَيه مُفكِّرًا، ثم قال: «بلى ونعم. أنت لستَ ناجحًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ فقد حققتَ كلَّ ما تُسمِّيه نجاحًا بسهولةٍ مُفرِطة.»

لم يُتابع الكولونيل بلاك الحديث في هذا الموضوع، ولم يُشجِّع الآخر على مواصلة الخوض فيه. كان يحتاج إلى فرصة. وكان عليه أن ينتظر بصبر لبعض الوقت، ويشارك في المحادثة التي كانت تموج من حوله بقدرِ ما كان يستطيع أن يجمع من فتات الكلام.

كانت كئوس نبيذ الفتاة واقعةً على يساره. رفضت الفتاة احتساء النبيذ الخفيف، فانتزعت ضحكةً اعتراضية من أبيها.

قال: «يا عزيزتي، في عيد ميلادك، يجب أن تَحتسي بعض الشمبانيا.»

قالت بابتهاج: «إذن، فهي الشمبانيا!» كانت مبتهجة لأسبابٍ عديدة، أبرزها ... حسنًا، كانت مبتهجة وحسب.

كانت تلك هي الفرصة السانحة. قرَّب كأسها إليه وهو شارد الذهن، ثم تلمَّس جيبه حتى وجد القنينة. نزع السدادة بيدٍ واحدة، وسكب نصف محتوى القنينة على منديل المائدة الموضوع أمامه، ثم أعاد غلق القنينة، ودَسَّها في جيبه. أخذ الكأس على حِجره، ومسَحَ حافتها مرتين بالمنديل الرطب. ثم أعاد وضع الكأس في مكانها، دون أن يلاحظه أحد.

شعر بتحسن آنذاك بعد أن فعل ذلك. اتكأ إلى الوراء في كرسيه، حاشرًا يديه عميقًا في جيبي بنطاله. كان ذلك تصرفًا غير راقٍ، لكنَّه استمد منه شعورًا بالارتياح.

كان ساندفورد يتحدث إليه في تلك اللحظة قائلًا: «بلاك، استَفِق يا صديقي العزيز!» واستفاق بلاك بانتفاضة مفاجئة «لقد كان صديقي هذا وقحًا للغاية حتى إنه قد علَّق على شعرك.»

قال بلاك وقد وضع يده على رأسه: «هاه؟»

«حسنًا، إنَّه مُصفَّف وجيد، لكن منذ متى صار أبيض؟»

«أبيض؟» كان قد اعتاد على سماع مثل هذه الأمور، ولم يكن يُبالي كثيرًا. «أبيض؟ آه، اممم، منذ فترةٍ طويلة.»

لم يُواصِل المناقشة. كان النُّدُل يَملئون الكئوس. نَظَر عبر المائدة إلى ساندفورد. كم كان سعيدًا ومغترًّا. اعترض النظرات الرقيقة المتبادَلة بين الأب وابنته. كان بينهما تعاطُف مثالي. كان من المؤسف أنَّ أحدهما سيموت في غضون حوالي دقيقة، وأنَّ الآخر سيَنفطِر قلبه. كانت الفتاة مُفعمةً بالحيوية تتمتع بجسد رائع، وكانت نضرة وفاتنة. التفت ونظر إليها. أمر غريبٌ، بل غريبٌ جدًّا مدى هشاشة الحياة، حتى إنَّ ملليجرامًا واحدًا من سائل عديم اللون يكفي لقطع الحبل الواصل بين الروح والجسد. ملأ النادل الكأسين؛ كأسه أولًا ثم كأس الفتاة.

فَرَفع كأسه دون مبالاةٍ وتجرع كل ما فيها.

أمَّا الفتاة، فلم تلمس كأسها. كانت تتحدَّث إلى الرجل الذي كان على يسارها. لم يكن بلاك يرى سوى الخدِّ المستدير وكتفٍ واحدة بيضاء. وكان ينتظر بفارغ الصبر.

حاول ساندفورد إشراكه في المحادثة، لكنه رفض الاشتراك فيها. قال إنه قانع بالاستماع. كان قانعًا بالاستماع وبالمشاهدة وبالانتظار. رأى الأصابع البيضاء المشوقة تقترب من ساق الكأس وتحيط بها، ورأى من الفتاة نصف جسدها وهي ترفع الكأس بينما لا تزال تنظر إلى رفيقها. دَفَع بلاك كرسيه قليلًا إلى أحد الجانبَين حين لامست الكأس شفتيها. تجرَّعت جرعة غير كبيرة، لكنَّها كانت كافية. حبس الكولونيل أنفاسه. أعادت وضع الكأس وهي ما تزال تُكلم الرجل الموجود على يسارها.

ظل بلاك يعُدُّ الثواني البطيئة. أحصى حتى ستِّين، ثم مائة، ولم ينتبه إلى ساندفورد الذي كان يُكلمه. لم يؤدِّ العقار مفعوله!

«أأنتَ مريض أيها الكولونيل؟»

كان الجميع يُحدِّقون إليه.

كرَّر بصوتٍ مبحوح: «مريض؟ لا، لستُ مريضًا، ولمَ أكون مريضًا؟»

«افتح إحدى هذه النوافذ أيها النادل.»

أصابته نفحة من الهواء البارد فارتعش. غادر المائدة على عَجَلٍ وخرج من الغرفة متخبطًا كالأعمى. كانت توجد نهاية لكل ذلك. وفي خِضمِّ عجلته في دهليز الفندق، اصطدم برجل. كان ذلك هو الرجل الذي زاره في وقت سابق.

قال الرجل ممسكًا بذراعه: «معذرةً. أنت الكولونيل بلاك، على ما أظن.»

«ابتعد عن طريقي.»

تلفَّظ بلاك تلك الكلمات بوحشية.

«أنا المُحقِّق الرقيب كاي من «سكوتلانديارد»، وسآخذك إلى الحجز.»

وحالَما شعر الكولونيل بالخطر، ابتعد عنه قليلًا. وفجأة انطلقت قبضته ولَكَمت الضابط تحت فكِّه. كانت لكمةً هائلة باغتت المُحقِّق الذي لم يكن مستعدًّا لها. فهوى على الأرض كجذعٍ قُطِع من شجرة.

كانت الردهة فارغة. رَكَض الهارب إلى البهو تاركًا الرجل على الأرض. كان بلا قبَّعة، لكنَّه حجب وجهه ومرَّ وسط الزحام في الرواق وخرج إلى الشارع. لوَّح لإحدى سيارات الأجرة. قال: «بلدة «واترلو»، وسأعطيك جنيهًا، إذا لحقتَ بقطاري.»

وفي غضون أقل من دقيقة، كانت السيارة تُسرِعُ به في شارع «ستراند»، لكنه غيَّر تعليماته للسائق قبل الوصول إلى المحطة.

قال: «لن ألحق بالقطار، أنزلني عند ناصية ميدان «إيتون سكوير».»

وعند ميدان «إيتون سكوير»، دفع للسائق أجرته وأمره بالانصراف. وبشيء من الصعوبة، وجد سيارتَين تنتظرانه.

قال: «أنا الكولونيل بلاك.» فحيَّاه السائق الأول بلمس طرفِ قبعته. قال له بلاك: «اسلك الطريق المستقيم إلى ساوثهامبتون، ودَع السائق الثاني يتبعك.» وقبل أن تقطع السيارة شوطًا طويلًا، غيَّر رأيه، وقال: «اذهب أولًا إلى نادي «جونيور تيرف كلوب» للخيول في شارع «بول مول».»

وصل إلى النادي، وأومأ للبواب، ثم أمره قائلًا: «أخبر السير آيزاك بأنني أريده حالًا.»

كان آيكي في النادي، وقد كانت محاولة بلاك محض تخمين، لكنَّه قد أصاب رَجُلَه.

قال بلاك على عَجَلٍ للبارونيت المتحير المهتاج: «أحضِر مِعطفَك وقبَّعتك.»

«لكن ...»

صاح الآخر بغضبٍ وحشي: «من دون جدال، أحضِر معطفك وقبعتك، إلا إذا كنت تريد أن تُجَر من هنا إلى أقرب مركز شرطة.»

رجع آيكي على مضض إلى النادي وعاد في غضون بضع ثوانٍ، وهو يسير بصعوبةٍ وسط معطفه الكبير. سأله بانفعال: «والآن ما سبب كل هذا بحقِّ الجحيم؟» وحين وقع ضوء أحد أعمدة الإنارة على رأس الكولونيل المكشوف، شهق قائلًا: «يا رباه! لقد صار شعرك أبيض! إنك تُشبه هذا الرجل المدعو إيسلي تمامًا!»

(١٧) الفصل الأخير: العدالة

تساءل السير آيزاك بصوتٍ خفيض: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

فهمس بلاك في أذنه بصوت أجش: «ذاهبان إلى ساوثهامبتون. سنَلتقي بعض الأصدقاء هناك.» ابتسم في الظلام، ثم مال إلى الأمام وأعطى السائق بعض التعليمات بنبرةٍ خافتة.

انطلقت السيارة إلى الأمام بارتجاجةٍ مفاجئة، وفي غضون بضع دقائق، كانت قد عبرت مركز «هامرسميث برودواي» التسويقي، وصارت تسير مسرعة نحو حي «بارنز».

ولم تكَد تجتاز الزحام المروري بسلام حتى شقَّت سيارة سباق رمادية طويلة طريقها بخطورةٍ شديدة عبر الزحام، والتوت بخفة استثنائية بين عدد من السيارات الأخرى دون التفات إلى شتائم السائقين اللاذعة، وسارت في الاتجاه نفسه الذي سلكته سيارة بلاك.

كان بلاك قد تخطَّى بلدة «كنجستون» وكان يسير على طريق «سانداون رود» حين سمع هدير سيارةٍ صاخبًا خلف سيارتهم. استدار ونَظَر، متوقعًا أن يجد سيارته الثانية، لكن أحد إطاراتها قد تعرض للثقب؛ فتوقَّفت على طريق «بوتني هيث». كان بلاك قلقًا بعض الشيء، بالرغم من أنَّ سير السيارات على طريق بورتسموث في تلك الساعة من الليل لم يكن بالشيء الغريب. وكان يعرف أيضًا أنَّه لا يستطيع أن يُعلق آماله على البقاء متقدمًا على مُطارِده. سمع ذلك الصوت الجلي المميز الذي كان يصاحب سيارة السباق في أثناء حركتها؛ فقال: «سننتظر ريثما يتسع الطريق قليلًا، ثم سنترك ذلك الرجل يتخطَّانا.»

أخبر السائق بخُلاصة هذه النية، ولم تُظهِر السيارة السائرة خلفهم أي استعدادٍ لتخطِّيهم حتى اجتازوا أبرشية «سانداون» وقرية «كوبهام» وصارت أنوار بلدة «جيلدفورد» على مشارف أن تلوح في أفقهم. وبعدئذ، على جزء ممتد مهجور من الطريق يقع على بعد ميلين من البلدة، صارت السيارة، دون أي جهدٍ ملموس، على استقامة واحدة

مع سيارتهم، ثم اجتازتهم على الممر الأوسط في الطريق، ثم تباطأت، واضطرَّت سيارة التجوال، التي كانت تُقلُّهم، إلى الإبطاء مثلها.

شاهد بلاك تلك المناورة ببعض الارتياب. ظلَّت سيارة السباق تتباطأ حتى توقفت بالعرض في الطريق، بل توقفت أيضًا بوضعيةٍ أعجَزَت سيارة التجوال عن تجاوزها. فتوقف سائق بلاك فجأة بارتجاجةٍ شديدة.

رأوا، على ضوء مصابيح سيارتهم، رجلين يترجَّلان من السيارة المتوقفة أمامهم، وبدا أنهما يُجريان فحصًا سريعًا لإحدى العجلات، ثم عاد أحدهما، بمشيةٍ بطيئة مسترخية، حتى وصل إلى حيث كان بلاك ورفيقه جالسَين.

قال الغريب لبلاك: «معذرة، أظن أنني أعرفك.»

وفجأة، وَمض ضوء مصباح كهربائي في وجه بلاك. والأدهى من ذلك أنَّ ماسورة مسدس مطلية بالنيكل قد ظهرت جليةً في أشعة ذلك الضوء المنتشرة، وكانت موجهة مباشرة نحو بلاك. قال الرجل المجهول بهدوء: «فلتترجَّل من السيارة يا سيد بلاك، أنت ورفيقك.»

لم يستطع بلاك أن يأتي بأي حركةٍ وسط الضوء الساطع الذي كان يغمره. ترجَّل من السيارة إلى الشارع دون أن ينبس ببنت شفة، وكذلك فَعَل رفيقه. قال الرجل ذو المسدس: «تقدَّما إلى الأمام.»

أطاعه الاثنان، وقابلهما سيلٌ آخر من أشعة الضوء؛ إذ كان سائق السيارة الأولى واقفًا، وهو يحمل في إحدى يديه مصباحًا كهربائيًّا وفي يده الأخرى مسدسًا. أمرهما بالجلوس على المقاعد الخلفية من السيارة باقتضاب فظ، واستدار أول من قبض عليهما ليُعطيَ سائق سيارة التجوال الرمادية بعض التعليمات، ثم قفز داخل جسم السيارة حيث كانا يجلسان، وجلس على كرسي مقابل لهما.

أمَرهما وهو يحرك ضوء مصباحه الصغير عليهما: «ضعا أياديكما على رُكبكما.»

فقَدَّم بلاك يديه المكسوتين بقفازين إلى الأمام على مضض. وحذا حذوه السير آيزاك، الذي كان منهكًا من شدة الخوف.

انطلقوا من الطريق الرئيسي وسلكوا طريقًا ريفيًّا ضيقًا لم يكن بلاك يألفه، وظلوا طوال عشر دقائق يلتوون ويَنعطفون بالسيارة في منطقةٍ بدت أنَّها في قلب الريف، ثم توقفوا. أمَرهما الرجل ذو المصباح قائلًا: «انزلا!» لم يكن بلاك ولا صديقه قد تفوَّها بكلمة واحدة حتى تلك اللحظة.

سأله بلاك: «ما الخطب؟»

فأمره الآخر قائلًا: «انزل!» فترجَّل الرجل الضخم من السيارة متفوهًا بلفظٍ بذيء. وكان في انتظاره هو ورفيقه رجلان آخران.

قال بلاك بسخرية: «أظنُّ أنَّ هذه مسرحية رجال العدالة الأربعة الهزلية.»

فقال أحد الرجلين المنتظِرَين: «هذا ما ستعرفه.»

اقتيد بلاك والسير آيزاك في دَرب طويل وعر عَبر حقل وسط أجمةٍ صغيرة من الأشجار، حتى لاح أمامهما في ظلام الليل مبنى صغير. كان المبنى معتمًا. وقد أوحى لبلاك بأنَّه كنيسة صغيرة. لم يكن لديه متسعٌ من الوقت لملاحظة طراز بنائها. سمع صوت أنفاس السير آيزاك المتسارعة من ورائه، وطقَّةِ قفل. وارتخت اليد التي كانت تُمسك بذراعه آنذاك.

قال صوتٌ: «الزم مكانك.» فتوقف بلاك. كان يتأجَّج في قلبه خوفٌ ممزوج بالسقَم ممَّا كان يوحي به كل ذلك. قال صوت: «خطوة إلى الأمام.» فتقدم بلاك خطوتين، وفجأة توهَّجت الغرفة الكبيرة التي كان يقف فيها بالأنوار، فرفع يده ليَحميَ عينه من الوَهَج الباهر.

كان المشهد الذي رآه لافتًا؛ إذ كان في كنيسة صغيرة. فقد رأى النوافذ ذات الزجاج الملوَّن، لكن في مكان المذبح، كانت توجد منصة منخفضة تمتد بطول أحد جوانب المبنى. كانت مكسوة بقماش أسود متدلٍّ من عند طرفها، وكانت تحمل ثلاث طاولات. تبادر إلى ذهنه حينئذٍ أنَّها أشبه بطاولات القضاة، باستثناء أنَّ الستائر كانت أرجوانية اللون، والطاولات من خشب البلوط الأسود، والسجاد الذي يُغطي المنصة متشحٌ بذاك اللون القاتم نفسه.

كان ثمة ثلاثة رجال جالسين إلى المكاتب. كانوا مقنَّعين، وكانت رابطة عنق أحدهم مزينة بدبوس ماسي يتلألأ في ضوء الثُّريَّا الكهربائية الكبيرة المتدلية من السقف المحدب؛ فقد كان جونزاليس يعجز عن مقاومة ميله الشديد إلى الحُلي.

كان العضو المتبقي من «الأربعة» واقفًا على يمين الأسيرين.

كانت النوافذ ذات الزجاج الملون والسقف الهرمي ذو العوارض الخشبية المائلة، والطابع المعماري المهيب، هما كل ما يوحي بأنها كنيسة. لم يكن يوجد أثاث آخر على الأرضية، التي كانت مغطاةً بالبلاط وخالية من أيِّ كرسي أو مقصورة كنسية.

لمح بلاك كل ذلك بسرعة. ولاحظ بابًا خلف الثلاثة أتوا من خلاله، وبدا أنه كان مَخرجهم أيضًا. لم يستطع أن يرى أي وسيلة للهرب إلا بالطريقة التي جاء بها.

تحدَّث أوسط الثلاثة القاعدين إلى الطاولة بصوتٍ أجش صارم لا هوادة فيه. قال بجدية شديدة: «يا موريس بلاك، ماذا تقول عن فانكس؟»

هز بلاك كتفيه ونظر حوله كما لو أنَّه سئم سؤالًا كان يجد الإجابة عنه مستحيلة.

ثم سأله الصوت: «ماذا عن جيكوبس وكولمان وعشرات الرجال الذين وقفوا في طريقك وماتوا؟»

ظل بلاك صامتًا. كانت عيناه تتفحَّصان المكان المُحيط. كان خلفه بابان، ولاحَظ أنَّ المفتاح كان في القفل. واستطاع أن يرى أنَّه كان في كنيسة نورماندية قديمة قد رمَّمتها شركة خاصة لغرضٍ ما.

كان الباب عَصريًّا ومن صنف الأبواب «الكنسية» المعتاد.

قال قائد «الأربعة»: «يا آيزاك ترامبر، ما الدور الذي أديته؟»

قال السير آيزاك ترامبر مُتلجلجًا: «لا أعلم. أنا لا أعرف شيئًا مثلك تمامًا. أظن أنَّ فكرة محل المضاربة غير القانوني بغيضة للغاية. حسنًا، أصغ إليَّ، هل يوجد شيءٌ آخر أستطيع إخبارك به؛ لأنني حريص جدًّا على الخروج من هذه القضية نظيف اليدين؟»

خطا خطوةً إلى الأمام، ومَدَّ بلاك يده ليَكبحه، لكن الرجل الواقف بجواره شدَّه إلى الوراء.

قال القائد: «تعالَ إلى هنا.» فمشى السير آيزاك بسرعةٍ في الممر نحو المنصَّة مُرتجِف الركبتين.

قال بلهفة وهو يقف كصبي نادم على خطاياه أمام قامة سيده: «سأفعل أيَّ شيء أستطيعه. سأسعد للغاية بتقديم أي معلومات أستطيع الإدلاء بها.»

صاح بلاك بعلو صوته قائلًا: «كُفَّ عن ذلك!» كان وجهه يستشيط غضبًا. قال بصوت أجش: «كُف عن ذلك، أنت لا تعي ما تفعله يا آيكي. الزم الصمتَ وقِف بجانبي ولن تعاني.»

أضاف السير آيزاك: «أعرف أمرًا واحدًا فقط؛ ألا وهو أنَّ بلاك كان على خلاف مع فانكس …»

لم تكد هذه الكلمات تخرج من فمه حتى دوَّت ثلاث طلقات مُتتالية بسرعة؛ إذ لم يكن «الأربعة» قد حاولوا تجريد بلاك من سلاحه. وبسرعةٍ كالبرق، استلَّ مسدسه الذي كان من طراز براوننج، وأطلق النار على الخائن.

صار عند الباب في غضون ثانية. وبعد لحظة، أدار المفتاح وأصبح خارج الكنيسة.

قال صوت آتٍ من المنصة: «أطلق النار، أطلق النار يا مانفريد.» لكن الأوان قد فات؛ إذ كان بلاك قد اختفى بين غياهب الظلام. وبينما كان الرجلان يهرعان وراءه، بدا ظلهما للحظة أمام الضوء الذي كان آتيًا من داخل الكنيسة. «طاخ! طاخ!» أصابت رصاصة من النيكل الدعامات الحجرية في مدخل الكنيسة، وغطَّتهما بغبار ناعم وشظايا حجرية.

قال مانفريد بسرعة: «أطفئا الأضواء، ولاحِقاه.»

لكنَّ الأوان كان قد فاته؛ إذ كان بلاك قد انطلق في طريقه بالفعل، ومَنحه مزيج الخوف والكراهية الكامن فيه آنذاك سرعة لا يتخيَّلها أحد. قادته غريزته البهيمية عبر الحقل بدقةٍ متناهية. وصل إلى الدرب الضيق، واتجه إلى اليسار، ووجد سيارة السباق الرمادية تنتظر دون رقابة.

هُرع إلى ذراع المحرِّك وأداره. وفي غضون ثانية، صار جالسًا في كرسي السائق. كان عليه أن يجازف؛ فقد كان من المحتمل أن توجد مصارف مائية على جانبي الطريق، لكنَّه لفَّ عجلة القيادة حتى آخرها تقريبًا، ووضع قدمه على الدواسة. قفزت السيارة إلى الأمام، وانحرفت إلى الجانب بحدة، ثم استعادت توازنها وسارت على الطريق ترتج بصوتٍ صاخب.

رأى مانفريد المصابيح الخلفية للسيارة تختفي مع ابتعاد المسافة؛ فقال: «لا فائدة. هيا نَعُود.» كان قد خلع قناعه.

ركضوا عائدين إلى الكنيسة. وأضيئت الأنوار مرة أخرى. كان السير آيزاك جثة هامدة على الأرض؛ إذ كانت الرصاصة قد أصابتْه في كتفه اليسرى واخترقت قلبه، لكنَّهم لم يكونوا ينظرون إليه؛ إذ كان القائد راقدًا بلا حَراكٍ على أرض وسط بِركة من الدماء.

قال لهم: «افحصوا الجرح، وإذا لم يكن قاتلًا، فلا تخلعُوا قناعي.»

فَحَص بويكارت وجونزاليس الجرح سريعًا. «إنَّه خَطِر جدًّا.»

لخَّصا رأيهما بهذه الجملة المقتضبة؛ فقال الجريح بهدوء: «ظننتُه كذلك بالفعل. من الأفضل أن تُواصلا المسير إلى ساوثهامبتون. سيلتقي فيلو في طريقه على الأرجح.» ابتسم هنا من وراء قناعه «أظن أنني يجب أن أدعوه الآن باللورد فرانسيس ليدبورو. إنه ابن أخي وهو بمثابة مُفوَّض شُرطي. لقد بعثتُ إليه ببرقية ليتبعني. ربما تستطيعان أن تأخذا سيارته وتذهبا معه. أمَّا أنت يا مانفريد، فتستطيع البقاء معي. اخلعوا عني هذا القناع.»

فانحنى جونزاليس ونَزَع القناع برفق، ثم انتفض إلى الوراء.

صاح مشدوهًا: «اللورد فيرلوند!» وأومأ مانفريد، الذي كان يعلم، برأسه.

كان الطريق خاليًا من الزحام المروري في تلك الساعة من الليل، وكان معتمًا وضيقًا عند بعض مناطقه على رجلٍ لم يلمس عجلة قيادة سيارة منذ عدة سنوات، لكنَّ بلاك قد جلس حسير الرأس يقود السيارة الكبيرة قُدُمًا دون أن يخشى العواقب. لقد كان، للمرة الأولى والوحيدة في حياته، ينطلق بالسيارة في بلدة صغيرة بسرعة تضاهي سرعات السباقات.

حاول شرطي إيقافه، فكاد أن يموت ولم ينجُ إلا بشق الأنفس. وصل بلاك مجددًا إلى طريق رئيسي سريع دون أضرار، باستثناء تحطُّم واقي أحد الإطارات بعد اصطدامه بعمود إنارة في أحد المنعطفات الحادة. سار عبر مدينة «وينشستر» بأقصى سرعة، وواجه محاولةً أخرى لإيقافه؛ إذ أُوقِفت عربتان كبيرتان في الشارع الرئيسي، لكنه رآهما في الوقت المناسب، وسلك طريقًا جانبيًّا، واجتاز البلدة مجددًا بفضل حُسن حظه أكثر من أي شيء آخر. صار يعرف آنذاك أنَّ الشرطة تعلم بأمر هروبه؛ فكان لا بد أن يُغيِّر خططه. اعترف في قرارة نفسه بأنَّه لم يكن يملك خططًا كثيرة ليُبدِّل فيما بينها؛ إذ كان قد رتَّب لمغادرة إنجلترا عبر أحد ميناءَين؛ دوفر أو ساوثهامبتون. كان يأمل في الوصول إلى متن السفينة المتجهة إلى ميناء «لو هافر» الفرنسي دون أن يلفت إليه الانتباه، لكن ذلك قد صار الآن مستحيلًا. فالسلطات ستراقب السفن، ولم يكن لديه أي وسيلة تنكُّر تُساعده.

وعلى بُعد ثمانية أميال جنوب «وينشستر»، لحق بسيارة أخرى وتخطاها قبل أن يُدركَ أنَّ هذه السيارة لا بد أن تكون هي السيارة الثانية التي استأجرها. وتزامنًا مع هذا الإدراك، دوَّى صوت فرقعتين؛ فقد ثُقِب الإطاران الأماميان في سيارته. داس المكبح وأبطأ السيارة حتى توقفت تمامًا. كم كان حظه رائعًا آنذاك! أن يأتيه البلاء حيث كان الخَلاص متاحًا في متناوله!

قفز من سيارته، ووقف جليًّا في وهج مصابيح السيارة القادمة مادًّا ذراعَيه؛ فوقفت السيارة على بُعد بضع أقدام منه. قال للسائق: «خُذني إلى ساوثهامبتون، لقد تعطَّلت سيارتي.» فقال السائق شيئًا غير مفهوم.

فتح بلاك باب السيارة ودخلها. فأُغلِقَ الباب بحدةٍ خلفه قبل أن يدرك وجود ركاب آخرين معه. استهلَّ الكلام قائلًا: «مَن …؟» ثم أمسكته يدان، وأُغلِقَ شيء بارد صلب على معصميه فجأة، وقال صوت مألوف: «أنا اللورد فرانسيس ليدبورو، مفوض شُرطي مُساعِد، وسأحتجزك بتهمة القتل العمد.»

فكرَّر بلاك بشيءٍ من بلادة العقل: «ليدبورو؟»

فقال الصوت: «تعرفني بأنني الشرطي فيلو.»

شُنِق بلاك في سجن «بينتونفيل» في ٢٧ مارس من أحد أعوام القرن العشرين، وقرأ اللورد فرانسيس ليدبورو الذي كان قاعدًا بجوار فراش عمِّه السقيم، ذلك البيان المقتضَب الذي أُدلي به إلى الصحافة.

سأله: «هل تعرفه يا سيدي؟»

فالتفت الإيرل العجوز بشيء من الضيق.

وصاح غاضبًا: «أعرفه؟ بالطبع كنت أعرفه، إنَّه صديقي الأوحد الذي شُنِق.»

أصر المفوَّض الشرطي المساعد المتشكِّك على سؤال الإيرل عن بلاك؛ فقال: «أين التقيته؟»

قال الرجل العجوز بتجهُّم: «لم أَلتقِه قط، بل هو الذي التقاني.»

وتجهم وجهه قليلًا إذ كان جرح كتفه لا يزال مؤلمًا.

(١٨) قصة إضافية: المسمَّمون

نُشِرت لأول مرة في مجلة «ذا نوفل ماجازين» في مايو ١٩١٢.
نُقِّحت للنشر في مجموعة «رجال عدالة قرطبة» عام ١٩١٧.
أُعيدت طباعتها في مجلة «ذا ثريلر» في الثاني من مارس عام ١٩٣٥.

* * *

نداء السفر

كان السيد إيسلي يتمشى جيئة وذهابًا بخُطًى ثابتة في غرفة مكتبه في حي «فورست هيل». كانت المنضدة مليئة بالرسائل المفتوحة؛ إذ كان الطبيب يجري واحدة من زياراته القصيرة إلى عيادته.

أمسك إحدى الرسائل وقرأها مجددًا. كانت مكتوبة باللغة الفرنسية وممهورة من أعلاها بختم وزارة العدل. ذكر كاتبها أنه يَسعَد ويتشرَّف بإخبار السيد الطبيب بأنَّ رجال العدالة الأربعة قد اختفوا، كما لو أنَّهم قد تلاشوا من على وجه الأرض، وأنَّهم بكل تأكيد ليسوا من مواطني فرنسا.

رمى الطبيب الرسالة من يده. كانت الرسائل كلها تقول الشيء نفسه. لم تساعده أي سُلطة، ولم يتطرَّق الكاتب الإسباني الجديد، دي لا مونتي، الذي تُرجِم كتابه عن الجريمة إلى الإنجليزية مؤخرًا، إلى أولئك الرجال بأيٍّ ذِكر. ومع ذلك، كانت كتابات هذا الرجل تنم عن الثقة، وبدا مرجحًا أنَّه يستطيع تقديم معلومات.

وهنا خَطرت بباله فكرة. قلَّب أوراق دفتر الهاتف ووجَد رقمًا. ثم طلب هذا الرقم عبر الهاتف، وفي غضون بضع دقائق، كان يتكلَّم مع دار النشر.

قال: «أنا الدكتور إيسلي، أرغب بشدة في معرفة عنوان مؤلف كتابٍ قد نشرتموه مؤخرًا، اسمه «الجريمة العصرية».»

«عنوان دي لا مونت؟»

«أجل، هو بعينه.»

فقال الصوت عبر الهاتف: «هلا تَنتظرني ريثما أعثر عليه.»

انتظر الطبيب على الهاتف حتى عاد المتحدث.

«إنه في قرطبة.»

فلَمَع وميض مفاجئ في عينَي الدكتور إيسلي.

وقال بلهفة: «حقًّا؟ هل تستطيع أن تعطيني العنوان بالضبط؟»

«المبنى رقم واحد وأربعين في شارع كالي موريريا.»

«شكرًا جزيلًا!» كتب الطبيب العنوان سريعًا، ووضع السماعة.

قرطبة! من بين كل الظروف المواتية التي يُهيِّئها القَدر في الدنيا! لقد كان ثمة اهتمامٌ من نوع آخر يدعوه إلى هذه المدينة؛ إذ كان يرغب في رؤية رجل يُدعى الطبيب كاجالوس.

ضغط على الجرس، فجاءته السيدة العجوز التي كانت قائمةً وحدها على كل شئون بيته الصغير.

قال لها: «سأسافر بضعة أيام، لقد استُدعيت إلى باريس.»

«وإذا اتصل السيد بلاك يا سيدي ...»

فقال فورًا: «لن يتَّصل، وحتى لو اتصل، أخبريه بأنني خارج البلدة.»

بعد ذلك، غادر الطبيب إيسلي البيت وسار بنشاط إلى محطَّة القطار؛ كان يسير بنشاط غريب على رجل أشيب الشعر مثله، وكانت حيوية مشيته وعنفوان تأرجُح كتفيه يوحيان بقوة نادرًا ما تكون لدى رجل في الخمسين من عمره.

غير أنه بالرغم من نشاط مشيتِه، لم يكن يشعر بالارتياح؛ إذ كان يراوده هاجس بغيض بأنَّ أحدًا يراقبه. نظر حوله مرتين فجأة، لكنه لم ير شيئًا. فلعن حماقته سرًّا.

قال لنفسه: «لقد جعلت رجال العدالة الأربعة اللعينين هؤلاء يزعجونني بشدة.»

وصل إلى حي «فكتوريا»، واستقل سيارة أجرة إلى محطة «تشارينج كروس». كان عليه أن ينتظر ربع ساعة. وبينما كان يقف أمام كشك الكتب، راوده ذلك الشعور بعدم

الارتياح مرة أخرى. لقد كان مُراقَبًا. التفت فجأة ولم يرَ أحدًا سوى أناسٍ مُسالِمين غير مُؤذِين. فالرجل الذي كان يراقبه قد أشاح بوجهه بعيدًا عنه قبل ذلك بجزءٍ من الثانية، ولم يرَ إيسلي منه سوى ظهره العريض وهو ينحني لربط حزام حقيبة السفر التي يأخذها معه.

بابتسامةٍ طفيفة مريرة تُوحي باشمئزازه من نفسه، عاد الطبيب إلى التأمل في كشك الكتب والصحف. كان يُطالع لافتة متوهِّجة تُعلن أنَّ كريسويل بلاك قد استحوذ على شركة «إف أند بي ريلواي». فاشترى صحيفةً وقرأ تفاصيل الخبر:

> إننا ندرك أنَّ كل العقبات التي كانت تحُول دون دمج شركتي «فينسبري أند بيرست» و«نورث-إيست لندن ريلواي» لتشغيل القطارات قد تلاشَت مع وفاة السيد جورج واليسون، الرئيس الراحل لشركة «إف أند بي لاين». وكما تتذكرون، فإنَّ السيد واليسون قد مَرِض فجأة في أثناء وليمة في حي المال، وتُوفِّي متأثرًا بقصورٍ في القلب، بالرغم من وجود طبيب بين الحاضِرين. وقد أعرب السيد كريسويل بلاك، في أثناء ترؤُّسه اجتماعًا لشركة «نورث-إيست لندن ريلواي»، عن بالغ أسفه لأنَّ تحقيق خططه قد صار ممكنًا بسبب حادث مؤسف جدًّا كهذا.

طوى الطبيب إيسلي الصحيفة متأبطًا إياها، وسار على الرصيف نحو قطاره منهمكًا في التفكير.

كان الرجل القاعد إلى الطاولة ذات السطح الرخامي في مقهى «جريت كابتن» بقرطبة رجلًا ميسورًا خالي البال. كان جورج مانفريد رجلًا طويل القامة ذا لحية مشذبة وعينَين رماديتَين مُتجهمتَين كانتا تجوبان الشوارع في شرود فكأنه لا يعرف مُبتَغاه. كان يرتشف فنجانًا من القهوة، وينقر على الطاولة بيديه البيضاوين النحيلتين عازفًا نغمة صغيرة.

كان متشحًا بالسواد. وكانت عباءته طويلة ومبطنة بالمخمل الأسود، وكانت الياقة مكسوةً بالمادة نفسها. كان ملبسه تقليديًّا إلى حدٍّ كافٍ في قرطبة، ولربما كان إسبانيًّا بالرغم من عينيه الرماديتين.

كانت طريقة حديثه سليمة بلا أي أخطاء. كان يتحدَّث بلثغة أندلسية؛ مجتزئًا كلماته مثلما يفعل أهل الجنوب. كذلك تجلَّى دليل على أصله الجنوبي في رد فعله تجاه الشحاذ المُتأوِّه الذي جاءه يجر قدميه في ألم ومرارة، مادًّا يده ذات الأصابع المعوجة طلبًا للإحسان.

«باسم العذراء، والقديسين، والرب الذي هو فوق الجميع، أتوسل إليك يا سيدي أن تمنحني عشرة سنتيمات.»

اتجه الرجل ذو اللحية بعينيه الشاردتَين نحو راحة يده الممدودة.

ثم قال باللكنة العربية المميزة لمنطقة المغرب الإسباني: «سوف يُعطيك الرب.»

قال الشحاذ بنبرة رتيبة: «إنني لن أكف أبدًا عن الدعاء لفخامتك بالسعادة، حتى وإن عشتُ مائة عام.»

نظر ذو العباءة المبطَّنة بالمخمل إلى الشحاذ.

كان الشحاذ رجلًا متوسط الطول، حاد الملامح، طليق اللحية على غرار أمثاله، ومعصبًا بضمادات ثقيلة تغطي رأسه وإحدى عينيه. كان أعرج أيضًا تتجسد قدماه في كتل بلا شكل محدد من الضمادات الملفوفة، وكانت يداه الشاحبتان تقبضان بقوة على عصا. قال متأوهًا: «أيها السيد والأمير، بيني وبين آلام الجوع اللعينة عشرة سنتيمات، ولن تهنأ فخامتك بنومك وأنت تراني في خيالك أتقلَّب على جمر الجوع.»

ارتشف الرجل الجالس إلى الطاولة قهوته دون أن يحرك ساكنًا.

وقال: «اذهب في رعاية الرب.»

لم يزل الرجل يَتباطأ ويتلكَّأ.

راح ينظر يمنة ويسرة إلى الشارع المشمس بلا حول ولا قوة، ثم حدق في المقهى البارد المظلم من الداخل، حيث جلس نادلٌ إلى إحدى الطاولات يقرأ الجريدة دونما اكتراث لأي شيء. بعد ذلك مال إلى الأمام، ومد يده ببطء ليأخذ كسرة كعك من الطاولة المُجاوِرة.

سأل بلكنة إنجليزية بحتة: «أتعرف د. إيسلي؟»

بدا السيد المختال بنفسه الجالس إلى الطاولة مُستغرقًا في التفكير.

سأل باللغة نفسها: «لا أعرفه، لكن لماذا؟»

قال الشحاذ: «يجدر بك أن تعرفه؛ إنه شخص مثير للاهتمام.»

وانصرف يجرُّ قدميه بصعوبة عبر الشارع دون أن يزيد كلمة. وراح السيد يراقبه ببعض الفضول، ثم وقف فاردًا قامته التي كان طولها يزيد على ستِّ أقدام، وحرك عباءته قليلًا، ثم بدأ يمشي رويدًا في الاتجاه الذي ذهب منه الشحَّاذ.

لحق بالرجل الذي كان موجودًا في مقهى كال بارايزو واجتازه، ثم بلَغ أخيرًا جسر كالاهورا. وصل إلى منتصف الجسر، ومال من فوقه يراقب باهتمامٍ فاترٍ تلك المياهَ الصفراءَ المتلاطِمة في النهر الكبير.

رأى الشحاذ بزاوية عينه وهو يتقدَّم ببطء نحو البوابة ويسير في اتجاهه. وقد انتظر لوقت طويل؛ إذ كان الرجل يتقدم ببطء. وفي النهاية اقترب منه في حذر، وقبعته في يده وراحة يده ممدودة. كان سلوكه كسلوك الشحَّاذين، لكن صوته حين تكلم، كان صوت رجل إنجليزي مثقف.

قال في نبرة جادة: «مانفريد، لا بد أن ترى هذا الرجل المدعو إيسلي. لديَّ سبب خاصٌّ لطلبي ذاك.»

«من هذا الرجل؟»

ابتسم الشحاذ.

وقال: «إنني أعتمد على الذاكرة إلى حدٍّ كبير؛ إذ إنَّ المكتبة الموجودة في مسكني المتواضع محدودة إلى حد ما، لكن لديَّ فكرة محدودة أنه طبيب في إحدى ضواحي لندن، أو بالأحرى جراح ماهر.»

«ماذا يفعل هنا؟»

ابتسم جونزاليس — كان ذلك هو اسم الشحاذ — مجددًا.

«يوجد في قرطبة رجل يدعى د. كاجالوس. وهو رجل عجيب، يصنع معجزات لا تحلم بها في فلسفتك؛ فيعيد البصر إلى الكفيف، ويُسبِل تعاويذ على المذنبين، ويصنع أشربة الحبِّ المعصوم للأبرياء!»

أومأ مانفريد.

«لقد رأيته وأخذت مشورته.»

دُهِشَ الشحاذ بعض الشيء.

وقال وفي صوته نبرة إعجاب: «أنت رجل رائع يا جورج. متى فعلت ذلك؟»

ضحك مانفريد ضحكة خافتة.

«في إحدى الليالي، قبل بضعة أسابيع معدودة، حين وقف أحد الشحاذين أمام باب الطبيب المبجل ينتظر بصبرٍ ريثما يُنهي زائرٌ غامض، كان مُتخفِّيًا بالكامل، مهمتَه.»

قال الآخر مومئًا: «أذكر ذلك. كان غريبًا من رُندا، وكان لدي فضول لمعرفة أمره. هل رأيتني وأنا أتبعه؟»

قال مانفريد بجدية: «رأيتك. رأيتك بطرف عيني.»

سأل جونزاليس مُندهِشًا: «ألم يكن أنت؟»

قال الآخر: «كان أنا. لقد خرجت من قرطبة لأذهب إلى قرطبة.»

لاذ جونزاليس بالصمت لبرهة.

ثم قال: «سأتقبَّل الإهانة. والآن، بما أنك تعرف الدكتور، أترى أي سبب يدفع طبيبًا إنجليزيًّا عاديًّا إلى زيارة قرطبة؟ لقد قطع هذه المسافة كلها من إنجلترا على متن قطار الجزيرة الخضراء السريع، دون أن يتوقف في محطة واحدة. وسوف يُغادر قرطبة غدًا مع أول ضوء للنهار على القطار السريع نفسه، وسوف يأتي لاستشارة د. كاجالوس.»

تساءل مانفريد قائلًا: «هل أرسل بويكارت أي رسالة؟»

«بويكارت هنا؛ فهو شديد الاهتمام بأمر هذا المدعو إيسلي، حتى إنه سيأتي إلى قرطبة خلسة بصحبة بيدكير، سعيًا للحصول على معلومات بشأن هذا المرشد الرحَّالة، وسيستسلم في خنوع لأخطائه.»

مسَّد مانفريد على لحيته الصغيرة، وفي عينيه الحكيمتَين التعبير التأملي الجاد نفسه الذي ارتسم فيهما عندما شاهد جونزاليس آتيًا يجرجر قدميه من مقهى دي لا جران كابيتان.

تحدث قائلًا: «كانت الحياة لتصبح مملة بدون بويكارت.»

ستكون مملة حقًّا. آه يا سيدي، لأقضين عمري في الثناء عليك، ولسوف يَرتفع في الهواء مثلما يرتفع دخان البخور المقدَّس إلى عرش السماء.»

وفجأة تخلَّى عن أنينه؛ إذ كان ثمة شرطي من حرس المدينة يقترب نحوهما؛ لاشتباهه في الشحاذ الذي وقف بيد ممدودة في ترقب الإحسان.

هز مانفريد رأسه بينما كان الشرطي يجوب الأرجاء مُتمهِّلًا.

ثم قال: «اذهب في سلام.»

قال الشرطي ويده الغليظة تنقض على كتف الشحاذ: «كلب. لص ابن لص، اذهب حتى لا تؤذي أنف هذا السيد المرموق برائحتك.»

ووقفَ يُراقب الرجل وهو يعرج مبتعدًا، واضعًا يديه حول خاصرتَيه، ثم التفت إلى مانفريد.

تحدث بحدة فقال: «لو كنت رأيت هذا الحثالة من قبل يا صاحب الفخامة، لأرحتك من رفقته.»

قال مانفريد بأسلوب تقليدي: «لا عليك.»

سار الرجل بجواره حتى نهاية الجسر، حيث وقفا يتسامَران بالقُرب من المدخل الرئيس للكاتدرائية.

تساءل الشرطي: «فخامتك لستَ من قرطبة، أليس كذلك؟»

قال مانفريد دون تردُّد: «أنا من مالقة.»

أسرَّ إليه الشرطي قائلًا: «كان لي أخت متزوِّجة من صياد من مالقة.»

اكتفى مانفريد بإيماءة؛ إذ كان مُهتمًّا بمجموعة من السائحين كان أحد المرشدين يُريهم أمجاد بويرتا ديل بيردون.

انفصل أحد السائحين عن رفقتِه واتجه نحوهما. كان رجلًا متوسِّط الطول ذا بِنية جسدية قوية. كان ثمَّة تحفظ غريب في سيمائه وهدوء كئيب في قسمات وجهه.

تساءل بلغة إسبانية ركيكة: «هلا أرشدتُماني إلى ساحة باسيو دي لا جران كابيتان؟»

قال مانفريد في دماثة: «ذاك طريقي. إن تفضل السيد بمرافقتي ...»

قال الآخر: «سأكون ممتنًّا لك.»

رفعا قبعتيهما تحيةً للشرطي، كان مانفريد قد رفعها بسلاسة، بينما رفعها الآخر ببعض الارتباك، وانطَلَقا.

أخذا يَتحادثان قليلًا حول موضوعات متنوعة، ما بين الطقس والطابع المبهج للمسجد-الكاتدرائية.

قال السائح فجأة: «لا بدَّ أن تأتي وتقابل إيسلي.» وكان يتحدَّث حينها بإسبانية مُمتازة.

قال مانفريد: «حدثني عنه؛ فالحقُّ أنك قد أثرتَ فضولي يا عزيزي بويكارت.»

قال الآخر بجدية: «إنها مسألة مهمَّة. إيسلي طبيب في إحدى ضواحي لندن. لقد وضعته تحت المراقبة لبضعة أشهر. إنَّ لديه عيادة صغيرة — بل صغيرة للغاية في الواقع — ويُشرف على علاج بضع حالات. ليس لديه نشاط ذو أهمية في ضاحيته، وقصته غريبة.

لقد كان طالبًا في كلية لندن الجامعية، وفور حصوله على شهادته الجامعية غادَرَ إلى أستراليا برفقة شابٍّ يُدعى بلاك. كان بلاك فاشلًا ميئوسًا منه وكان يعاني بشدةٍ في اختباراته، غير أنَّ الاثنين سرعان ما تصادقا، وهو ما قد يُفسِّر رحيلهما معًا ليُجرِّبا حظهما في بلد جديد. لم يكن لأيٍّ منهما أيُّ أقارب على الإطلاق.

فور وصولهما إلى ملبورن، انطلق الاثنان عبر البلاد وهما يعتزمان التوجُّه إلى مناجم الذهب الجديدة التي كانت في أوجِ ازدهارها آنذاك. لا أدري موقع هذه المناجم، غير أنَّ إيسلي لم يَصِل إلا بعد ثلاثة أشهر على أيِّ حال، وقد وصَل بمفرده؛ إذ قيل إنَّ رفيقه قد تُوفِّيَ في الطريق. ومن المستحيل أن تكون تلك الأقاويل صحيحة؛ لأنَّ بلاك ظهر مجددًا في نهاية المطاف بعدما اختفى تمامًا.

ولا يَبدو أنَّ إيسلي قد بدأ في ممارسة مهنتِه لثلاث سنوات أو أربع؛ إذ يُمكننا تتبُّع تنقُّلاته من معسكر تنقيبي إلى آخر، حيث نقب قليلًا وقامَرَ كثيرًا، وكان معروفًا في العموم باسم د. إس؛ لعله اختصار لإيسلي. ولم يحاول أن يؤسِّس سمعته كطبيب حتى وصوله إلى أستراليا الغربية. كان لديه شيء أشبه بالعيادة، صحيح أنها لم تكن راقية بالدرجة الكافية، لكنها كانت مربحة بلا شك. اختفى من مدينة كولجاردي في عام ١٩٠٠. ولم يُعاوِد الظهور في إنجلترا حتى عام ١٩٠٨.» كانا قد وصلا إلى الساحة في ذلك الوقت، وكانت الشوارع أكثر ازدحامًا مما كانت عليه حين تبعَ مانفريد الشحَّاذ.

قال مانفريد: «لديَّ شقة هنا. تفضل بالدخول لنَحتسيَ بعض الشاي.»

كان يسكن شقة تقع فوق محلِّ مَصُوغات في كال موريرا. وكانت شقة فخمة جيدة التأثيث. وبينما كان مانفريد يُدخل المفتاح في الباب، تابع موضِّحًا: «وهي مُميزة على نحو خاصٍّ فيما يتعلَّق بالإضاءة.» ووضع غلاية شاي فضِّية على الموقد الكهربائي.

تساءل بويكارت: «الطاولة معدة لاثنين؟»

قال مانفريد بابتسامة خفيفة: «غالبًا ما يأتيني زوار. أحيانًا تُصبح مهنةُ التسول عبئًا لا يُحتمل لصديقنا ليون، ويدخل إلى قرطبة عبر السكة الحديدية، بصفته عضوًا مرموقًا من أعضاء المُجتمَع وكله رغبة في الاستمتاع برفاهيات الحياة، وبالقصص. فلتُكمل قصتك يا بويكارت؛ فأنا متشوِّق لسماعها.»

جلس «السائح» في مقعد وثير ذي ذراعين.

تساءل: «إلى أين وصلت؟ آه، نعم، اختفى د. إيسلي من كولجاردي، وبعد اختفاء دام ثمانية أعوام، عاد للظهور في لندن.»

«هل أحاطت بظهوره أيُّ ظروف استثنائية؟»

«كلا، كان الأمر عاديًّا تمامًا. يبدو أنَّ النسخة الأحدث من نابليون قد تبنَّته؛ أي ذلك الرفيق ذاته الذي أُعلِن عن وفاته، لكنه كان حيًّا يُرزق.»

سأله مانفريد رافعًا حاجبيه: «أتقصد كريسويل بلاك؟»

أومأ بويكارت برأسه بالإيجاب.

ثم قال: «بالضبط. على أيِّ حال، يبدو أنَّ إيسلي يَنعم برغد من العيش، بفضل الحالات التي استطاع سرقتها من الممارسين الآخرين في ضاحيته — في مكان ما في حي فوريست هيل — والحالات التي تأتيه بتزكية من نابليون. لقد جذب انتباهي لأول مرة ...»

في تلك اللحظة سُمع طرق على الباب، ورفع مانفريد إصبعه محذرًا. اجتاز الغرفة وفتح الباب. كان حارس البناية واقفًا أمامه، وفي يده قبعة؛ وكان هناك من خلفه على مسافة قصيرة بالأسفل، شخص غريب، وكان واضحًا أنه إنجليزي.

قال الحارس: «يوجد سيد يرغب في لقاء فخامتك.»

قال مانفريد مخاطبًا الغريب بالإسبانية: «مرحبًا بك في منزلي.»

قال الغريب الواقف على السلم: «يؤسفني أنني لا أتحدث الإسبانية جيدًا.»

سأله مانفريد بالإنجليزية: «هلا صعدت؟»

فصعد الآخر السلم بتؤدة.

رجال العدالة الأربعة

كان رجلًا في العقد السادس من العمر. كان شعرُه رماديًّا طويلًا، وحاجباه كثيفين وأشعثين، وكان فكُّه السُّفلي بارزًا، مما أضفى على وجهه مظهرًا منفرًا بعض الشيء. كان يرتدي معطفًا طويلًا ويحمل في يده المكسوة بقفاز قبعة ناعمة ذات حواف عريضة.

أخذ يحدق عبر الغرفة محولًا بصره من أحدهما إلى الآخر.

قال: «اسمي إيسلي. إيسلي.» كرر الاسم وكأنه يستمد بعض الرضا من التكرار، ثم أردف قائلًا: «د. إيسلي.» أشار له مانفريد بالجلوس، لكنه هز رأسه رافضًا.

قال بنبرة حادة: «سوف أقف؛ فحين يكون لديَّ مهمة أظل واقفًا.»

ونظر بارتياب إلى بويكارت.

ثم قال بنبرة تأكيدية: «لديَّ مُهمة خاصة.»

قال مانفريد: «لديَّ ثقة كاملة في صديقي.»

أومأ إيسلي بالموافقة كرهًا.

قال: «أعلم أنك عالم ورجل على دراية كبيرة بإسبانيا.»

هز مانفريد كتفيه؛ فقد كان بصفته الحالية يشتهر بكونه أديبًا شبه علمي، وكان قد نشر كتابًا عن «الجريمة العصرية» تحت اسم «دي لا مونت».

قال الرجل: «وفي ظل معرفتي هذه، جئت إلى قرطبة؛ لا سيما وأنَّ لديَّ مُهمة أخرى أيضًا، لكنها ليست ملحة.»

راح يبحث حوله عن كرسي، فقدم له مانفريد واحدًا هوى فيه، مديرًا ظهره إلى النافذة.

تحدث الطبيب بتروٍّ شديد وقد مال إلى الأمام، ووضع يديه على ركبتيه: «سيد لا مونت، إن لديك قدرًا من المعرفة بالجريمة.»

قال مانفريد: «لقد أَلَّفتُ كتابًا عن هذا الموضوع، غير أنَّ ذلك لا يعني ما تقول بالضرورة.»

قال الآخر بصراحة مباشرة: «كان لديَّ هذا التخوف. وكنت أخشى أيضًا ألا تكون متقنًا للإنجليزية. والآن أريد أن أسألك سؤالًا واضحًا، وأريد منك إجابة واضحة.»

قال مانفريد: «سأكون مستعدًّا تمامًا لذلك قدر استطاعتي.»

لوى الطبيب قسمات وجهه في توتر، ثم قال:

«هل سمعت من قبل عن رجال العدالة الأربعة؟»

خيم صمت وجيز.

قال مانفريد بهدوء: «نعم، سمعت عنهم، ولكن ألم يَصيروا الآن ثلاثة فقط؟ لقد قُتل أحدهم، ألا تتذكر؟»

«هل هم في إسبانيا؟»

طُرح السؤال بنبرة حادة.

قال مانفريد: «ليس لديَّ معلومةٌ دقيقة عن ذلك. لماذا تسأل؟»

قال الطبيب مترددًا: «لأن ... آه حسنًا أنا مُهتمٌّ بالأمر. يقال إنهم يكشفون الجرائم التي لا يُعاقب عليها القانون؛ إنهم، إنهم يمارسون القتل، صحيح؟»

صارت نبرة صوته أكثر حدة، وضاق جفناه إلى أن صار يجول ببصره من أحدهما إلى الآخر عبر شقين ضيقين.

قال مانفريد: «إن مثل هذا التنظيم معروف وجوده، ومن المعروف أنهم يُصادفون جريمة لا تخضع للعقاب، وينزلون العقاب بمُرتكبِها.»

«أيصلون حتى إلى ... إلى القتل؟»

قال مانفريد بجدية: «يصلون حتى إلى القتل.»

انتفض الطبيب واقفًا في غضبٍ شديدٍ وطوح يديه محتجًّا: «ويفلتون دون عقاب! يفلتون دون عقاب! وجميع رجال القانون بالأمم كافَّة لا يُمكنهم الإيقاع بهم! لقد نصبوا أنفسهم قضاة؛ من هم ليُحاكِموا الناس ويُدينوهم؟ من أعطاهم الحق للجلوس على منصة القضاء؟ يوجد قانون، وإذا احتال عليه أحدهم ...»

وفجأة كبح جماح نفس، وهز كتفيه، وهوى في مقعدِه بقوة مرة أخرى.

ثم قال بأسلوب فظ: «إنَّ المعلومات التي استطعت الحصول عليها عن هذا الموضوع حتى الآن تفيد بأنَّ هؤلاء الرجال قد توقفوا عن ممارسة نشاطهم؛ فهم خارجون على القانون، وتُوجَد أوامر قضائية بضبطهم في كل بلد.»

أومأ مانفريد.

وقال في لطف: «هذا صحيح تمامًا. أما كونهم لا يزالون يمارسون نشاطهم أم لا، فهذه مسألة لن يكشف عنها إلا الوقت.»

تلوَّى د. إيسلي في كرسيه في غير ارتياح. كان من الجليِّ أن المعلومات أو التأكيد الذي توقع الحصول عليه من هذا الخبير المتخصِّص في الجرائم لم يكن مُرضيًا تمامًا له.

تساءل قائلًا: «وهم في إسبانيا؟»

«هذا ما يُقال.»

قال الطبيب في استياء: «إنهم ليسوا في فرنسا، وليسوا في إيطاليا، وليسوا في روسيا، ولا في ألمانيا؛ فلا بد إذن أنهم في إسبانيا.»

راح يُجيل فكره في الأمر لبعض الوقت في صمت.

قال بويكارت، الذي كان مستمعًا صامتًا حتى الآن: «معذرة، لكن يبدو أنك مُهتم بهؤلاء الرجال أبلغ الاهتمام. هل سيُزعجك إذا طلبت منك، إرضاءً لفضولي، أن تُخبرني بالسبب وراء لهفتك لمعرفة مكانهم؟»

قال الآخر سريعًا: «الفضول أيضًا؛ فأنا دارس مُتواضع لعلم الجريمة نوعًا ما، مثل صديقنا لا مونت.»

قال مانفريد بنبرة هادئة: «بل طالب مُتحمِّس.»

قال إيسلي غير مبالٍ بالتأكيد المعبِّر في نبرات صوت الآخر: «كنت أتمنى لو أنك استطعت تقديم المساعدة؛ فأنا لم أعلم عنهم شيئًا بخلاف حقيقة أنهم قد يكونون في إسبانيا، وهي في النهاية محض فرض.»

قال مانفريد وهو يُرافق ضيفه إلى الباب: «ربما حتى لا يكونون في إسبانيا؛ ربما لا يكون لهم وجود أصلًا؛ ربما تكون مخاوفك لا أساس لها تمامًا.»

قطَّب الطبيب وشحبَت شفتاه، وقال وأنفاسه تتلاحق: «مخاوف؟ هل قلت مخاوف؟»

ضحك مانفريد بلا اكتراث قائلًا: «آسف! ربما لا تكون إنجليزيتي جيدة.»

تساءل الطبيب في نبرة عدوانية: «لماذا أخشاهم؟ لماذا؟ إنك تنتقي كلماتك برعونة شديدة يا سيدي. ليس لديَّ ما يجعلني أخشى رجال العدالة، ولا أي شيء آخر.»

ووقف يلهث عند المدخل كرجل حُجب عنه الهواء على حين غرة.

تمالك نفسه بصعوبة، وتردد للحظة، ثم غادر الغرفة بانحناءة بسيطة متصلبة.

نزل على السلم، ومنه إلى الشارع، ثم عرج إلى ساحة باسيو.

كان هناك شحاذ على الناصية يَرفع يدًا واهنة.

قال متأوِّهًا: «لأجل الرب ...»

سدد إيسلي ضربة ليد الشحَّاذ بعصاه وهو يسب، لكنها لم تُصِب؛ إذ كان الشحاذ سريعًا على نحو فريد، ففي ظل كل المشاقِّ التي كان متأهبًا لمواجهتها، لم يكن لدى جونزاليس أي رغبة لتحمُّل كدمة أو خياطة جراحية في يده؛ فقد كانت هاتان اليدان المرهَفتان هما كل ما يَمتلكه جونزاليس.

سلك الطبيب طريقًا موحشًا متوجهًا إلى فندقه.

عند وصوله إلى غرفته، أغلق الباب وألقى بنفسه على كرسيٍّ ليفكر. أخذ يَلعن حماقته؛ فقد كان جنونًا منه أن يفقد أعصابه، حتى وإن كان ذلك أمام شخص في تفاهة هاوٍ إسباني في مجال العلوم.

وهكذا انتهى النصف الأول من مهمَّته بالفشل. أخذ من جيب مِعطفه الذي كان معلقًا خلف الباب كتيبًا سياحيًّا إسبانيًّا. وأخذ يقلب أوراقه حتى وصل إلى خريطة لقرطبة. وكان ملحقًا بها خريطة أصغر، بدا واضحًا أن مَن وضعها شخص يعرف تضاريس المكان.

كان قد سمع عن د. كاجالوس من أناركي إسباني كان قد قابله في بعض جولاته الليلية الاستطلاعية في لندن. وتحت تأثير نبيذ من نوع جيد، أضفى هذا الرجل الجريء على ساحر قرطبة صفات هي أقرب إلى القوى الإعجازية، وقال أيضًا أشياء أثارت اهتمام الطبيب إلى درجة بالغة. أعقب ذلك رسالة، وكانت النتيجة هي هذه الزيارة.

نظر إيسلي إلى ساعة يده. كانت عقاربها تُشير إلى السابعة تقريبًا. سوف يَتناول عشاءَه، ويذهب إلى غرفته ويستبدلُ ثيابه.

أصلح هندامه على عجل في ظلام الغرفة الآخذ في التزايد — والغريب أنه لم يشعل نور الغرفة — ثم ذهب لتناول العشاء.

اتَّخذ لنفسه طاولة، ودفن وجهه في مجلة إنجليزية أحضرها معه. في أثناء القراءة، كان يُدوِّن ملاحظات من آن لآخر في مفكرة صغيرة تقبع على الطاولة بجوار طبقه. لم تكن لهذه الملاحظات أي صلة بالمقال الذي كان يقرؤه، ولم تكن لها سوى صلة محدودة بالطب؛ فقد كانت تتناول في العموم جوانب مالية معيَّنة لمعضلةٍ خطرت بباله.

فرغ من عشائه، وراح يَتناول قهوته على الطاولة، ثم نهض، ووضع المفكرة الصغيرة في جيبه والمجلة تحت ذراعه، وعاد أدراجه إلى غرفته. أضاء النور، وأسدل الستائر، وسحب مزينة خفيفة تحت المصباح. أبرز المفكِّرة مرة أخرى من جيبه، وبالاستعانة بعدد من الأوراق كان محتواها متلاصقًا للغاية أخذها من حقيبته، استطاع تجميع جدول صغير. وظل مُنهمكًا في ذلك تمامًا لقرابة ساعتين.

وكأن ساعةً مُنبِّهة خفية وغير مسموعة قد نبهته إلى انهماكه ذاك، أغلق المفكرة، ووضع مذكراته في الحقيبة، وارتدى معطفه. وغادر الفندق معتمرًا قبعة ناعمة من اللِّبْد منسدلة على عينيه، وبدون تردد اتخذ الطريق المؤدي إلى جسر كالاهورا. كانت الشوارع التي اجتازها وصولًا إلى وجهته مهجورة، لكنه لم يتردَّد للحظة في اختيار طريقه؛ إذ كان يعرف جيدًا ما تتسم به هذه الضواحي الإسبانية الصغيرة المُفتقِرة إلى أي جاذبية من التزام بالقوانين.

خاض في متاهة من الشوارع الضيقة — وكانت دراسته للخريطة قد قدمت له نفعًا كبيرًا — ولم يتردَّد إلا حين وصل إلى زقاق كان أكثر اتساعًا ورحابة من الشارع الذي تفرع منه. ازداد المكان كآبة بوجود مصباح زيتي واحد في الطرف الأقصى من الشارع. وتراصَّت على كلا الجانبين بيوت عالية بلا نوافذ، قد حُفر في كل منها باب. وبعد لحظة من التردُّد، طرق الطبيب مرتين على الباب الواقع إلى يساره.

فُتح الباب في الحال دون أي ضجيج، مما جعله يتردَّد.

جاء صوت من الداخل يتحدث بالإسبانية قائلًا: «ادخل. لا داعيَ للخوف يا سيد.»

دلف وسط الفراغ الحالك، وأُغلق الباب من خلفه.

قال الصوت: «من هذا الاتجاه.»

استطاع وسط الظلام الحالك أن يتبيَّن جسدًا غير واضح لرجل ضئيل البِنية.

قال الصوت ضاحكًا: «لقد انطفأ المصباح. لا شكَّ أن الأرواح هي مَن أطفأته.»

وضحك مجددًا.

قال: «إنَّ الأرواح والأشباح كثيرة هنا. لقد تحدَّثتُ إلى العديد منها في هذا المكان. إنها لطيفة ومطيعة للغاية، لكنها تُقلق الغرباء. انظر!» توقف عن الحديث فجأة وأمسك بذراع الآخر ثم همس قائلًا: «انظر! تلك روح شخص قد مات بالسم. إنه هو، هو!» قهقه بصورة مُثيرة للرعب، وشعر إيسلي برجفة تسري في جسده. وتابع الرجل الضئيل قائلًا: «إنه شيطان أخضر! وهو حزين للغاية. تلك هي سِمَة الشياطين الخضر؛ لا يتقافزون

ويتواثبون مثل نظرائهم، بل يجرجرون أقدامهم ويذرفون دموعًا غزيرة. يا إلهي!» وأردف متمتمًا: «لم البكاء وقد ماتوا ميتة سهلة؟»

قال إيسلي بصوت أجش: «أستحلفك بالرب ألا تتحدث هكذا!»

قال الآخر: «لا يجب أن تنزعج.» وصلا إلى منزل لم يكن واضحًا وسط الظلام، وسمع الطبيب صوت مفتاح في القفل وسمع صوت طقطقته وهو يدور بداخله، «ادخل يا صديقي.»

دلف الطبيب وأخذ يمسح قطرات العرق من على جبينه خلسة. أشعل العجوز مصباحًا، وراح يتفحَّصه بعناية. كان ضئيلًا للغاية، لا يزيد طوله عن أربع أقدام إلا قليلًا. كانت له لحيةٌ بيضاء شعثاء، ورأس أصلع كبيضة. كان وجهه متسخًا وكذلك يداه، وكان مظهره بالكامل يوحي بوجود جفاء بينه وبين الماء.

استقرَّت عيناه السوداوان اللامعتان في غور رأسه، وكانت التجاعيد المحيطة بهما توحي بأنه رجل تحرَّى الجانب المَرِح في الحياة. كان هذا هو د. كاجالوس، أحد مشاهير إسبانيا، غير أنه لم يحظ بمكانة اجتماعية بارزة.

كانت الغرفة التي كانا فيها رحيبة وعالية الجدران. وكان أثاثها مهترئًا؛ فعلى طاولة كبيرة، قبعت مقطرة معوجة مهملة، كما كان هناك عدد لا يحصى من أنابيب الاختبار، والموازين، وأكواب المعايرة المدرجة في مراحل متنوعة من الاتساخ.

قال كاجولوس: «اجلس. سوف نتحدث في هدوء؛ إذ إنَّ لديَّ في الغرفة المجاورة سيدة من الطبقة الراقية في انتظار مقابلتي بشأن علاقة حب مفقودة.»

اتخذ إيسلي موضعه في الكرسي الذي قدمه له، بينما جلس الطبيب على مقعد طويل بجوار الطاولة. كانت هيئة غريبة تلك التي اتخذها بساقيه الضئيلتَين المتدليتين، ووجهِه العجوز، ورأسه الأصلع اللامع.

استهل الطبيب الحديث قائلًا: «كنت قد كتبت إليك بشأن بعض الظواهر الغامضة.» لكن العجوز قاطعه بإشارة سريعة من يده.

وقال: «لقد أتيت لمقابلتي يا سيدي بشأن العقار الذي قمت بتحضيره؛ مستحضر الفيسوستيموناين.»

هب إيسلي واقفًا.

قال متلعثمًا: «أنا، أنا لم أخبرك بذلك.»

قال الآخر بنبرةٍ جدية: «أخبرني الشيطان الأخضر. إنني أتحدث كثيرًا مع الشياطين الحزينة، وهي تتحدَّث بصدقٍ شديد.»

«ظننتُ أن ...»

قال العجوز: «انظر.» وقفز من مجلسه العالي بخفة ورشاقة، ثم توجه إلى الجانب المظلم من إحدى الغرف حيث كانت هناك بعض الصناديق. سمع إيسلي صوت شغب، وسرعان ما عاد العجوز حاملًا في يده أرنبًا من أذنَيه وهو يتلوَّى.

بيده الخاوية نزع سدادة زجاجة خضراء صغيرة على الطاولة، ثم التقط ريشة من فوق الطاولة، وغمس طرفها بحذر في الزجاجة. بعد ذلك، لامس أنف الأرنب بطرف الريشة في حذر وخفة بالغين، حتى إنَّ الريشة لم تكد أن تمسَّ أنف الأرنب. وفي الحال، ودون أي مقاومة، صار الارنب يترنَّح ويعرج وكأن جوهر الحياة قد انسحب من الجسد. أعاد كاجالوس السدادة إلى موضعها ووضع الريشة في نيران خافتة أشعلها في وسط الغرفة بواسطة الفحم.

قال باقتضاب: «الفيسوستيموناين هو تركيبة من ابتكاري.»

ووضع الأرنب النافق على الأرض تحت قدمي الآخر.

قال في تباهٍ: «سيدي، سوف تأخذ الأرنب معك وتفحصه؛ سوف تخضعه لاختبارات لا نهاية لها، لكنك لن تكتشف المادة القلوية التي قتلته.»

قال إيسلي: «ليس ذلك صحيحًا؛ فسيكون هناك انقباض لبؤبؤ العين، وهي علامة ثابتة لا تتغير.»

قال العجوز بنبرة انتصار: «ابحث أيضًا عن ذلك.»

أجرى إيسلي الاختبارات الظاهرية ولم يجد حتى لتلك العلامة الثابتة أي أثر.

كان ثمَّة جسد بلا ملامح واضحة يَلتصِق بقوة إلى الجدار بالخارج يرهف السمع. كان واقفًا بجوار النافذة الموصدة. كان معه أنبوب صغير من المطاط المكبرت به مستقبل مكبر للصوت مثبت بأذنه، وكان المطاط الذي يغطي طرف الأنبوب، ذا الشكل الجرسي، مثبَّتًا بمصراع النافذة.

ظل واقفًا على هذا الحال لنصف ساعة بلا حراك، ثم انسحَبَ في هدوء واختفى وسط ظلال بستان البرتقال الذي كان يَنمو في وسط الحديقة الطويلة.

وفي الأثناء فُتح باب المنزل، وبواسطة مصباح في يده، أنار كاجالوس لضيفه الطريق إلى الشارع.

ضحك العجوز قائلًا: «إن الشياطين أكثر اخضرارًا من أي وقت مضى. وي، سوف يكون هناك أحداث ومجريات يا أخي!»

لم ينبس إيسلي بكلمة. كان كل ما يريده هو العودة إلى الشارع مجددًا. وقف واجفًا في جَزَعٍ مُمتزج بالتوتر، بينما كان العجوز يفتح مزلاج الباب الثقيل، وحين انفتح، اندفع نحو الشارع.

قال: «إلى اللقاء!»

قال العجوز: «صحبتك رعاية الرب.» وانغلق الباب بهدوء.

سجل الموت

كان اسم «كريسويل بلاك» بارزًا للغاية في أوساطٍ معيَّنة، بينما لم يُذكَر قَط في أوساطٍ أخرى؛ إذ لم يكن أقطاب المال والأعمال في المدينة — مثل آل فارينج وآل فيرتهاينر وآل سكوت-تيسون — على درايةٍ رسمية بوجوده.

كانوا يقرءون عن كريسويل بلاك بأسلوبهم الجِدِّي الرصين؛ إذ كان ذكره يهيمن أحيانًا على المقالات المتعلقة بالشئون المالية. كانوا يقرءون عن صفقاته العظيمة في مجال الأوراق المالية، وعن صفقته مع إحدى شركات الكهرباء الأرجنتينية، وتمويله شركات المطاط بطرح أسهمها للبيع، ومناجم النحاس الكندية التي يملكها. كانوا يقرءون عنه، بغير استحسان ولا استنكار، وإنما كانوا يعاملونه باهتمامٍ فاتر كذلك الذي يحمله مُحرِّك قطار تجاه سيارة.

جاء بلاك إلى حيِّ المال في لندن في عصر أحد الأيام لحضور اجتماع مجلس إدارة. وقد كان خارج المدينة طوال الأيام القليلة السابقة؛ إذ استبق بتجنيد أفراد جدد من أجل الصراع الذي كان ينتظره، كما قال لمجلس الإدارة بلمسةٍ من الفكاهة.

كان رجلًا متوسط القامة عريض الكتفين. وكان وجهه نحيلًا هزيلًا، وبشرته شاحبة قد كساها اصفرار متجانس غريب. وإذا رأيتَ الكولونيل بلاك مرَّة، فإنك لن تنساه أبدًا، وليس ذلك بسبب وجهه الأصفر أو حاجبه الأشبه بشريطٍ أسود مستقيم أو فمه ذي الشفتين النحيلتين فقط، لكنَّ شخصية الرجل نفسها كانت تترك انطباعًا لا يُمحى في ذهنِ مَن يراه.

كان يتصرف بسرعة وعلى نحو مُباغت، وكانت ردوده فظَّة. أما قراراته، فكانت تتسم بطابعٍ حاسم. وإذا لم يكن أقطاب حيِّ المال يعرفونه، فقد كان الآلاف غيرهم يعرفونه؛ إذ كان اسمه ذائع الصيت في إنجلترا، وكانت جميع عائلات الطبقة الوسطى بأكملها تقريبًا تحمل بعضًا من الأسهم التي كان يطرحها. كان «مُضاربو الشوارع» الصغار يُصغون إلى

كلامه باهتمامٍ بالغ، وكان عدد المتقدمين لشراء الأسهم التي يُصدرُها يبلغ ضِعفَ الأسهم المطروحة. لقد رسَّخ وضعه في خمس سنوات، وبعدما كان مغمورًا من قبل، بَلَغ أعلى المكانات شأنًا في هذه المدة القصيرة.

وفي الموعد المُحدَّد بالدقيقة، دَخَل غرفة الاجتماعات في جناح المكاتب الذي كان يشغله في شارع «مورجيت ستريت».

وكان الاجتماع عُرضةً لأن يكون عاصفًا. فمرَّةً أخرى، كان الحضور يستشعرون رائحة دَمجٍ يلوح في الأجواء، ومرَّة أخرى، عارَض رئيس مجموعةٍ من مديري مصانع الحديد — وهي ائتلافٌ لشركات إنتاج الحديد كان يُشكِّله — تهديدات بلاك ومبعوثيه ومداهناتهم.

قال فانكس: «الآخرون يَضعُفُون، وأنت وعدتني بأنَّك ستُفهِّم ساندفورد حقيقة الوضع.»

فقال بلاك بإيجاز: «سأفي بوعدي.»

«لقد كان ويديسون مُصِرًّا على معارضتنا، لكنَّه مات. لا يُمكننا تعليق آمالنا على مساعدة العناية الإلهية طوال الوقت.»

خفَض بلاك حاجبيه.

وقال: «لا أحب هذا النوع من النكات. ساندفورد رجلٌ عنيد ومُتغطرس؛ إنَّه يحتاج إلى معاملةٍ دقيقة خاصة. سأتولى أنا أمره.»

انفض الاجتماع على نحو غير مرضٍ، وكان بلاك يغادر الغرفة حين استدعاه فانكس بإشارةٍ منه.

قال له: «بالمناسبة، التقيت البارحة رجلًا كان يعرف صديقك الطبيب إيسلي في أستراليا.»

«حقًّا؟»

كان وجه كريسويل بلاك خاليًا من أيِّ تعبير.

«نعم، كان يعرفه في أيام صباه. وقد أخبرني عن المكان الذي يستطيع أن يجده فيه.»

هزَّ الآخر كتفيه.

«إيسلي خارج البلاد، أظنُّك لا تحبه، أليس كذلك؟»

فأومأ أوجستس فانكس برأسه.

وقال: «لا أحبُّ الأطباء الذين يزورونني في منتصف الليل، ولا أجدهم حين أحتاج إليهم، ودائمًا ما يتجوَّلون في أنحاء القارة بغرض التسلية.»

فدافع عنه بلاك قائلًا: «إنَّه رجل مشغول. بالمناسبة، أين يمكث صديقك؟»

«إنَّه ليس صديقي، هو مُنقِّبٌ يُدعى ويلد، وقد جاء إلى لندن بمقترحٍ لاستخراج المعادن. ويمكث في فندق «فيرليتس تمبيرانس» في حيٍّ بلومزبري.»

قال بلاك مومئًا برأسه: «سأخبر إيسلي حين يعود.»

عاد إلى مكتبه الخاص مستغرقًا في التفكير. لم تكن حال كريسويل بلاك على ما يرام. لقد كان يُذاع عنه أنه من أصحاب الملايين، لكنَّه كان في حقيقة الأمر بمثابة واحد من أولئك المولين الكثيرين الذين كانوا يعُدُّون ثروتهم بالأوراق. وكان حتى هذه اللحظة كَمَن يتسلَّق؛ فالثروة المادية الحقيقية كانت ما تزال بعيدة عن متناوله. صحيحٌ أنَّه كان يُنظِّم عمليات دمجٍ ناجحة بين الشركات، لكنَّه تحمل في سبيل ذلك تكلفة باهظة. فكانت الملايين تتدفَّق عَبر يديه، ولا يتبقى منها في قبضته سوى أقل القليل.

كان مستغرقًا في أحلام يقظةٍ مُزعِجة، حين انتشلته منها قَرعةٌ على الباب. فُتِح الباب إيذانًا لفانكس بالدخول.

عَبَس بلاك في وجه ذلك المتطفل، لكنَّ الآخر سَحَب كرسيًّا وقَعَد عليه.

ثم قال: «أصغِ إليَّ يا بلاك، أريد أن أقول لك شيئًا.»

«قُله بسرعة.»

فأخذ فانكس سيجارًا من جيبه وأشعله.

ثم قال: «مسيرتك المهنية مُدهِشة. أتذكَّر حين بدأت مسيرتك بمحلِّ مُضاربةٍ غير قانوني في مبنى «كوبتهول هاوس».» ثم استدرك على عَجَلٍ حين لمح الغضب يتصاعد في وجه الآخر: «حسنًا، دعنا لا نُسمِّيه محلَّ مُضاربة غير قانوني، بل مكتب سمسار تداوُل أوراق مالية غير تابع للبورصة. وكان لديك شريكٌ مُغفَّل، أقصد قليل الخبرة، أسهَم برأس المال.»

«نعم.»

«وقد مات فجأة، أليس كذلك؟»

قال بلاك باقتضاب فظ: «أعتقد ذلك.»

فقال فانكس ببطء: «العناية الإلهية مرَّة أخرى. ثم استحوذتَ على الشركة كلها. لقد استحوذتَ على عملية طرح الأسهم وإحدى شركات المطاط، ونجحت هذه الشركة. حسنًا، ثم طرحتَ أسهم منجم قصدير، أو شيء من هذا القبيل، للبيع. ووقعَتْ حالة وفاة، أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك، لقد تُوفِّيَ أحد المديرين، لكنِّي نسيت اسمه.»

أومأ فانكس.

«كان بإمكانه إيقاف طرح الأسهم للبيع؛ إذ كان يُهدد بالاستقالة وفضحِ بعض أساليبك.»

«لقد كان رجلًا عنيدًا جدًّا.»

«وقد مات.»

«نعم» سكت هنيهةً ثم أضاف: «مات.»

كان فانكس ينظر إلى الرجل القاعد أمامه.

قال: «وكان د. إيسلي يشرف على حالته.»

«أعتقد ذلك.»

«ومع ذلك مات.»

فاتَّكأ بلاك على المكتب، وسأله: «ماذا تقصد؟»

قال فانكس: «لا شيء، سوى أنَّ العناية الإلهية ساعدتْك بعض الشيء. فسجلُّ نجاحك سجلُّ وفيات، لقد أرسلت إيسلي ليزورني ذات مرة.»

«لأنَّك كنتَ مريضًا آنذاك.»

فقال فانكس بتجهم: «أجل، وكنتُ أُسبِّب لك بعض المتاعب أيضًا.» نفض رماد سيجارته على السجادة، وقال: «سأستقيل من كلِّ المناصب التي أتولاها في مجالس إدارات شركاتك يا بلاك.»

فضحك الآخر ضحكةً فظَّة.

«يُمكنُك أن تضحك، لكنَّ هذا ليس صوابًا يا بلاك. أنا لا أريد مالًا أدفع نظيره ثمنًا باهظًا للغاية.»

فقال كريسويل بلاك: «يُمكنُك أن تستقيل من العمل يا عزيزي، لكن هل لي أن أسألك عمَّا إذا كان أيُّ شخصٍ آخر يُشاطرك شكوكك العجيبة؟»

هزَّ فانكس رأسه.

وقال: «لا أحد حتى الآن.»

فظلَّ كلاهما ينظر إلى الآخر على مدار نصف دقيقة.

تابع فانكس حديثه فقال: «أريد الرحيل فورًا. أعتقد أنَّ سنداتي وأصولي تساوي ١٥٠ ألف جنيه إسترليني، يُمكنُك شراؤها.»

قال بلاك بخشونة: «إنك تصدمني.»

فتح درج مكتبه، وأخرج منه قنينة زجاجية خضراء وريشة.

وقال مبتسمًا: «إيسلي المسكين يتجوَّل في إسبانيا بحثًا عن أسرار صناعة العطور المغاربية. سيفقد عقله لو عرف ما تُفكر فيه.»

فقال فانكس بتبلُّد: «أفضِّل أن يفقد عقله على أن أفقد حياتي. ماذا لديك هنا؟»

فنَزَع بلاك سدادة القنينة وغَمَس الريشة فيها.

سحب الريشة وقرَّبها إلى أنفه.

فسأله فانكس بفضول: «ما هذا؟»

وجاءت إجابة بلاك بأن رفع الريشة ناحية الرجل ليشمَّها.

قال فانكس: «لا أستطيع شم أي شيء.»

فأمال بلاك طرف الريشة إلى الأسفل سريعًا، ومرَّره على شفتي الآخر. وحينها صاح فانكس: «هنا ...» ثم خرَّ على الأرض خائر القوى.

كان الطبيب إيسلي في غرفة مكتبه يُجري فحصًا دقيقًا جدًّا بالميكروسكوب. كانت الغرفة مُظلمة إلا من الضوء الذي انبعث من مصباحٍ كهربائي قويٍّ موجَّه نحو عاكس الجهاز. ومن الواضح أنه كان قد اكتفى بما اكتشفه على شريحة الميكروسكوب؛ إذ إنه سرعان ما أزال الشريحة الزجاجية ورماها وسط النار وأضاء الأنوار.

أخذ من فوق الطاولة صحيفةً وقرأها.

استرعى أحد الأخبار اهتمامه إذ كان يتحدث عن وفاة السيد أوجستس فانكس المفاجئة.

ورد في الخبر: «كان الرجل المتوفَّى منشغلًا مع كريسويل بلاك، الخبير المالي الشهير، في مناقشة تفاصيل الدمج الجديد لبعض شركات الحديد، حين سَقَط فجأة وفارق الحياة، قبل أن تصل إليه الإسعافات الطبية. ويُعتقد بأنَّ الوفاة قد حدثت جراء توقف القلب.»

لن يجري التحقيق في الوفاة، مثلما كان إيسلي يعرف؛ إذ كان قلب فانكس ضعيفًا في الواقع، وكان يتلقَّى رعاية طبية من اختصاصيٍّ كان يكتشف أعراض المرض من أهون داعٍ يجعله يشتبه فيها؛ وذلك لتخصُّصه في مشكلات القلب.

كانت هذه هي نهاية فانكس إذن. أومأ الطبيب رويدًا. نعم، كانت هذه نهايته. والآن؟

أخذ رسالةً من جيبه. كانت تلك الرسالة موجَّهةً إليه ومكتوبةً بخط ساندفورد الذي كان يبدو منحنيًا ومتراميًا بعشوائية.

كان إيسلي قد التقى به في بدايات المعرفة بين ساندفورد وبلاك حين كانا على وفاق؛ إذ كان الخبير المالي قد أوصى رئيس مصنع الحديد به، وكان الطبيب يعالجه من عدة أمراض حين كان يأتي إلى لندن. كان ساندفورد العجوز يصفه بلقب «طبيبي اللندني» كان صاحب مصنع الحديد يقيم في لندن آنذاك، وبعث إلى الطبيب برسالة.

قال فيها: «مع أنني لا أتفق مع صديقنا بلاك، وقد صار بيننا الآن ما صَنَع الحدَّاد، فأنا متيقنٌ من أنَّ ذلك لن يؤثِّر في علاقتي بك، لا سيما وأنَّني أرجو أن تفحص ابنتي، التي تُقيم معي.»

كانت إديث ساندفورد هي قرة عين الرجل العجوز وأغلى ما لديه. تذكَّر إيسلي أنَّه رآها ذات مرَّة؛ فتاة طويلة ذات عينين تتراقَصان بالضحك وبشرةٍ بيضاء كالحليب ووجنتَيْن حمراوَيْن كالورود.

وضع الرسالة في جيبه، ودخَل عيادته الصغيرة، ثم أوصد الباب. وحين خرج، كان يرتدي معطفه الطويل ويحمل حقيبة كتف صغيرة. كان لديه من الوقت ما يكفي بالكاد ليلحق بقطارٍ متجه إلى حيِّ المال في لندن، وفي الساعة الحادية عشرة، وجد نفسه في غرفة الجلوس الخاصة بساندفورد في فندق «جراند ساوث سنترال هوتيل».

قال رئيس مصنع الحديد بابتسامةٍ وهو يُحيِّي زائره: «أنت رجلٌ غريب أيُّها الطبيب. هل تزور معظم مرضاك ليلًا؟»

فأجاب الآخر ببرود: «مرضاي الأرستقراطيون.»

قال صاحب مصنع الحديد: «يا لتعاسة ما أصاب فانكس المسكين! كنت أتعشَّى معه منذ بضع ليال. هل أخبَرك بأنَّه التقى في أستراليا رجلًا يعرفك؟»

مرَّ ظلٌّ من الانزعاج على وجه الآخر.

وقال بفظاظة: «دعنا نتحدث عن ابنتك. ما بها؟»

ابتسم رئيس مصنع الحديد بإحراج.

وقال: «لا شيء، وهذا ما أرجوه. غير أنَّك تعلم، يا إيسلي، أنَّها ابنتي الوحيدة، وأحيانًا ما أتصوَّرُ أنَّها مريضة. يقول لي طبيبي في نيوكاسل إنَّها لا تعاني أيَّ مشكلة.»

قال إيسلي: «أفهم. أين هي؟»

اعترف الأب قائلًا: «إنَّها في المسرح. لا بُدَّ أنَّك تراني أحمق جدًّا لأنني أحضرتك إلى المدينة من أجل الحديث عن صحة فتاةٍ توجد في المسرح.»

فقال الآخر: «معظم الآباء حمقى. سأنتظر ريثما تأتي.» ثم تمشَّى إلى النافذة ونَظَر إلى الخارج نحو الشارع المضاء بأنوار ساطعة.

سأل فجأة: «لماذا تخاصمت مع بلاك؟»
عَبَس الرجل الأكبر سنًّا.
قال باقتضاب: «العمل. إنَّ «بلاك» يضعني في مأزق. لقد ساعدته منذ أربع سنوات ...»
فقاطعه الطبيب قائلًا: «لقد ساعَدَك هو أيضًا.»
فقال الآخر بعناد: «ولكن ليس بقدر ما ساعدته. لقد أعطيتُه فرصته. طَرَح أسهم شركتي للبيع في طرحٍ أوَّلي وقد رَبِحت، لكنَّه رَبِح أكثر. والآن توسَّع العَمَل توسُّعًا هائلًا جدًّا لدرجة أنَّ مشاركتي فيه لن تعود عليَّ بالأرباح. لا شيءَ سيُغيِّر قراري النهائي.»
قال إيسلي بينما كان يَمشي مرَّة أخرى نحو النافذة: «أفهم.»
كان يعتقد أنَّ أمثال هذا الرجل يجب أن تُكسَر شوكتهم. تُكسَر! ولم يكن لذلك سوى سبيل واحد؛ ابنته. لم يكن بوسع الطبيب أن يفعل شيئًا الليلة، وقد كان هذا واضحًا، لا شيء.»
قال: «لا أظنُّ أنني سأنتظر ابنتك. ربما سأزورك مساء غد.»
فقال الآخر: «آسفٌ جدًّا ...»
لكنَّ الطبيب أسكته.
تحدث قائلًا: «لا داعي إلى الأسف. ستجد رسوم زيارتي مُدرجةً في فاتورتي.»
ضحك رئيس مصنع الحديد وهو يوصله إلى الباب.
وقال: «أنت بارع في الشئون المالية بقدر براعة صديقك تقريبًا.»
فقال الطبيب باقتضاب: «تقريبًا.»

تحذير رجال العدالة

اتجه إيسلي مباشرةً إلى أقرب مكتب اتصالاتٍ واتصل بفندق «تيمبرانس» في بلومزبِري.
كان لديه من الأسباب ما يجعله يرغب في لقاء ذلك الرجل المدعو بالسيد ويلد الذي كان يعرفه في أستراليا.
لم يجد صعوبةً في إيصال الرسالة؛ إذ كان السيد ويلد في الفندق. انتظر الطبيب على الهاتف ريثما يوصله الخادم به. وبعد وقتٍ قصير، سمع صوتًا عبر الهاتف يقول:
«أنا ويلد. هل تريدني؟»
«نعم، اسمي كول. كنتُ أعرفك في أستراليا. لديَّ رسالةٌ إليك من صديق مشترك. هل تستطيع لقائي الليلة؟»

«نعم، أين؟»

كان د. إيسلي قد قرَّر مكان اللقاء سلفًا.

قال: «خارج المدخل الرئيسي للمتحف البريطاني. يوجد القليلُ من الناس هناك في ذلك الوقت من الليل، وبذلك ستقلُّ احتمالية أن تَتُوه منِّي.»

سكت الطرف الآخر هُنيهةً.

ثم قال: «جيد جدًّا، في غضون ربع ساعة؟»

«سيُناسبني ذلك تمامًا، إلى اللقاء.»

أقفل السماعة، وبعدما ترك حقيبتَه في غرفة الأمانات بمحطة «تشارينج كروس»، انطلق سيرًا إلى شارع «جريت راسل ستريت». لم يكن سيستقلُّ سيارة أجرة؛ إذ كان ينبغي ألَّا يترك خلفه دليلًا من ذلك النوع. فما كان بلاك ليتقبل ذلك. ابتسم حين خَطَرت بباله تلك الفكرة.

كان شارع «جريت راسل ستريت» مهجورًا، إلا من تيار مستمر من سيارات الأجرة التي تمر جيئةً وذهابًا، وبعض المشاة الذين يمرون من حينٍ إلى آخر. وَجَد الطبيب رجله منتظرًا. كان طويلًا وهزيلًا بعض الشيء، وكانت تبدو في وجهه سيماء المُفكِّرين المُهذَّبين.

قال الرجل وهو يَتقدَّم نحو الآخر الذي توقَّف آنذاك: «الطبيب إيسلي؟»

قال إيسلي بصرامة: «اسمي كول. ما الذي يجعلك تظنُّني إيسلي؟»

قال الآخر بهدوء: «صوتك. ومع ذلك، لا يُهمُّني ما تُسمِّي به نفسك، لقد أردتُ لقاءك.»

قال إيسلي: «وأنا أيضًا.» سارا مُتجاورَين حتى وصلا إلى شارعٍ جانبي.

وهنا سأله الطبيب: «ماذا تُريد مني؟»

ضَحِك الآخر.

وقال: «أردتُ رؤيتك. إنك لا تُشبه إيسلي الذي كنت أعرفه إطلاقًا. لقد كان أنحف ولم يكن لديه لون بشرتك نفسه، ودائمًا ما كان يُراودُني ظنٌّ بأنَّ إيسلي الذي ذهب إلى البرية في أستراليا قد مات.»

قال إيسلي بشرود: «هذا مُمكن.» كان يريد أن يكسب وقتًا؛ إذ كان الشارع خاليًا. وعلى بُعِد مسافةٍ قصيرة، كان ثمة مَدخلٌ يمكن أن يَرقُدَ فيه رجلٌ دون أن يلاحظه أحدٌ حتى يأتي شُرطي.

كان يحمل في جيبه ريشةً مُشرَّبة ملفوفةً بعناية بضمادة كتَّانية وحريرٍ مدهونٍ بالزيت؛ فسحبها من جيبه خلسةً، وجرَّدها من غلافها بيديه وراء ظهره.

كان الرجل الآخر في هذه الأثناء يُواصل كلامه قائلًا: «الحق أيها الطبيب إيسلي أنني أشعر بأنَّك مُحتال.»

صار إيسلي مواجِهًا له.

قال بصوتٍ خفيض: «إنك تفكر في الأمور أكثر من اللازم، لكنَّني لا أستطيع تمييز هويتك، فلتدِر وجهك ناحية الضوء.»

فأطاعه الشاب، ولم تَكد تمرُّ ثانية حتى رَفَع إيسلي الريشة بسرعةٍ كلمح البصر.

قَبَضت يدٌ فولاذية على معصمه، وظَهَر رجلان آخران كما لو أنَّ الأرض انشقَّت عنهما. وضُغِط على وجهه بشيءٍ ناعم ذي رائحة مُثيرة للغثيان كانت تخنقُه. حاول المقاومة باهتياجٍ جنوني، لكنَّ الأفضلية العددية كانت ضده بفارقٍ كبير. دوى بعد ذلك صوت صافرة شُرطيٍّ وسَقَط على الأرض.

استفاق ليجد شرطيًّا مُنحنيًا تجاهه من فوقه، ثم تحسَّس رأسه بيده في تصرُّفٍ غريزي.

سأله الشرطي: «أيؤلمك يا سيدي؟»

«لا.»

حاول النهوض بصعوبةٍ حتى وقف مُترنِّحًا.

«هل قبضتم على الرجال؟»

«لا يا سيدي، لقد هربوا. كلُّ ما استطعت فعله أنني رأيتُهم بينما كانوا يُسقطونك، لكن ليحفظك الرب يا سيدي، يبدو كأنَّ الأرض انشقت وابتلعتهم.»

نَظَر إيسلي حوله بحثًا عن الريشة، لكنَّها قد اختفت. وببعض التردُّد، ذكر اسمه وعنوانه للشرطي، الذي استدعى له سيارة أجرة.

سأله الشرطي: «أمتيقنٌ من أنَّك لم تفقد شيئًا يا سيدي؟»

قال إيسلي بانزعاج: «لا شيء. لا شيء. أصغِ إليَّ أيها الشرطي، لا تُبلغ أحدًا بما حدث.» دَس عملة ذهبية في يد الشرطي خلسةً، وأضاف: «أريد ألَّا يصل الأمر إلى الصُّحُف.»

قال الرجل: «سمعًا وطاعة يا سيدي، لكني سأُضطرُّ إلى إبلاغ رؤسائي به؛ فقد أطلقت صافرتي مثلما ترى، وسيبلغ زميلي عن الأمر، حتى لو لم أفعل أنا ذلك.»

كان إيسلي مُضطرًّا إلى أن يقنع بذلك. استقلَّ سيارة الأجرة عائدًا إلى منزله في حي «فورست هيل» وكان منهمكًا في التفكير.

من هؤلاء الثلاثة الذين اعتدَوْا عليه يا تُرى؟ وما ذلك الشيء الذي كان لديهم؟

وَصَل إلى المنزل دون أن يقترب قيد أنملة من إجابةٍ عن هذه الأسئلة. فَتَح الباب الموصد ودخل. لم يكن أحدٌ في المنزل سواه هو وتلك المرأة العجوز في الطابق العلوي.

كانت مواعيد خروجه من المنزل ورجوعه إليه متقلبة جدًّا لدرجة أنَّه أرسى نظامًا أتاح له حرية تحرُّك مثاليةً للغاية.

توصل إلى قرار بضرورة وضع نهايةٍ للطبيب إيسلي. يجب أن يختفي إيسلي من لندن. ولم يكن يحتاج إلى إخبار بلاك بذلك؛ فهو سيعرف حتمًا.

قرَّر أن يُسوِّي مسألة رئيس مصنع الحديد وابنته ثم يضع النهاية بعد ذلك.

فتح باب غرفة مكتبه الموصَد، ودخل وأضاء الأنوار.

وجد رسالة على منضدة الكتابة، رسالة موضوعة في ظرفٍ رمادي رقيق؛ فأخذه وتفحَّصه. رأى أنَّه قد سُلِّم باليد وكان يحمل اسمه مكتوبًا بخطٍّ يدوي محكم.

نظر إلى منضدة الكتابة، وانتفض إلى الوراء فجأة.

لقد كُتِبت الرسالة في الغرفة ونُشِّفَت على الورق النشَّاف!

لم يكن يُوجد شكٌّ إطلاقًا في ذلك؛ إذ كان الورق النشَّاف موضوعًا على المنضدة وكان من الواضح أنه قد استُخدِم حديثًا في ذلك اليوم، وكان الخط اليدوي السميك يبدو باتجاهه العكسي من ظَهرِ الظرف.

نَظَر إلى الظرف مجددًا.

كان من المحال أن يكون ذلك من فعل مريضٍ له؛ إذ لم يكن لديه أي مريض. لم تكن مهنة الطب سوى ستار. وفوق ذلك كله، كان الباب موصدًا، وما كان أحدٌ يملك المفتاح سواه. فتح الظرف ممزِّقًا إيَّاه، وأخرج محتوياته التي تمثلت في نصف ورقةٍ من وَرَق الرسائل ورد فيها ثلاثة أسطر هي كما يلي:

لقد أفلتَّ الليلة.

لديك ثمانٍ وأربعون ساعة فقط لتُهيِّئ نفسك للمصير الذي ينتظرك.

رجال العدالة

غاص في كرسيه محطمًا بما عرفه للتو.

لقد كانوا «رجال العدالة»، وقَد أفلَت منهم.

رجال العدالة! دَفَن وجهه بين يديه وحاول أن يفكر. لقد أمهلُوه ثماني وأربعين ساعة. يُمكن فعل الكثير في ثمان وأربعين ساعة. لقد عاش ذُعرَ الموت وهو ذاك الذي أرسل الكثيرين من قبل إلى مصيرهم المحتوم دون أدنى شعورٍ بالندم أو وخز الضمير.

أمسك بحلقومه وأخذ يُحدِّق إلى كلِّ أنحاء الغرفة. إيسلي المُسمِّم — الخبير المتخصص في قبض الأرواح — الرجل الذي أعاد إحياء فن آل «مديتشي» المفقود وخَدَع الشرطة. ثمان وأربعون ساعة! حسنًا، بإمكانه أن يُسوِّي مسألة صاحب مصنع الحديد. لقد كان ذلك ضروريًّا لبلاك.

بدأ يتخذ استعداداتٍ محمومة للمستقبل. لم تكن توجد أوراق ليُتلفها. دخل العيادة وأفرغ ثلاث زجاجات في الحوض. أمَّا الرابعة فقد كان يُريدها؛ فالرابعة، تلك الزجاجة الخضراء الصغيرة ذات السدادة الزجاجية، كانت مفيدةً لبلاك؛ لذا وضعها في جيبه.

ترك المياه تَنساب من الصنبور لتُزيل كل آثار المادة المخدرة التي سَكَبها، ثم هشَّم الزجاجات ورماها في سلة النفايات.

صعد إلى غرفته في الطابق العلوي لكنَّ النوم جافى عينيه. أوصد الباب بالمفتاح وأسند كُرسيًّا إليه. فتَّش داخل الخزانة وتحت السرير وهو يُمسك بمسدس في يده، ثم وضع المسدس تحت وسادته وحاول النوم.

طَلَع عليه صباح اليوم التالي وهو منهكٌ ومُتوعِّك، لكنَّه مع ذلك تأنَّق وتزيَّن بعنايةٍ كالمعتاد.

وفي الموعد المُحدَّد ظُهرًا، قدَّم نفسه في الفندق الذي يقيم فيه رئيس مصنع الحديد؛ فأوصله أحد الخدم إلى غرفة الجلوس.

كانت الفتاة وحدها حين دخل. وقد لاحَظ باستحسانٍ أنَّها كانت شديدة الجمال. كان يعرف بالفطرة أنَّ إديث ساندفورد لم تكن تحمل أيَّ مودَّةٍ تجاهَه. رأى الغيمة التي خيَّمت على وجهها الجميل وهو يقترب منها، وقد استمتع بذلك على طريقته الباردة.

قالت: «أبي في الخارج.»

قال إيسلي: «هذا جيد، يُمكننا التحدث قليلًا ريثما يعود.»

وقَعَد من تلقاء نفسه دون دعوة.

قالت: «يجدر بي أن أخبرك الآن، أيها الطبيب إيسلي، أنَّ مخاوفَ أبي بشأني ليس لها أيُّ أساس.»

دَخَل صاحب مصنع الحديد حينئذٍ وصافَح الطبيب بحرارة.

ثم سأله: «حسنًا، كيف تبدو حالتها في رأيك؟»

فقال الآخر: «المظاهر لا تُخبر المرء بشيء.» لم تكن هذه اللحظة المناسبة لاستخدام الريشة؛ فقد كان عليه أن يفعل أشياء أخرى، ولم تكن الريشة هي السبيل إلى تحقيقها. ظل يتحدث لبعض الوقت ثم نهض، وقال لها: «سأبعث إليكِ بدواء.»

ارتسمت على وجهها تعابير تهكُّمٍ جاف.

سأله ساندفورد: «هل تستطيع المجيء إلى العشاء؟»

فكَّر إيسلي قليلًا، ووجد أنَّ ذلك سيُتيح له فرصة.

قال: «حسنًا، سوف آتي.»

ثم رحل واستقلَّ سيارة أجرة إلى بعض غرف الإيجار بالقرب من سد التايمز؛ فقد كان لديه غرفةٌ مفيدة للغاية هناك.

كان لدى السيد ساندفورد موعدٌ مع كريسويل بلاك. وكان ذلك هو اللقاء الأخير قبل فضِّ الشراكة بينهما.

كان حيُّ المال يعجُّ بالشائعات. وانتشر كلامٌ هامس بأنَّ أمور الخبير المالي ليست على ما يرام؛ وأنَّ اقتراح الدمج الذين كان يعوِّل عليه لم يُقبَل.

جلس بلاك إلى مكتبه عصر ذلك اليوم يلهو وهو شارد الذهن بأحد سكاكين الورق. كان أشد شحوبًا من المعتاد، وكانت اليد التي تمسك السكين ترتعش بعصبية.

تمتم بينه وبين نفسه قائلًا: «لا بد أن يَنتهيَ وجود إيسلي. لقد صار خطِرًا جدًّا، صار خطِرًا للغاية. لقد عاش وقتًا أطول من صلاحية نفعه، ومَن يعش وقتًا أطول من صلاحية نفعه، فهو ميت بالفعل.»

نَظَر إلى ساعة يده. كان هذا وقت مجيء ساندفورد. ضَغَط بلاك جرسًا في جانب مكتبه، فدخل إليه موظف.

سأله: «هل وصل السيد ساندفورد؟»

فقال الرجل: «وصل للتوِّ يا سيدي.»

«أدخِله.»

تبادل الرجلان التحية الرسمية، وأشار بلاك إلى كرسيٍّ. قال باقتضاب: «اقعد يا ساندفورد. والآن، ما موقفنا بالضبط؟»

قال رئيس مصنع الحديد بصرامة وإصرار: «كما هو.»

«لن تُشارك في مخططي؟»

قال الآخر: «كلا، لن أفعل.»

نقَر السيد كريسويل بلاك على المكتب بسكينه، ونَظَر إليه ساندفورد. كان يبدو أكبر سنًّا مما كان عليه حين رآه ساندفورد آخر مرة؛ فقد كان وجهه الأصفر مُشقَّقًا ومجعَّدًا.

قال فجأة: «إنَّ هذا سيَجلبُ الخراب عليَّ. لديَّ دائنون لا حصر لهم. وإذا تمَّ هذا الدمج، فسيستقر وضعي.»

قال الآخر: «هذا خطؤك. لقد تولَّيتَ مهمةً أكبر من إمكانياتك، والأدهى من ذلك أنَّك تعاملت مع الكثير جدًّا من الأمور على أنها من المسلَّمات.»

رَفَع الرجل القاعد إلى المكتب رأسه نحو زائره ناظرًا إليه من أسفل حاجبيه المستقيمين.

قال: «من السهل عليك أن تقعد هناك وتُخبرني بما ينبغي فعله.» وأوحى تهدج صوته إلى الآخر بشيءٍ من الشعور القوي الذي كان يُخفيه. «لا أريد نصيحة ولا عظة، بل أريد مالًا. شاركني في مخططي ووافِق على الدمج، وإلَّا …»

رَدَّ رئيس مصنع الحديد بتحدٍّ قائلًا: «وإلَّا ماذا؟ هل تظنُّني خائفًا من تهديداتك؟»

قال بلاك مُتجهِّمًا: «أنا لا أُهددك، بل أحذرك. أنت تخاطر بأكثر ممَّا تعرف أنك تخاطر به.»

قال ساندفورد: «سأخوض المخاطرة إذن.» نهض من كرسيه وقال: «ألديك شيءٌ آخر تودُّ قوله؟»

«لا شيء.»

«إذن سأودِّعُك.»

أغلَق الباب خلفه بضربةٍ عنيفة، وهبَّ بلاك واقفًا، وكانت قَسمات وجهه تتشنَّج بقوة.

توعَّد قائلًا: «ليفعلنَّ إيسلي أكثر ما يبرع فيه!»

لم يكن لدَيه شيء آخر ليفعله. فعاد بسيارة الأجرة إلى الشقة الأنيقة التي كان يسكنها في شارع «فكتوريا ستريت» وفتح الباب ثم دخلها.

قال له خادمه الذي أتاه مسرعًا ليساعده في خلع المعطف: «ينتظرك رجلٌ يا سيدي.»

«أيُّ نوع من الرجال؟»

«لا أعرف بالضبط يا سيدي، لكنِّي أعتقد أنَّه مُحقِّق.»

«محقق؟»

وجد يدَيه ترتعشان ولعن غباءه. وقف مُتحيِّرًا وسط الصالة لكنَّه تمكَّن في غضون دقيقة من السيطرة على مخاوفه، وأدار مقبض الباب.

نهض رجلٌ ليقابله.

شعر بلاك بأنَّه قد التقاه من قبل. كان ذلك أحد تلك المشاعر التي يَصعُب شرحها.

سأله قائلًا: «أردت لقائي؟»

فقال الرجل بنبرة احترام في صوته: «نعم يا سيدي. أتيتُ لطرحِ بعض الاستفسارات.»

كاد بلاك أن يسأله عمَّا إذا كان ضابطَ شرطة، لكنَّه بطريقةٍ ما، لم يتحلَّ بالشجاعة الكافية لصياغة الكلمات.

كان تكبُّد عناء ذلك غير ضروريٍّ، مثلما ثبت لاحقًا؛ إذ إنَّ كلمات الرجل التالية قد أوضحت مهمته.

قال: «لقد كلَّفتني شركةٌ من المحامين باكتشاف مكان وجود الطبيب إيسلي.»

نظر بلاك إليه بإمعان.

وقال: «من المفترض ألَّا تجد صعوبةً في ذلك؛ فاسم الطبيب واردٌ في سجل الهواتف والعناوين.»

قال الرجل: «هذا صحيح، لكنِّي واجهتُ صعوبةً كبيرة في إيجاده مع أنني بحثتُ عنه كثيرًا.» وأوضح قائلًا: «الحق أنني كنتُ مُخطئًا حين قُلتُ إنني أريد معرفة مكانه، بل أريد إثبات صحَّة هُويته.»

قال بلاك: «لا أفهمك.»

فقال الرجل: «حسنًا، لا أعرف كيف أصوغ قصدي بالضبط. ما دُمتَ تعرف الطبيب إيسلي، فستتذكر أنَّه مكث في أستراليا بضع سنوات.»

قال بلاك: «هذا صحيح، لقد سافَرنا معًا.»

«وقد مكثتما هناك بضع سنوات، أليس كذلك يا سيدي؟»

«بلى، مكثنا هناك عددًا من السنوات، لكنَّنا لم نكن معًا طوال تلك الفترة.»

قال الرجل: «أفهم. أعتقد أنكما قد عُدتما معًا، أليس كذلك؟»

أجاب الآخر بحدة: «نعم، عُدنا في فترتين مختلفتَين.»

«هل رأيته مؤخرًا؟»

«كلا، لم أره، وإن كنت أبعث له مرارًا بالرسائل بشأن مسائل مختلفة.» كان بلاك يحاول قدر المستطاع ألَّا يفقد صبره؛ إذ كان عليه ألا يسمح لهذا الرجل برؤية مدى انزعاجه الكبير من هذه الأسئلة.

دوَّن الرجل شيئًا في دفتر ملاحظاته، وأغلقه ووضعه في جيبه.

سأله بهدوء: «أيُدهشُك أن تعرف أنَّ الطبيب إيسلي الحقيقي الذي سافر إلى أستراليا قد مات هناك؟»

أمسَكَت أصابع بلاك بحافة الطاولة وتمالَك توازنه.

قال: «لم أكن أعرف ذلك. أهذه هي كلُّ الأسئلة التي كنتَ تودُّ طرحها؟»

قال المحقق: «أظنُّ أنَّ ذلك سيكفي يا سيدي.»

فسأله بلاك: «هل لي أن أسألك عمَّن وكَّلك لإجراء هذا التحقيق؟»

«لا يَحقُّ لي الإفصاح عن ذلك.»

وبعدما رحل المُحقق، ظلَّ بلاك يَمشي في الشقة منهمكًا في تفكيرٍ عميق.

لا بُد أن ينتهي وجود إيسلي.

أنزَل من فوق الرف دليلَ سفرٍ وخرائط للقارة من إصدار «بيديكر»، ورَسَم بالقلم الرصاص على ورقةٍ خطةً لتقاعُده. فربما كان ينبغي أن يختفي كريسويل بلاك أيضًا. وما دام الأمر كذلك، فكان من الأفضل أن يستعد. لقد انتهَت لعبته؛ إذ كان رفضُ ساندفورد للتفاوض معه هو النكبة القصوى.

عَبَر الغرفة متجهًا إلى الخزنة التي كانت موجودة في رُكنها وفتحها. كان دُرجها الداخلي يحوي ثلاث رزمٍ متساوية من الأوراق النقدية. أخرجها ووضعها على الطاولة. كانت أوراقًا نقدية من إصدار بنك فرنسا، وكانت كل ورقةٍ منها بألف فرانك.

كان من الأفضل له ألَّا يُجازف؛ لذا وضع الرزم في جيب معطفه الداخلي. إذا فشلت كل الحيل وضاقت به السبل، فستكون هذه النقود طريقه إلى الحرية.

أمَّا بخصوص إيسلي، فقَد ابتسم حين خَطر بباله؛ إذ كان يجب أن يختفي بأيِّ حالٍ من الأحوال.

غادر شقته واستقلَّ سيارة أجرة اتجه بها شرقًا إلى حيِّ المال.

كان ثمة رجلان يتعقبانه، لكنَّه لم يرهما.

سر إيسلي

كانت رفقةً صغيرة راقية تلك التي اجتمعت على العشاء في فندق «جريت ساوث سنترال»؛ إذ كانت ماي ساندفورد قد دَعَت إحدى صديقاتها، وأحضَر السيد ساندفورد شريكه الأصغر في إحدى شركات حي المال، والذي كان يُجري بعض الأعمال معه.

كان إيسلي يرتدي ثيابه اليومية العادية، لكن ذلك لم يُسبِّب أي دهشة؛ إذ لم يُعرف قط بارتداء الثياب التقليدية للإنجليز على العشاء.

بدا واضحًا أنه كان قلقًا ومتوترًا؛ إذ كان تحذير «رجال العدالة» الثاني قد أتاه في ذلك المساء بطريقةٍ غامضة مثلما جاءه تحذيرهم الأول.

قال ساندفورد: «اقعد يا إيسلي.»

كان ثمَّة كرسي فارغ بين رئيس مصنع الحديد وابنته؛ فارتمى الطبيب عليه.

ارتجفت يده وهو يرفع ملعقة الحساء.

فأنزل الملعقة وفتح منديل المائدة الموضوع أمامه.

وقعت من المنديل رسالةٌ على الأرض. كان بلاك قد صار آنذاك على درايةٍ بتلك الأظرُف الرمادية، فكمش الرسالة بيديه واضعًا إيَّاها في جيبه دون أن يحاول قراءتها.

ومنذ تلك اللحظة، استحوذت هذه الرسالة الموضوعة في جيبه على كل تفكيره. رسالةٌ كان يتلمَّسها خلسة من حين إلى آخر ليتيقن من أنها ما تزال في مكانها. كان نصف عقله مشغولًا بذلك الأمر، وكان نصفه الآخر مهتمًّا بإحدى الكئوس. كانت كأس خمرٍ لامعة تقع على يساره وعلى يمين الفتاة. ستشرب الفتاة الشمبانيا من تلك الكأس لاحقًا. وقد كانت هذه مسألة مهمة. ستشرب الشمبانيا منها ثم تخرُّ على الأرض كدُميةٍ متحركة حين تُقطَع عنها الحبال. هذا لو أنَّه استطاع فعل ذلك، لكنَّه كان يفقد أعصابه.

ما كان ليواجه صعوبةً في ذلك قبل أسبوع، بل كان سيُقدِم على تلك الخطوة الجريئة. أمَّا الآن، فقد كان خائفًا؛ إذ كان يشعر بأنه مُراقَب في كل لحظة. وكان ذلك أفظع ما في الأمر. فقد يكون أيٌّ من هؤلاء النُّدُل المهذَّبين الذين كانوا يتنقلون بصمتٍ من ضيف إلى آخر؛ واحدًا من «رجال العدالة». لقد مدَّ يده قبل ذلك ليأخذ كأسها، لكنه شعر بأنَّ عيون الجميع تحدق إليه.

كادت اللحظة المناسبة أن تَحين؛ إذ رأى نادلًا يلف الأسلاك نازعًا إيَّاها عن زجاجات الشمبانيا. وكانت المائدة تضجُّ بقهقهةٍ على تعليق طريف أدلى به الشريك الأصغر. وكان النُّدُل يحومون حول الرجل الذي كان يحمل القنينة.

وفي ثانية، كانت قنينة السائل الأخضر في حِجر إيسلي، بلا سدادة. سكب قليلًا من محتوى القنينة على طرف المنديل. ثم أعاد غلق القنينة، ودَسَّها في جيبه. أخذ الكأس على حِجره، ومسح حافتها من الأعلى مرتين بالمنديل الرطب، ثم أعاد وضع الكأس في مكانها، دون أن يلاحظه أحد.

شعر بتحسُّن آنذاك بعد أن فعل ذلك. اتكأ إلى الوراء في كرسيه، حاشرًا يديه عميقًا في جيبي بنطاله. كان ذلك تصرفًا غير راقٍ، لكنَّه استمد منه شعورًا بالارتياح.

كان ساندفورد يتحدث إليه في تلك اللحظة قائلًا: «إيسلي، استفق يا صديقي العزيز!» واستفاق إيسلي بانتفاضة مفاجئة. «لقد كان صديقي هذا وقحًا للغاية حتى إنه قد علَّق على شعرك.»

قال إيسلي وقد وضع يده على رأسه: «هاه؟»

«حسنًا، إنَّه مُصفَّف وجيد، لكنك ما تزال صغيرًا على أن يكون لديك شعر أبيض.»

«نعم.»

لم يُواصِل المناقشة.

ملأ النادل الكأسين؛ كأس الفتاة أولًا ثم كأسه.

رَفع كأسه باطمئنانٍ وتجرع كل ما فيها. رأى الأصابع البيضاء المشوقة للفتاة تقترب من ساق الكأس وتحيط بها، ورأى من الفتاة نصف جسدها وهي ترفع الكأس بينما لا تزال تنظر إلى رفيقها.

دَفَع إيسلي كرسيه قليلًا إلى أحد جانبيه حين لامست الكأس شفتيها. تجرَّعت جرعة غير كبيرة، لكنَّها كانت كافية.

حبس الطبيب أنفاسه، ثم أعادت الفتاة وضع الكأس وهي ما زالت تُكلم السيدة الموجودة على يسارها.

ظل إيسلي يعُدُّ الثواني البطيئة. أحصى حتى ستين، ثم مائة، ولم ينتبه إلى ساندفورد الذي كان يُكلمه.

لم يؤدِّ العقار مفعوله!

تلمَّس الطبيب جيبه خلسة إلى أن وجد القنينة مرة أخرى، ثم نزع السدادة وأخرج القنينة من جيبه.

سأل فجأةً وهو يشير إلى ركن الغرفة: «ما ذاك الموجود هناك؟» فاتجهت عيون الجميع إلى حيث أشار، وأفرغ هو محتوى القنينة بأكمله سريعًا في كأس الفتاة.

سأله ساندفورد: «لا أرى شيئًا. إلامَ تشير؟»

«لا شيء، لا شيء، أخشى أنني قد أُجهِدتُ من فرط العمل.»

صار طبيعيًّا في غضون دقيقتين. ضحك بحرج على حماقته، ورفض المغادرة.

ظل يراقب وينتظر مرة أخرى، لكنه شارك في المحادثة هذه المرة. اقترح أحد الحاضرين أن يشربوا نخب المضيف. وصحيح أنَّه اقترح شرب هذا النخب على سبيل المزاح، لكنَّ جميع الحاضرين قد رفعوا كئوسهم، ومن بينهم الفتاة.

لم يحدث شيء.

مرت دقيقتان. لا يمكن أن تكون المادة السامة قد فقدت مفعولها. وضع يده في جيبه ولمس الرسالة، ثم أخرجها.

قال بصوتٍ أجش خافت وهو يُمزق الظرف ليفتح الرسالة: «معذرة، نسيت أن أقرأ هذه.»

أخرج نصف ورقة.

فَرَدها بعناية وقرأها.

كانت الرسالة تقول: «ستُوفِّر على نفسك المتاعب إذا علمت أننا وضعنا الماء في القنينة بدلًا من سم الطبيب كاجالوس.

«رجال العدالة».»

غادَرَ المائدة على عَجَلٍ وخرج من الغرفة وهو يتخبط كالأعمى.

وفي خِضمِّ عجلته في دهليز الفندق، اصطدم برجل هناك. كان ذلك هو الرجل الذي زار بلاك في عصر ذلك اليوم.

النهاية كما نُشِرت في مجلة «ذا ثريلر»

قال الرجل ممسكًا بذراعه: «معذرةً. أنا المُحقق الرقيب كاي من «سكوتلانديارد»، وسآخذك إلى الحجز.»

وحالما شعر الطبيب بالخطر، ابتعد عنه قليلًا. وفجأة انطلقت قبضته ولَكَمت الضابط تحت فكِّه. كانت لكمةً هائلة باغتت المحقق الذي لم يكن مستعدًّا لها؛ فهوى على الأرض كجذعٍ قُطِع من شجرة.

كانت الردهة فارغة. رَكَض الهارب إلى البهو تاركًا الرجل على الأرض. كان بلا قبعة، لكنَّه حجب وجهه بيده ومرَّ وسط الزحام في الرواق وخرج إلى الشارع. لوَّح لإحدى سيارات الأجرة.

قال: «إلى محطة «نيو كروس».»

وعند المحطة، أمر السائق بالانصراف، وقطع تذكرة إلى محطة «لندن بريدج». كان القطار يدخل المحطة حين وصل إيسلي إلى الرصيف. وجد عربةً فارغة في عربات الدرجة الأولى، ودخلها.

وفي أثناء تحرُّك القطار خروجًا من المحطة، ظهر رجلٌ يركض على الدَّرَج، وقَفَز على دواسة الصعود إلى القطار في أثناء تحركه.

أمَّا إيسلي، فسرعان ما بدأ العمل في عربته بعد أن أسدل الستائر. ومن حسن حظه الهائل أنَّ القطار كان أحد قطارات الخطوط الرئيسية، وكان يوجد حوض غسيل في المرحاض؛ فشَرَع في العمل سريعًا.

كان قد انتهى قبل وصول القطار إلى محطة «لندن بريدج». رفع ستارة النافذة، فالتقى وجهه بوجه رجلٍ يقف على دواسة صعود القطار، رجل ذي عينين رزينتَين صارمتين.

صاح إيسلي قائلًا: «دي لا مونت!» وحاول تسديد لكمة عنيفة إليه.

غير أنها لم تصل إليه قط؛ إذ كان دي لا مونت قد ابتعد سريعًا عن الدواسة متجهًا إلى بابٍ لإحدى العربات كان مفتوحًا. رفع إيسلي النافذة مرة أخرى، وأنزَل الستارة. ثم أخرج مسدسًا من جيبه ونظر إليه ببلاهة.

كانت مجموعة من الضباط تنتظر على رصيف المحطة.

قال أحد الضباط لاهثًا: «لقد تلقيت رسالة هاتفية تُخبرني بأنَّ رجلنا كان على متن هذا القطار.»

فسأله المفتش: «هل قبضوا على الرجل الآخر؟»

«بلاك؟ لا يا سيدي. لدينا رجال ينتظرونه في شقته. أتساءل من ذا الذي بعث بالرسالة الهاتفية؟»

توقف القطار تمامًا، وبدأت المجموعة الصغيرة البحث. كانت إحدى النوافذ مُغطاة بالستارة من الداخل. ففتحوا باب عربة تلك النافذة.

وجدوا رجلًا يَرقد على الأرض وبجواره مسدس.

قال المفتش وهو ينظر إلى وجه الميت: «هذا غريب. إذن، فقد كان هذا هو سر إيسلي!»

رفع أحد الزملاء عينيه فجأة نحو المفتش.

وقال بانفعال: «هذا الرجل ليس إيسلي.»

رد المفتش قائلًا: «يؤسفني القول إنك مخطئ. إنه إيسلي، وهو كريسويل بلاك أيضًا. إنهما شخصٌ واحد!»

النهاية كما نُشِرت في قصة «رجال عدالة قرطبة»

قال الرجل ممسكًا بذراعه: «معذرةً. أنا المُحقق الرقيب كاي من «سكوتلانديارد»، وسآخذك إلى الحجز.»

وحالما شعر الكولونيل بالخطر، ابتعد عنه قليلًا. وفجأة انطلقت قبضته ولَكَمت الضابط تحت فكِّه. كانت لكمةً هائلة باغتت المحقق الذي لم يكن مستعدًّا لها؛ فهوى على الأرض كجذعٍ قُطِع من شجرة.

كانت الردهة فارغة. رَكَض الهارب إلى البهو تاركًا الرجل على الأرض. كان بلا قبعة، لكنَّه حجب وجهه بيده ومرَّ وسط الزحام في الرواق وخرج إلى الشارع. لوَّح لإحدى سيارات الأجرة. قال: «بلدة «واترلو»، وسأعطيك جنيهًا، إذا لحقتَ بقطاري.»

وفي غضون أقل من دقيقة، كانت السيارة تُسرِعُ به في شارع «ستراند»، لكنه غيَّر تعليماته للسائق قبل الوصول إلى المحطة.

قال: «لن ألحق بالقطار، أنزلني عند ناصية ميدان «إيتون سكوير».»

وعند ميدان «إيتون سكوير»، دفع للسائق أجرته وأمره بالانصراف. وبشيء من الصعوبة، وجد سيارتين تنتظرانه.

قال: «أنا الكولونيل بلاك.» فحيَّاه السائق الأول بلمس طرف قبعته. قال له بلاك: «اسلك الطريق المستقيم إلى ساوثهامبتون، ودَع السائق الثاني يتبعك.» وقبل أن تقطع السيارة شوطًا طويلًا، غيَّر رأيه؛ فقال: «اذهب أولًا إلى نادي «جونيور تيرف كلوب» للخيول في شارع «بول مول».»

وصل إلى النادي، وأومأ للبواب، ثم أمره قائلًا: «أخبر السير آيزاك بأنني أريده حالًا.»

كان آيكي في النادي، وقد كانت محاولة بلاك محض تخمين، لكنَّه قد أصاب رَجُلَه.

قال بلاك على عَجَلٍ للبارونيت المتحير المهتاج: «أحضِر معطفك وقبعتك.»

«لكن ...»

صاح الآخر بغضبٍ وحشي: «من دون جدال، أحضِر معطفك وقبعتك، إلا إذا كنت تريد أن تُجَر من هنا إلى أقرب مركز شرطة.»

رجع آيكي على مضض إلى النادي وعاد في غضون بضع ثوانٍ، وهو يسير بصعوبةٍ وسط معطفه الكبير. سأله بانفعال: «والآن ما سبب كل هذا بحق الجحيم؟» وحين وقع ضوء عمود إنارة على رأس الكولونيل المكشوف، شهق قائلًا: «يا رباه! لقد صار شعرك أبيض! إنك تشبه هذا الرجل المدعو إيسلي تمامًا!»


هنداوي